رواية

كريم كطافة

ليالي ابن زوال

المتوسط

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تحزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

©منشورات المتوسط

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المتوسط

ميلانو - إيطاليا

e-mail: info@almutawassit.org

www.almutawassit.org

تابعونا على

Almutawassitit@

منشورات المتوسط

Almutawassit

إلى أمَي..

أخبرني الآن روب غرييه:

أنت غير قادر على تثبيت صور من ماتوا، فالصور دائماً في تحرّكٍ مفاجئ يزداد كلّما حاولت تثبيتها..

لفظ جسده كلّ فضلات (تسالونيك)، التي حملها في أحشائه قبل توديعه المدينة التي لم يودّعه فيها أحد. قيل له أنّ دوار البحر ضيفٌ لا مفرّ من استقباله في أول أيّام البحّار الجديد. يشبه تلك الأمراض التي تداهم الإنسان في طفولته لأيّامٍ قد تطول، توصله إلى حافة القبر، تريه ملامح الموت، ثم تعود به معافىً محصناً ضدّها طيلة حياته. هو الآن بحّارٌ طفلٌ عليه المرور من داء البحر إلى البحر. عليه المواجهة ولجم جموح الأقدار التي رمته على هذه السفينة المبحرة في المجهول، كما يراها في حالته الغثيانيّة. «عليك أن تظلّ حذراً.. إيّاك والغفلة.. البحر لا يحب الغافلين» واحدة من نصائحَ عديدة سمعها من بحّارة كانوا يكرزون أيام انتظارهم بين سفينة وأخرى أو بين بحر وآخر في مقاهي ومواخير (أثينا) و(تسالونيك).

السفينة مندفعةٌ تشقُّ ذرى الموج، والبحر ما انفكّ يدفع بهضابه المتصاعدة، تمتطي الموجةُ ظهر الأخرى في متواليةٍ من التصاعد لا يعلم إلى أين ستقوده وسفينته. وهو رغم الخوف الماسك بخناقه والهزال الناخر بجسده، ترك كوّته التحتية إلى الأعلى في نزوة طيش (أو يأس..؟) كالهارب من موتٍ إلى آخر. لعله أراد الهروب من قيئه، من خوفه، ومن هذا التشتّت الموجِع بين السرير والمرحاض، المثير للغثيان أكثر مما يثيره دوار البحر. لعله أراد مواجهة البحر وجهاً لوجه بدل الموت غفلةً. سيرى ويسمع ويحسّ بالبحر كما هو في أوج ثورته. ليرى البحر، الذي كثيراً ما قرأ عنه لدى كُتّاب رواياتٍ، كانوا يشوّقون قارئهم للبحر، حتى وهو في أوج جنونه. أراد لمس هذيان أولئك

الكتّاب، عن البحر الصديق، الذي يفيض حكماً ومواعظاً، يوزّعها على أصدقائه البحّارة. وهؤلاء، كلما قسا عليهم، ازداد انشدادهم له. وهو لا يرى بحره في هذه الظهيرة التموزيّة سوى عدواً يسعى للفتك بسفينته. صار يرى البحرَ الآن كيف يغطّس مقدّمة السفينة ولما تظل تترافس بمؤخرتها، يطلقها ثانيةً تشهق إلى السماء، كأنها تبحث في الأعالي عن غيمةٍ رحيمة، تتشبث بها للنجاة من لعبة البحر.

قيل له؛ «إن هياج البحر في تمّوز وآب لا يعدو عن شقاوة طفل، لا خوف منه في هذه الأشهر اللّاهبة». وهو يرى المياهَ قد ملأت الممرّات الجانبية للسفينة، تشفطها المصارف لتعيدها إلى البحر، وهذا يعيدها ثانية. لقد عمّت الفوضى. رأى البحارة كأنهم قططٌ مبلولة تلهو بها شلة أطفال مشاكسين. الوجوه تتلوّن، تنكمش، تتمدّد، مع ارتفاع وانخفاض الموج، استقرّت أخيراً صفراء ذابلة تتمسكن للبحر وتتذرع إلى السماء في حزمة أدعية تردّدها الشفاه الصامتة. أما اللّغة فلم تعد ودّية، صارت تراودها التشنجات وتتسم بالبتر، لا أحد يكمل شيئاً، الأوامر، النداءات، حتى الأحاديث الجانبية إن وجدت طغت عليها سمة البتر. ومن بين هذا الركام المبتور أطلّت عليه حكايةٌ صغيرة، آتيةٌ من خارج الركام، كان قد سمعها من بحّارٍ مصري، عركته البحار والسفن وامتصّت رحيقه مواخير الموانئ وحشيشة الكيف، وتركته هيكلاً هزيلاً تتقاذفه مقاهي (أثينا). زعم له ذلك البحّار العتيق: «إن لبعض ضبّاط السفن القديمة (وسفينته قديمة) مع هياج البحر وانتشار الفوضى، نزوةً خطرة أو قل هي نيّة مبيّته يصلون معها إلى مشروع العمر.. أنهم ببساطة يتآمرون مع الفوضى التي يحدثها البحر والأنواء القاسية، ليغرقوا سفينتهم ومعها بحّاراً أو أكثر، ليعطوا لشركات التأمين مصداقية الحدث. وفي هذه الحالات يختارون من البحارة من هو أقل خبرة ودراية بشؤون البحر. هم ينجون بأطواف النجاة إلى أقرب

جزيرة منتخبة مسبقاً، أو ينتظرون سفن الإنقاذ. بينما الضحيّة تذهب إلى الأعماق مع السفينة المغدورة لتلاعب هناك حوريات البحر. بعد مدّة قد تطول أو تقصر، تبعاً لشيطنة وذكاء المحامين، سيحصلون على تعويض شركة التأمين. غالباً ما يبدّلون سفينتهم القديمة بواحدة أحدث، أو يذهب كلٌّ في طريقه وبحوزته ما يبدأ به بداية أخرى إنما قوية..».

منذ بدء هياج البحر، استقرّت هذه الحكاية في رأسه المشوّش علامة شؤم، آخذة بالتحكم بردود أفعاله. هو في الواقع لا يملك غير ردود الأفعال والامتثال لما يؤمر به. «سأكون أحد القرابين المنذورة على مذبح الشركات.. قرباناً من نوعٍ نادر. كيف لا وأنا سأوفّر عليهم الكثير من الجهد والذكاء، سأغرق من تلقاء نفسي.. أكيد سأغرق... لأني ببساطة لا أجيد السباحة... نكتة.. ها؟، بحّارٌ لا يجيد السباحة!، لينعموا بمكافآتهم ولأذهب أنا إلى الأعماق أبحث عن تلك الحوريّات... ما الذي سيمنع هؤلاء اليونانيين من أن يفعلوها معي.. أو معنا..؟. إنّنا شلّة من البحّارة أو العمّال العرب.. عرب.. أرب.. آرابس.. آرابيش.. أرابيخ.. خرابيش.. فشافيش.. مفردات تعريفيّة تُطلق علينا وتعرّينا من ألقابنا، من بلداننا، ومن أسمائنا.. تلغي كلّ الفوارق الكامنة بيننا.. مفردة حين يطلقها أحدهم يتخفى وراءها ظلّ ابتسامة مواربة على زاوية الفم المعوج... لعلهم في سرّهم يسخرون من هذه الكائنات التي تضحّي بكل شيء، فقط للوصول إلى شواطئهم، بلدانهم، سفنهم، شركاتهم، شرطتهم.. كائناتٍ تصل مجرّدةً من الشواطئ والبلدان ومطرودةً من الحكومات والفقر والشرطة.. تختزلنا أمامهم هذه الكتلة الخشنة اللّاشكلَ هندسيّ لها المسمّاة أرب.. أرابس.. أرابيش.. أرابيخ.. خرابيش.. فشافيش....».

- احمد ربك يا صاحبي؛ أنهم قبلوك بلا شهادات

بحرية.

- لكنّك تعمل من سنين بلا شهادات.

عندها يضيف شبيهك إلى معلوماتك:

- وافقوا علينا بثمن.. ثلث الراتب لك والباقي..

يشير بكامل كفّه إلى غرفة القيادة. وحين وجد أن الأمر لم يزل مستغلقاً عليك، أفصح أكثر:

- يا صاحبي إيش تقدر تعمل.. البوليس معهم.. وأنت حتى ما معك إقامة شرعية.. أبسط شيء يعيدونك لبلادك مخفوراً.

وكأنّك كذلك لم تفهم معنى (مخفوراً)، يخالف كفّيه ويعرضها بوجهك علامة الاعتقال. ارتدّ مُختار إلى الوراء مستفزّاً، كأنّ المغربي محمد قد لعنه، أو صدمه بخبر نحس. ظلّ يهمس بردّة فعله لنفسه قبل أن يعلنها لصاحبه: أن يعيدوك مخفوراً إلى بلدك هو الأخطر يا صاحبي وليس الأبسط..!.

حصل هذا قبل جنون البحر، حين كانت السفينة تسير متطامنةً على صفحة الماء الداكنة الزرقة، مبتعدة رويداً رويداً عن كلّ ما له علاقة باليابسة. كانا جالسين في مقدّمة السفينة، في جلسة تعارفٍ أولى، لم يلحق مُختار التعرّف على الجميع، إذ جاء به سمساره المصري ركضاً والسفينة تتهيّأ للإبحار.

خرج من حكاية البحّار المصري العتيق ومن رطانة المغربي عن الشهادات البحريّة، على رشقة رذاذٍ لطمت وجهه بعنف. كان نصف جسمه مطلّاً

على البحر وهو ممسك بحديد السياج الخارجي للسفينة. لوهلة، شعر مع رذاذ الموج باختفاء حموضة الغثيان القابضة على أمعائه، مع طراوةٍ منعشة بدأت ترطب مسالك رأسه وتتسرّب إلى جسده، طراوةٌ تعرّف على أولى خيوطها مع انقذاف آخر كميةٍ من سوائله الحامضية التي أودعها فجوة المرحاض قبل خروجه إلى الأعلى. غير أنّ صراخاً صار يصله من بعيد أفسد عليه مُتعة اللّحظة وأعاده إلى حكاية المصري وكائناته المغدورة. لمح من بعيد قدوم أحدهم باتجاهه. كان (الثّخين) يسير سيراً متعرجاً مع تموجات جسم السفينة وفمه يقذف برذاذ الشتائم والفشار. هو لم يعرف اسمه بعد، ولعلّ هذا قد عرّفه بنفسه في بادئ الرحلة، إنّما حروف الاسم الكثيرة وتداخلها، جعلته يحتفظ لنفسه بهذا اللقب. ثم هو حقّاً غليظ، ثخين، طويلٌ مثل طود. كان (الثخين) عارياً إلّا من الشورت الطويل، الذي بالكاد يحد من اندلاق بطنه المشعرٌ إلى الأسفل. ما زال يطلق أصواتاً تنتمي للصراخ رغم قرب المسافة بينهما ومتبَلةٌ بمفردات فشار يوناني لاذع منثورة على رأس تلك الكتلة الهلامية التي اسمها (عرب). أرجع مُختار جسمه تلقائياً للوراء مُبتعداً عن السياج حتى قبل أن يفهم ماذا أراد منه. وبتراجعه عن السياج تراجع صراخ وفشار(الثخين) وتحوّل إلى ما يشبه الدردمة مع نفسه إنما بذات العيار الثقيل من الفشار. الأمر الذي جعل رغبةٌ بالشجار تتلبّس مُختار من رأسه إلى أخمص قدميه. رغبةٌ أطلت

عليه من ذلك الخوف الذي زرعه البحّار المصري في رأسه قبل ركوبه البحر. على أية حال، في تلك الفوضى التي أحدثها البحر، كان من السهل حدوث شجار. عاد مُختار وبعنادٍ هذه المرة إلى تشبّثه بالسياج، وعاد صراخ (الثخين) وتقريعه الثقيل ولقرب جسديهما من بعض وكثرة التعبير بالأيدي، حدث الشجار. ابتدأ شجاراً حراً استخدمت فيه كل الحركات المعروفة وغير المعروفة من ضرب ولكمٍ وركلٍ وفغصٍ ومعسٍ ودفع.وخنقٍ حتى تعب الاثنان، واكتفيا بما يمكن تسميته بـ(شجار الطرشان). كلٌّ في مكانه لا يقترب من الاخر يشتم ويلغط بلغته التي لا يفهم الآخر منها حرفاً، منذ البدء وجد مُختار أنه لم يتحصّل على شيءٍ ذي جدوى من مفردات الفشار اليونانية ومن الانكليزية لا يملك غير الـ(فاكيو والماكيو)، لذا لجأ إلى لهجته العراقية. وجدها غنيّة بكل ما يبحث عنه ويريده من مفردات يعوض بها أفعالاً مفترضة في الشجار. استخدم كل ما تيسر له من مفردات البذاءة واللعن وعلى العموم كان فشار الاثنين يستهدف أهدافاً خاصة بالأمّهات والأخوات والعمّات والخالات اليونانيات والعراقيات.. كانت مفردات اليوناني مفهومة للجميع، بينما قذائف مُختار الثقيلة والخفيفة استعصت شيفراتها المتطايرة حتى على العرب الذين تجمعوا أخيراً على صوت الصراخ الذي صار يغطّي على صوت البحر. كان لفرجة البحّارة أن تطول وهم يستمتعون ويضحكون على هذا المهرجان العالمي للفشار،

لولا عزم العراقي بين الفينة والأخرى على الانتقال من المرحلة الشفوية للفشار إلى المرحلة الجسدية لخوض العراك من جديد. عندها تدخل الجمهور على شكل فريقين، العرب أمسكوا بصاحبهم وهو يحاول الانفلات لضرب الثخين، واليونانيون هدّئوا من توتر وانفعال صاحبهم وهو ما زال مندهشاً من ردة فعل البحّار الجديد ويعيد ذات الجملة التي بدت له أن الآخرين لا يريدون تصديقها:

- أنا أردت حمايته.

استمر مُختار في الصراخ والتهديد والوعيد حتى وهو في داخل كوّته التي أخذه إليها البحارة العرب، يصرخ بذات الصراخ الممزوج بالشتائم والفشار. صراخ يشعره بلذة افتقدها منذ زمن بعيد، لذّة كانت تنعش وترطب مسالك رأسه وتتسرّب إلى مساماته بتدرّج مواكب لتدرّجه في منحدرات ومدارج الفشار والشتائم وفي ذهنه؛ لو استطاع العودة لضرب (الثخين) لهدأ رأسه وجسده من هذا التوتر والهياج دفعة واحدة، بدل هذا التدرج المصاحب للصراخ. وهو للآن مع نفسه لم يفهم لِمَ هو بدأ الشجار أصلاً مع شخص لا يعرف حتّى اسمه.

تبيّن لاحقاً، أن الثخين حقّاً أراد حماية مُختار من الانقذاف إلى البحر مع تموجات السفينة حين طلب منه الابتعاد عن السياج. وأنّ تلك المفردات التي استخدمها لم تكن شتائماً، بل هي نوع من توابل لا يستغني عنها اليوناني حتى

وهو يحدّث أمه. هي حسب الأردنيّ رشيد مفرداتٌ من جنس الفشار لكنها تقال للتحبّب وللتعبير عن الصداقة. غير أن المغربيّ محمد أصرَّ أن لذلك الفشار وجهان، أحدهما للودّ والثاني للشجار. استمسك مختار بتفسير المغربي، وجده أقرب إلى إحساسه لحظة وقوع ما وقع. في كل الأحوال، أن مُختار يجهل اليونانية، كذلك هو يتعثر بإنكليزيته مثل طفلٍ حديث العهد بالمشي، تلاحقه السقطات على الدوام ويطلب العون. لذا هو يستعين ويدقق بالملامح وكأنه يسمع بعيونه.

منذ أن عبر حدود بلده، وجد رطانة اللغات حاجزاً صلداً وممتنعاً أشعره بالعجز. لهذا السبب صار يفترض الخسارة مسبقاً في أيّ خطوةٍ يخطوها. الأمر الذي جعله يبتلع الكثير من الخسارات. وكما يبدو أن نتيجة كلّ ذلك الكدس من الخسارات قد انفجر الآن. لم يعد يستمع بعد الآن لما يقوله الحكيم الرابض في رأسه الذي يقرّعه في كل حين طالباً منه أن يروض قدره.. «لا أحد يختار قدره.. لكنّك قادر على ترويض قدرك لو شئت». وهل اختار مختار قدره..؟، هو منذ ذلك اليوم الفاصل بين حدودٍ وحدود، لم يختر أشياءً كثيرةً في حياته، تعوّد على ارتياد الخيارات الوحيدة. دائما يقف بوجهه خيار وحيد. كما هو لم يختر البحر لكنه قَبِلَ العمل على هذه السفينة كخيار وحيد. لعله القدر إياه الذي قرأته له مرة غجرية لها عيونٌ جارحة وجسدٌ مفتول... .

غجريّة! غجريّة..!! ماذا تفعل الغجرية هنا..؟.

- يا ابن كطافة! إنها غجريتي التي قرأت لي مصيري الذي كان مرسوماً على خطوط كفّي.
- وما شأني بمصيرك.. أنا كنت أتحدّث عن نفسي.
- كيف أصدّقك وأنت كنت تنبش ركامي..؟.
- ومن تكون أنت...؟!.
- أنا خالد زوال.
- خالد زوال..!؟.

- لقد نسيتني... أعطيك الحق... إنّنا توأمان يا صديقي... كنا واحداً حتى مطار فرانكفورت.. ومن هناك افترقنا... أنت الآخر اجتزت رحلةً وعرة... لم تكن لك فيها خيارات.. دائما يقف بوجهك الخيار الوحيد. وأنت ما زلت تهرب من هروبٍ إلى آخر.. لعلّك لا تعرف عن ماذا تبحث.. لماذا تكتب.. ماذا تريد من كلّ هذا القلق والحيرة.. هل حقّاً تريد أن تصبح كاتباً.. وماذا بعد.. ماذا يعني- كاتب- في هذا الزمن الأمّي.. من سيقرؤك.. قل من يهتم.. أمّا أنا فهابط عليك من السماء.. لا تختضّ، ما أنا بجبرائيل، ولا أنت بنبي مصطفى.. أنا الآخر كنت هارباً من هروبٍ إلى آخر. وبعد أن بلغت الهروب الذي لا هروب بعده. بعد آخر كومة تراب أهالتها على حفرتنا الكبيرة تلك الآلة الجبّارة التي تسمّونها (شفل)، ارتحت من هروبي. القبر الجماعي هو نسختنا المحليّة التي حاكينا بها بدعة (العرس الجماعي).

لعلك لا تعرف عنها شيئاً.

- من أين خرج عليّ هذا الـ(زوال)؟.
- أنا كنت فيك دائماً...
- وماذا تريد الآن؟.
- لا شيء. فقط أن تكفَّ عن هروبك... وتسمعني.
- أنا لا أعرفك..
- لكنّي أعرفك.
- وهل يكفي هذا للكتابة؟.
- لو قلبنا المعادلة أجده يكفي.
- كيف..؟.
- أنت أصلاً كنت تكتب عنّي، ولما وجدتك تتعثّر لا تدري ماذا تريد.. استهبلت الفرصة.. استهبالٌ مصدرٌ ممتاز.. دعني أستهبلك يا صديقي وستكون أنت الرابح.. سأكون نديمك، سأنجيك من لعبة الأخيلة وسماجة الفراغ الذي يولّد لك كائناتٍ مشوّهة.. سأقدّم لك بدلها كائنات مكتملة... قد لا تكون جميلة ومفهومة تماماً.. لكنها سوية.. ليس بالضرورة أن يكون كل ما يحيط بك جميلاً ومفهوماً..
- أنت تبحث عن وسيط.
- ولِمَ لا تكونه؟.
- لم أعمل يوماً وسيطاً لأرواحٍ هائمة.
- هي روحك الهائمة يا رجل... هل نسيت

العجوز الإيطالية في مطار فرانكفورت..؟!.

- تعرف؟، ظننتك متّ وشبعت موت.. ماذا تريد بعد؟.
- وهل تراني حصلت على شيء مما أردته لتسألني ماذا تريد بعد.. لعلك تحسدني على ميتتي.. قد يكون معك حق.. أكره ما في الموت أن تُترك وحيداً في حفرةٍ على مقاسك.. أما ومعك المئات في مساحةٍ رحبة من الأرض فهذا ترفٌ لك أن تحسدني عليه..
- إنه النحس يلاحقني ما إن أهمّ بالكتابة. سنينٌ وأنا أراوغ الفراغ بالكتابة. أردت الكتابةَ وسيلة دفاعٍ عن النفس. اترك الكتابة تأخذني إلى حيث تريد، أكتب بلا خطّة بلا تصميم، بلا هدف.. لم أحصل إلا على كائنات مشوهة.. لم أحصل إلا على جمالٍ مفجوع بالنقص والتشوّه.. كائنات جميلة لا تحتاج سوى لمسات قليلة لتكتمل، لكني أعجز عن فعلها.. ربما لأنّي لم أعرف كيف وصلت إليها... كل هذا أعرفه يا (ابن زوال) وأنت تتهكم عليّ.. لكني الليلة تعمّدت الكتابة بقصدية مُسبقة عن أشياء تخصني وحدي.. أشياء وأحداث وجدتها تتلاشى في السديم المُنداح إلى الخلف من حياتي. لا يهمّني كيف أكتبها لأني أكتبها لنفسي.. وربما.. لكن هذه الـ(ربما) لم يزل احتمال حدوثها بعيداً وغير

مؤكد.. أقول ربما سيعثر عليها أحد أولادي حين يصل به العمر إلى مرحلة الإلحاح في طلب المزيد عن حياة أبيه...

- لن يقرأك أيٌّ منهم. وإن قرأوك لن يفهموك.
- كم أنت قاسي يا رجل.
- أنت تعرف ما قلته هو الحقيقة.
- نعم.. ربما... ربما.. لكن..
- دعني أقدم لك عرضاً.
- ما هو؟.
- أن تكتب سيرتي.
- سيرتك؟.
- سيرتي كانت هي الاحتمال الآخر لمصيرك. ذهبت أنا ونجوت أنت.
- ....
- ألا يزال الصمت تعبيرنا الشرقيّ الفذ عن الرضا؟.
- الصمت معادل أزلي لتجنب اتخاذ القرار.
- انتظرني إذن في الليالي القمرية.
- ولماذا القمرية؟.
- لا تنس الاتفاق.. أن تتبعني فقط.

هرب. لعلّه لا يعرف أن (روتردام) ليس فيها قمر.. وهذا اليتيم، المهجور، الوحيد، الذي يفعل الأفاعيل كل ليلة، فقط ليزيح عنه كتل الغيوم الرابضة على صدره.. هو ليس بالقمر.. لا أحد

يهتم به... لا أحد يرفع رأسه إلى السماء.. سنين وأنا لم أرفع رأسي إلى فوق في هذا البلد.. حتى نسيت أنَ فوق رأسي شيءٌ اسمه سماء. صرت مثلهم لا أنظر إلى السماء.. بل إلى الأرض، إلى الشوارع والأرصفة إلى خطوط المترو والترام والباص.. حتى الناس لا أجدني أنظر إليهم، مع أنَ عيوني تقول أني أبحلق في وجوههم، لكني لا أراهم وهم كذلك لا يروونني.. نبحلق في وجوه بعضنا دون أن نرى بعضنا.. حتى يداهمك أحدهم بسؤال أو تداهمه أنت به.. لتجده ويجدك وكأنكما منومان كنتما في غورٍ سحيق.. لهذا لا مفر من مفردة (سوري)، (باردوم) (عفواً)، مفردات أو (كودات) للدخول تستخدمها ويستخدمها كتذكرة مرور، استدراك، اعتذار عن هذا الإزعاج.. كلٌ ينظر إلى نقطة ما في داخله.. نقطة بعيدة.. أو قريبة.. تجعله خارج وجوده اللحظي.. ليس هو القمر الذي قصده (ابن زوال)، هو يقصد القمر الذي هناك.. القمر الصديق، أنيس العشاق، نديم الجنود، القمر منير.. لم يقل أحد؛ القمر كئيب.. القمر.. القمر.. كنا نلون قمرنا بألوان تنبجس من ذواتنا، هواجسنا، أمانينا.. لقد فرغت جعبتي.. جعبتي.. وماذا كان في جعبتي..؟، لقد بلبلني (الزوال) وهرب..

اللّيلة القمريّة الأولى (الرؤية والرؤيا)

سأحاول التحدث عني بضمير الغائب إن استطعت.

- أنت في كل الأحوال غائب. ستريحني على الأقل من تقمّص أناك.
- دع التقمُّص لي واتبعني كما اتفقنا.
- لكنك لم تخبرني بعد، لماذا الليالي القمرية..؟.
- لأنني أحببت القمر. وأعرف أن لديكم أزمة أقمار.
- هذا لأنّ أقمارنا على الأرض يا ابن زوال..
- لكم أقماركم ولي قمري. دعنا نبدأ!.

مشهدٌ صغير لحظي يبرق في رأسه عند كل مفرق طرق. ينتصب بوجهه علامةٌ فارقة لا تشير إلى أيّ اتجاه. تتركه للحيرة والتشوش. يتجسد مُجتازاً نطاق اللحظة، دافعاً بنوايا واعتراضات تنضح بها أيامه بوقائعها المتعرجة إلى مساحاتِ قضية مهجورة من مكور رأسه. زمنٌ تراكم وهو يبحث دونما جدوى عن براهين حسيّة يدفع بها وقع حوافر ذلك المشهد الصغير، يلتمّ المشهد على نفسه، لا شيء قبله، لا شيء بعده. يدخل هو فيه، وقبل أن يغلق بوّابته الأخيرة، يسمح لأطيافٍ تهم بالدخول متسرّبةٍ إلى بوابته من حكايات لا يدري أين ومتى قرأها، أو لعله كان قد سمعها خلال ذلك الحيّز الملتبس من طفولته؛ عن سندباد من (بغداد)، كان يجتاز البحار والقفار، يلاعب الجن والسحار.. عن البحار السبعة المتلاطمة خلف عالمنا المنظور.. عن عوالم من السحر تنبثق وإليه تعود.. عن جوهرة متموضعة في خاتم مرصود، ما أن تُدعَك حتى تلفظ ماردا مخيفاً، يتمرغ عند قدميك ويصيح: « شبّيك لبّيك..» إلى آخر الحكاية التي كانوا يسقطون عليها جيلاً إثر جيل، أحلاماً تدغدغ

أخيلتهم، المأخوذة بجنةِ عرضها السموات والأرض، تعويضاً عن قساوة الأيام وفقر الحال. ينحّي أطيافه المتسربة إلى حافات المشهد، مقهى على قارعة الرصيف، يشبه غيره من تلك المتناثرة كالجدري على أرصفة المدينة، وغجرية تدور بجسد مفتول وعيون مفترسة من مقهى إلى آخر. اجتذبه جسد الغجرية «من يدخله سيخرج متطهراً من أدران تلحق بالروح وتنتثر طفحاً على الجلد». كان جسدها مفترساً كعيونها. كيف أصفها؛ هل أقول جسدٌ بضٌ ونحيل، لا أدري لكنه هكذا كان. ناداها رافعاً كفه الأيمن. افترشت الأرض عند قدميه. نخت كفه الأيمن وسحبت الأيسر. تملّت طويلاً في تضاريس كفه، كانت فسحة صمتٍ كافية لتولع فيه جمر الرغبة. هي تقرأ خطوط الكف وهو يتلظى بأبجدية صدرها المباح لعينيه من فتحة الزيق.. تداخلت القراءتان.. بعد علامتين.. سيعقب بروقك شروق.. أمامي علامتان مكوّرتان محمرتان بحمرة الشفق البليل.. أبصر غماماً ينقشع وريح سمومٍ تدبر.. لعق رأس العلامة الأولى كجروٍ أكله الظمأ.. ابشر يا ولد الحلال.. الجرو يلعق ويرنو برأسه إلى فجٍّ عميق بين العلامتين.. أبصر طيراً يطير.. تاه الجرو في تضاريس الفج الغائر في جوف الظلام.. يطير.. يطير.. انتقل الجرو إلى رأس العلامة الثانية.. يطير.. هبط الجرو برأسه المترع بالتيه يبحث عن حلمٍ مرصود في العلامة الثالثة.. ما بال طيرك لا يحط على أرض.. كل مجسات الجرو تقول أن العلامة الثالثة كائنةٌ على نهاية مستقيم ذلك الفجّ الهابط من النهدين.. بخر طيرك.. لم يصل الجرو.. قبل أن تلملم صدرها المفروش أمام عينيه قالت أشياء سمعها كما المسرنم في نومه وهي تحذره من مخلوقةٍ عنيدة. يده ما زالت ممدودةً في الفراغ. سأل: ما معنى العلامتين..؟.

- يومان.. أسبوعان.. شهران.. مو أكثر.. والله أعلم.
- سمعتك تقولين بخّر طيرك..؟.

أومأت برأسها أن؛ نعم.

- وسمعت عن مخلوقة عنيدة..؟.
- كانت عيونها تنشّف البحر. احذرها يا ولد الحلال.
- كونها مخلوقة هذا أفضل..
- راح تعشقها.
- الله يلعن العشق وسيرته.

يحاول لجم تهيّجه وتهدئة التوتّر الحاصل في وسطه وفي صدغيه. غير أن الغجرية وكأنها استلذت اللعبة. طلبت منه أن يمد كفّه من جديد. كأنها لمحت شيئاً ولم تفهمه. سلمها الكف. تملّته طويلاً ثم أعادته:

- ما شايفة شي... يا سبحان الله كأنّه ممحي.
- الله يلعن هذا الكف، جلب لي كل هاي البلاوي وهو ممحي؟.
- أنت على سفر.
- أنا جنديّ.. الجنود عندنا يُقتَلون.. لا يسافرون.
- حياة الجنود كلها سفر.

حياة الجنود كلها سفر.. حياة الجنود.. كلها سفر.. كلها.. سفر.. سفر..

عند هذا الحد توقفت دعابته مع الغجرية. دعابةٌ أرادها مدخلاً إلى جسدها المفتول، ليطفئ به لسع حرائق تلتظي في جسده. إنّما تعويذة السفر التي صار يرددها مع نفسه كالمُنَوِّم، أخمدت تلك الحرائق، وأحلّت محلها وشيشاً صار يدخل من أذنيه ويدور في جسده بفورات عبثية من الاحتمالات. اختلطت معها الرؤية بالرؤيا، والحدس بالتحقق.

حزكث في روحه بقايا حدس قديم دهمه قبل هروبه الأخير، حدس كان قد نظف رأسه من هواجس موت مستحكمة، أخبره أنه لن يمت قبل أن يرى ما رأى. والحدس كعادته يأتي مقطوع الجذر يمقت المنطق ولا ينفع معه البحث عن تبريرات ويقينيات. في نوبةٍ من

نوبات الضجر، في تلك الربيئة البعيدة والشاهقة شهوقَ القمة الجبلية التي تتربع على عرشها، الربيئة المنفى، كلّ من فيها منفي، من عريفها الأول إلى جنودها السبعة، مقطوعة عن الحياة ومتروكة لمصيرها تواجه العصاة الكورد وقساوة الجبل. ليس إليها طريقٌ سوى السماء. يأتون بتموينها وجنودها بالطائرات العمودية. ربيئة تسكنها الأشباح. أشباح الجنود الهزيلة من الضجر والقلق.. وأشباح حكاياتهم عن الشمال.. شمال الدبة وشمال العصاة الكورد، أولئك المتمردون منذ أجيال بعيدة.

كان العصاة في ذهن الجندي المستجلب من مدن وأرياف لم تر جبلاً، كائنات اسطورية، أجسادهم كما العمالقة في حكايات الكبار، مشاجب أسلحة متنقلة، ووجوههم مقدودة من الصخر.. وحين يطلقون الرصاص على الجنود، لا تأتي الرصاصة إلا في الجبين. رصاصة واحدة تكفي أمام أطنان العتاد الذي يطلقه الجنود على الصخور. العصاة دائماً خلف الصخور. وللجنود حكايات أخرى أكثر من أسطورية.. عن دببة تسرق الجنود من رباياهم في وقت الحراسة الليلية. تأخذ الدبة جنديها بعيداً إلى كهوفها السريّة المتناثرة في طيات الجبال، ليضاجعها هناك. هكذا هي الدبة كما يزعم الجنود القدماء، تستأنس مضاجعة البشر، وهي إلى ذلك تعرف ربما أن الجنود هم أكثر البشر حاجة وقدرة على مضاجعتها، لذا هي تذللهم، تجلب لهم كل ما يرغبون فيه من عسل وفواكه وبيض و.. و.. كل ما من شأنه أن يعيد إنتاج تلك الطاقة المكبوتة في أجسادهم.

في تلك النوبة من حراسته، حصل أن هجره القمر، ذلك الأنيس الصبور مع هذيانات الجنود وأخيلتهم المنفلتة، والقمر إذ يهجر الجندي في ذلك السواد العظيم، يلجئه إلى استبدال لعبة الأخيلة بأخرى بديلة، يمد ذراعه في اتجاهات مختلفة محاولاً رؤية الأصابع وهي تتحرك أمامه دونما جدوى، وهي لعبة مملة وبليدة سرعان ما

تحيل الذراع إلى ممارسة اللعبة الأخرى؛ الاستمناء. لعبة الليالي غير المُقمِرة، مسليّة ومنفّسة للاحتصارات التي تنتاب الجنود. ولكل جنديٍّ نسائه وطقوسه الخاصة في الاستمناء.

غير أن خالد زوال المحشور في جوف المحرس العالي من الربيئة وفي تلك الساعة الظلماء، كان يحسُّ بشيء آخر، يحس بالاختناق كما لم يعرفه من قبل، بالأحرى كان يرى قسماتٍ وأكفّاً تطبق على رقبته.. ملامح كائن خارج من حكايات الجنود، تبرق عيونه دون أن تجلي شيئاً من حلكة الليل، يداعب عنقه بكفه الأخطبوطي. نخره الخوف والتوتر وحاول الصراخ، غير أن الصوت كان هو الآخر خائفاً ومحتبساً في طيّات الحنجرة. تهاوى على سياج المحرس الحجري، متوسلاً بأئمته وأوليائه الميتين، عسى أن يشفعوا له أمام الرب العظيم من هذا الخوف الناخر عظامه، ولاعناً نفسه على هجرانه لأئمته وأوليائه منذ زمنٍ طويل.

بعد لحظاتٍ بطول الدهر، ربما بداعي شفاعة أئمته، وربما بدونهم، اصطدم بعالِم لا يعرفه، عالم انبثق للتو من الصمت الذي يلفه، انجلت الظلماء الداهمة عن نور يبهر العيون، وعن مروج خضراء، وقطعان كثيرة من الدببة، كانت تتنزه في تلك المروج. دببة مسالمة، هكذا تقول عيونها، تلك العيون التي تشبه اليراعات التي اعتادت إيهام الجنود في ساعات حراساتهم على أنها جدحات نار من كبريتة أحدهم أو جذاحته. انفلت من القطعان دُبٌ كبير.. أو دُبَة..؟ من أين له أن يعرف. لكنه أرادها دُبَة. اقتربت وهي تشحذ عيونها بذلك البريق الفسفوري إلى هذا الكائن الملقى على صخور الربيئة، وحيداً، مهجوراً، مرعوباً حد الاختناق. أخذت تدور حوله فيما يشبه الرقص وبين دورة وأخرى تعود لتتشممه بلسانها. ولسانه ما زال يلهج بأدعيةٍ لا تغادر سقف الحلق، أدعية صار يستحضرها من صلوات أبيه وأمه التي عادة ما يهددون بها لعبة القدر السمجة بسلاح النذور.. ينذرون الذبائح

لهذا الإمام أو ذاك أمام كلّ مصاب أو ضيق ينتابهما.. نذرَ هو الآخر في تلك اللحظات خروفاً، لكنه لم يعرف بعد إلى أيّ منهم سيهديه وهم كثرٌ.

وبين الهلع الذي خذر أطرافه وبحثه عمن يستحق الخروف، كانت ثقة أمنية تدور في رأسه المشوش على شكل سؤالٍ مثقل بأسئلة صغيرة: «لماذا لا تفهم الدُبّة لغة البشر كما هي تفهم احتياجاتهم.. ألم يقولوا أنها تفهم كل شيء.. لماذا بعد أن تأخذ الجندي سحلاً إلى كهفها البعيد تلحس بلسانها الخشن باطن قدميه وكوعيه حتى ينسلخ الجلد عنهما، لتتركه مُكرسحاً لا يقوى لا على الوقوف ولا على الزحف.. ألا تدري أنه جنديٌ نبذته الحياة ولا يتمنى غير كهف مجهول وامرأة وليفنى العالم من بعده. الجندي لعله الذكر الوحيد بين الكائنات الذي لا يهمه شكل الانثى.. سريعاً ما يعتاده كما يعتاد على سحنات الضباط والعرفاء البغيضة.. أنا جنديٌ أيتها الدُبّة.. ابعدي عني لسانك الذي سيدميني.. أبعديه وأنا أضاجعك.. خذيني إلى كهفك البعيد، ستجدينني لن أغادره، لن أهرب.. وإلى أين أهرب.. أأكون بهذا الغباء لأعود إلى العالم المترع بالرزايا والأسلحة وبلاهة الجنود.. ستكونين امرأتي الجميلة.. سأعلمك مضاجعة البشر وتعلميني مضاجعة الحيوان.. ألا ترين كلانا سيستفيد من عدالة الصفقة».

لكن، من أين للحيوانات أن تفهم صفقات البشر؟، حدث أن غادرته الدبّة دون أن تمسه بأذى، وانجلى الضوء عن ساحاتٍ غريبة وازدحام بشر، ساحاتٍ كانت فيها الطيور تنقر الحبّ عند أقدام البشر الواقفين والسائرين.. طيورٌ تنقر بروية وبلا خوف بين أقدام صبايا يكركرن بزقزقة العصافير... في تلك الثواني الهاربة من إيقاع زمنه الممجوج، اختزل رأسه الرؤيا إلى يقين مشاكس: (سأكون هناك). تلاشت الرؤيا وهو مكتفي بيقينه.. نعم هناك سأكون.. أين هذه الـ(هناك) ومتى وكيف.. بدت له علامات لا تحمل غير استفهامها وغبائها. خرج من محرسه وجلس على حافة سياج الربيئة

الصخري كعلامة مدغمة في سواد الليل ومشرفاً على الوادي السحيق.

وجد في جسده انطلاقةً جديدة وهو ينخي هاجساً عنيداً، كان يسد دونه مشارف الرؤيا، هاجس يعرف من أي كهف في رأسه ينبجس لينغص عليه طراوة الاكتشاف.. أنه هاجس المعرفة المفترضة بالجنود وبلاهتهم في تلك الربايا المنقطعة عن الحياة، حيث العزلة تولد الحرمان وتطلق الخيال، وهذا مخلوق مع أنه بشري، لكنه لا يطيق لغة البشر وحساباتهم، أنه منطوٍ على رموزه مكتشفاً بها العالم ومسمياً للأشياء، ومعه فقط يحصل ذلك التجاور والاختلاط بين الرؤية والرؤيا، وتتحاذى المتقاطعات، وتدوّر زوايا المستحيلات المتفشية في لغة البشر. وقبل أن ينتهي وقت حراسته، أفلح أخيراً في تنحية هاجسه العقلي، وودَّ لو يوقظ كل الجنود وليس فقط الجندي الذي سيستلم منه الحراسة، يوقظ الجميع من نومهم ليحدثهم عن العوالم التي رآها تواً، عن الطيور التي لا تخاف البشر، عن الصبايا المكركرات بزقزقة العصافير، عن عوالم بلا حروب، بلا خوف، بلا قلق مع مطالع الأيام.

ها هي الغجرية تتكأ فيه ذلك الحدس الجبلي الجميل.. قالت أن طيره سيبحر. لم تقل إلى أين. لكنه يعرف الآن إلى أين.. إلى تلك العوالم التي رآها.. وهي قالت كذلك أن طيره لم يحط على مكان.. ظل معلقاً على كفه.. نظر إلى كفه كمن يبحث عنه في ذلك السواد العظيم.. أليس كفه مثل كفوف كثيرة تتناثر على الشوارع وتحملها أجسادها ومثل أخرى متناثرة هناك على وحل السواتر الترابية في الجبهات التي هرب منها لا تحملها أجساد.. كفوف تنضح بالدماء، وهي كانت قبل القذيفة كما هو كفه تنضح بالاحتمالات.

سمع أحدهم يساوم الغجرية:

- تجين وياي.. أعطيك خمس دنانير بدل الدرهم.

سمعها تقول له:

- أنت واحد سرسري.

***

لم ينتبه خالد إلى أين ذهبت الغجرية، غير أن جاره المتكرّش على التخت القريب منه أبو الخمس دنانير ظل يقرأ جريدته. ترك المقهى، واندسّ في زحام الشارع المستقيم الرابط بين بوابتي المدينة (الباب المعظم والباب الشرقي).. الشارع الذي يثير في نفسه ذات السؤال وهو يذرع أرصفته؛ «وهل كان (الرشيد) مستقيماً كما هو شارعه..» خرج من اجتراره التاريخي «.. لنرى ماذا سيحدث لي بعد ساعتين. متوالية الغجرية بدأت بيومين.. واضح أن كفّي الممحي لم يخبرها أن لي موعداً بعد ساعتين مع النقيب (بدر)... ابشر نيتك صافية.. من أين لها أن تعرف أن جوازات السفر عندنا لا يمنحونها وفق النوايا.. بل هم بدون هذا وذاك لا يمنحونها لأمثالي الهاربين من ثلاث مؤسسات أمنية.

- حياتك بهذا التسكع بين المقاهي وبيوت الأقارب، تجعلها باحتمال وحيد: الانتظار.. أنت تنتظر متى يقبضون عليك. لو طاوعتني سأجعل لحياتك احتمالاً آخر..
- صفوان.. فلسفتك الاحتمالية صحيحة مئة في المئة. أريد أن يكون لحياتي احتمال آخر.. لكن كيف؟.
- شخص واحد في هذه المدينة يمكن أن يمنحك هذا الاحتمال.
- من هو؟.
- بدران.
- حلو..
- هاي شبيك؟.
- تعرف أن النقيب الذي صادر جواز سفري اسمه (بدر).. وتعرف أن مسؤول المنظمة الحزبيّة الذي

حاول القبض علي في البيت اسمه (بدري).. وما أدري يمكن يكون اسم زوجته (بدور).. لا ينقصني الآن سوى بدران.

- هذا لأنك لا تعرف بدران بعد.
- أنت شوّقتني فعلاً لرؤية مثل هذه الشخصية الفذّة.. الشخصية القادرة على انتشال جواز سفر مزور من بين مخالب النقيب (بدر). مو بس هذا.. وعليه أن يسهّل سفري خارج الحدود.
- سيخرجك حتى لو كنت (عزرا ناجي زلخا)..
- صفوان الجماعة عندنا لا يمزحون، وإذا خلّوا واحد براسهم ما تشفع له كل بدور الدنيا.

صفن قليلاً ثم سأل:

- لك صفوان أكو سؤال راح يسكرني بدون عرق. برأيك ليش المسؤولين عندنا كلهم بدور..؟.
- لأن تقويمنا قمري. صحتك..!.

ضحك الاثنان بانطلاقة سكارى:

- صحتك. بس حسب علمي تقويمنا الرسمي شمسي.
- لك هذا رسمي. تقويمنا الحقيقي بعده قمري.
- ملعون أنت صرت تعرف هواي أشياء بعد ما...
- اللي يتعرف على أمثال بدران يعرف الكثير.
- لا... قصدي بعد ما تركت الشيوعيين.
- ليس بالضرورة أن أخطأ الخطأ الذي فعله غيري.. هواي وقّعوا على البراءة بعد ما انسلخت جلودهم بالأمن العامة... آني وقّعت بدون هذا.
- خلص. لن أناقشك. هذا خيارك. بس أنت رح تعرفني على بدران..
- رح يلگالك ثقب زاغور.. ويطلعك منه.
- بس أكو على جواز سفري ختم لا يمكن إزالته.. ختم يمنعني من السفر.

- لا تدوخ!، الأختام عندنا تنسخ بعضها.
- يعنى راح ندخل في الناسخ والمنسوخ. بس ما قلتلي؛ شنو شغل بدران؟.
- گوّاد.
- شنو..!؟.
- صحتك!.
- ....
- بلغة الأعمال هو وسيط. قادر على ربط كل شيء بكل شيء. لا يصعب أمامه شيء. بما فيها ربط النساء بالرجال. لكن ليس أي نساء وأي رجال. له هيبة واحترام بين كل الذين يتعاملون معه وهم من الكبار، هيبة يحسده عليه أشرف المسؤولين. رغم تشعّب أعماله، تجده متقشّف ليس عنده مكاتب وسكرتيرات وما إليه، رغم أنه الأحوج لكلّ هذا. فقط يمتلك صالون حلاقة للسيدات في مكان حسّاس من بغداد. هذا الصالون هو مكتبه ومكور حياته. وأكيد أنت لا تعرف أيضاً أن مفاتيح البلد عادة ما تجدها هناك.
- صفوان آني سكرت وبعدني ما شارب الربع. بس عندي سؤال بعد أن وصلنا للقوّادة.. عن أي ثقب تتحدث؟.
- مو ثقبك. اشرب. صحتك.

صمت الاثنان وخالد لم يزل منذهلاً وعيونه معلقة بوجه صفوان. أخرج هذا سيكارتين من علبة (سومر). قدّم واحدة لخالد. أخذها هذا ووضعها في فمه بحركة آلية وهو ما زال ينظر إلى وجه صديقه. ثم نطق:

- صفوان.. ما سر علاقتك بالگواويد الآن؟.

أجاب هذا وكأنه كان ينتظر السؤال:

- لأني وجدت أن الأزمة الحقيقية عندنا هي أزمة

مفاتيح. صدّقني أنا لا أتحدث عن خلاصي الشخصي، مع أن هذا مهم أيضاً، لتفعل أي شيء عليك أن تكون موجوداً في البدء.. أليس كذلك؟، ما الفائدة مما تفكر فيه وتريده إذا كنت تحت التراب، أو مغيّباً في جحر من جحور الأمن. اعط الأولوية لوجودك الفيزيائي. كل شيء يأتي بعد ضمان وجودك الفيزيائي. لكل هدف قفل يحتاج إلى مفتاحه الخاص.

- صفوان، أنا الآن وفي هذه اللحظة التاريخية التي تمر بها أمّتنا.. أما أن أكون فعلاً سكرت بنص ربع، أو تلبّستني واحدة من حالات التجلّي النادرة. تعرف؟، وجدت أن اسمك على نفس التفعيلة. صفوان.. بدران.. مو عندي حق.. شلوني بهذا الاكتشاف؟.
- هذا لأننا من نفس البحر..
- بحر المفاتيح.. ها..؟، صحّة المفاتيح..!.
- صحتك..!.
- تعرف خالد أنت شنو عيبك؟.
- أهووو.. دخلنا بأسئلة الفلاسفة..
- أنت تشبه شيئاً ممنوعاً من الصرف والتداول. شيء كلّش قديم. شوف نفسك. إنت مو شيوعي.. والأمن يطارد الشيوعيين.. إنت ليش هارب؟.
- لك شلون ما أهرب..؟ مسؤول المنظمة بدري مرتين كبس بيت أهلي..
- أنت لم تفعل شيئاً، بل غير مؤهل لأن تفعل شيئاً.. وهم يعرفون هذا. أرادوك فقط أن توقّع على البراءة. تريد تصير أكثر شيوعية من الشيوعيين. بينما أنت أمام الشيوعيين تدافع عن الإسلاميين، حتى من يسمعك يظنّك واحداً منهم، مع أني أعرفك تمقت هؤلاء الناس ولا تطيق كلمة واحدة مما يهذرون به..

إنت شنو؟.

- لا، أرجوك، لا تقل: إنت شنو.. قل: أنت مَنْ!.
- كثرة قراءاتك شوشت مخك. أنت تقرأ كل شيء. ومع الصرعات العالمية، مرة فوضوي، مرة تروتسكي، وجودي، عبثي، شيوعي، إسلامي. كل هذه البلاوي موجودة فيك. لا أجد شيئاً واحداً واضحاً عندك. لكن رغم هذا أحبك. ليش؟! ما أدري.

كرع خالد ما تبقى في كأسه دفعة واحدة. سحب نفساً عميقاً كان هو كل ما تبقى في عقب السيجارة. دعسه في قاع الطبلة. وعلى غير المتوقَّع، بدل أن يرد على صديقه، أطلق ضحكة عالية استجلبت فضول رواد البار من الموائد القريبة من مائدتهم. فرغ فمه من الضحك وصفوان يراقبه بهدوء وشبح ابتسامةٍ على فمه. قال:

- أولاً، الله يحبك ويهديك مفتاح المفاتيح.. مفتاح الجنّة طبعاً.. ولو أني أرى أنّ المفاتيح مسخت مخك.. وجعلتك تغفل حقيقة كوني في مرحلة تناسخ، لا تشويش كما تزعم.. ليس تناسخ أرواح أو مفاتيح أو أختام، بل تناسخ رؤى ونظريات وآراء وفلسفات. لكن دعني أسألك: أنت كنت حتى فترة قريبة شيوعي مستقيم. الآن مهووس بالمفاتيح. ألا تقل لي يا هذا.. إنت شنو..؟.
- أنا صرت مع نفسي.
- وأنا أيضاً. أصلاً أنا من زمان مع نفسي.
- أنت حتى لست مع نفسك؟.
- الشيء الوحيد الواضح لي الآن في هذه اللحظة التاريخية: أن يكون خلاصي من هذا الوطن الجميل، على يد أحد البدور وبمساعدتك طبعاً. فيما بعد ستأتيك المواقف تباعاً، ليش الاستعجال؟.

***

أخذت شخصية بدران تؤرّق خالداً ليالٍ، وتتسرّب قدراته المفترضة إلى مشاريع النوايا وأشباه النوايا. صار يخطط الآن لمشاريع ينفذها خارج الحدود. كل ما له علاقة بداخل الحدود، تركه لقدرات بدران. ويوماً إثر آخر أخذت قدرات بدران تتحكم بردود أفعاله. صار أقلّ حذراً في ارتياده المقاهي، أكثرَ اطمئناناً في نومه. حتى أنه رأى بدران في منامه قبل أن يتعرّف عليه. وجد نفسه يقود سيارةً حمراء جديدة، وإلى جانبه يجلس بدران. هو يعلم أنه لا يجيد قيادة السيارة. لم يقد سيارةً في حياته. رغم ذلك كان يقود تلك السيارة بسرعة جنونيّة ودونما خطأ. يدخل إلى شوارع مزدحمة. يتعقد المرور بين السيارات. حتى تنبه أخيراً؛ أنه كان طيلة الوقت يقود السيارة بسرعةٍ واحدة، لم يغيّرها، بينما مبدّل السرع موجودٌ تحت يده اليمنى. حاول للمرّة الأولى استخدام ذلك المبدل. فجأةً اختفت دوّاسات البنزين والفرملة والفاصل من تحت قدميه. صارت السيّارة تترنّح في سيرها. ثم اختفى المقود. كلُّ شيءٍ يختفي من أمامه إلا الشارع بسيّاراته المتخاطفة. التفت إلى بدران مستنجداً. كان هذا طيلة الوقت جالساً في مقعده هادئاً، مطمئناً، كأنّ شيئاً لم يحدث أمامه. طلب منه بأدبٍ أن يتنحى إلى الخلف ليجلس في مقعده. عادت السيارة إلى سيرها القديم. وغادره الحلم. في تلك الليلة حسم أمره؛ أن يمتثل لكلّ تعاليم صفوان في ترتيب أمر المقابلة مع بدران.

بعد أسبوعٍ على ذلك الحلم، وأسبوعان على جلسة البار، تعرّف على بدران. ويالدهشته، إذ وجده كما رآه في الحلم.. رجلاً ممتلئاً دون سمنة، وسيماً، يوحي لمحدّثه بالثقة والهيبة التي هو عليها. والأغرب، وجد نفسه يحادثه كما لو كان يعرفه من زمان بعيد، رافعاً كلفة الحديث الأول. يتحدث بانسيابيةٍ وجرأة أدهشت صفوان الذي تعود عليه خجولاً، متردداً مع الغرباء. انسيابية تسربت فيما بعد إلى بدران نفسه. حتى التفت إلى

صفوان وسأله:

- صفوان، ما أدري ليش هذا الولد حبّيته.

ها هو الآن يغذّ السير إلى مديرية السفر والجنسيّة. ومع كل التردد والخوف الرابضين في أعماقه، كان مدفوعاً بثقةٍ تسربت إليه من حديث بدران مع النقيب (بدر) على التلفون. سمع الحديث من طرفٍ واحد، إنما كان يخمن ردودَ الآخر:

- بدر. هاي أنت ليش طارد أبن اختي؟.
- ...
- هسه.. من هو.. اسمه.. شكله.. راح يجي عندك ويخبرك هو من طرفي. راح تساعده.. اتفقنا؟.
- ...
- خليها بعدين.
- ...
- دا أگلك بعدين. شعندك بعد؟.
- ...
- زين، هاي بسيطة. راح يجيبلك ياه خالد، حتى يكون علامة مني.
- ...
- دا أگلك بعدين. لا تلح.

أعاد سماعة التلفون. أخرج له سيجارة من علبة الروثمان التي أمامه. سحب نفساً، ثم استدار إلى صفوان.

- تعرف هذا نقيب (بدر) واحد لزگة. بصراحة آني من زمان ما أريد أشوفه. بس هاي لخاطرك.

ثم استدار إلى خالد:

- شوف ابني!، تروح له مباشرة، لا تنتظر سِرَه وبطيخ.. عرّفهُ بنفسك. قل أنت من طرفي. وراح تشوف

شلون ينتهي الفلم.

- استاذ بدران، الله يخليك أخاف يطلع الفلم هندي ويروح جلدي للدباغ؟.

استغرق بدران بضحك عال متقطع، جعله يضرب على كتف خالد وهو يقول:

- إنت ليش خايف كل هذا الخوف من (بدر)؟.
- بصراحة، آني مو بس خايف، آني مرعوب منه.
- وداعتك أسوي صلعته طبل. ابني اسمعني زين. إنت ما مخالف القانون، كل ما في الأمر؛ أن الوالد رجل كبير في السن ما يقدر يسافر معك مثل ما يحتم القانون، وأنت شاب تريد تشوف الدنيا قبل ما تجيك العسكرية. مو هاي هي قصتك؟.
- وداعتك استاذ بدران هي هاي.
- زين، النقيب (بدر).. راح يختم على جوازك ختم ثاني يكول: (يسمح له بالسفر بصحبة ذويه). بعدين تكدر تتفق مع أي شخص مسافر على أساس أنه خالك مثلاً. وإذا انتظرتني كم أسبوع، أدزك مع جماعة أصدقاء إلى الأردن.. شتريد بعد..؟.
- ما أعرف شلون راح أردّلك هذا الجميل.
- لا ترد جميل ولا جميلة. بس أريد هذا الخوش ولد (وأشار إلى صفوان) يفتّح مخّه وياي، لأن راح أعطيه بناية من خمس طوابق هاي المرة. رد صفوان:
- آني بخدمتك أستاذ بدران.

كان الباص على وشك الدخول إلى نفق ساحة التحرير، وخالد في مقدمة الطابق الثاني منه، وجد نفسه يربط احتمال حصوله على الختم الموعود من النقيب (بدر) بمصير ذلك الباص.. «لو ارتطم الباص بدعامة النفق، سوف أهلك أنا وجوازي وكل مشاريعي.. ولو مز

بسلام.. سأحصل على ذلك الختم الملعون..»، هل سمعت أن باصاً ارتطم بدعامات هذا النفق أو غيره من الأنفاق..؟، واضحٌ أنَّ الغجرية دخلت في عقلك يا ابن (زوال).. ليس اسم أبيك فقط هو الغريب.. بل هذه الطريقة التي تفكر فيها..».

- لا تقطع تداعياتي.. يا (كريم) يا ابن (كطافة).. اتفقنا أن لا تضع أنفك الكبير هذا في شؤوني..
- الغجريّة كانت تقرأ لك خطوط الكف وتنبئك بالاحتمالات.. وأنت الآن تريد أن تقرأ خطوط المواصلات واحتمالاتها لتربطها باحتمالاتك..
- نجح الباص ولم يرتطم. حصلت على الجواز مختوماً بالسماح لي بالسفر بصحبة ذويه. وسأكون ذلك الطير الذي لم يحط على مكان. سأظلّ معلّقاً بين السماء والأرض..
- لتجترح معجزة الطائر المعلق.. على وزن الجسر المعلق..
- لقد ذكرتني بقصيدة الجسر المعلّق. قالتها يوماً شاعرةٌ جميلة في زمني. لم أحفظ منها إلا هذا البيت اليتيم الذي كنت أكرره بمناسبة وبدونها: (كل الجسور موصلة.. إلا المعلّق.. هذا أمره أمرُ..).
- طيّب أكمِل لأنّي سأنام على نفسي.. ماذا أفعل لك.. لا يأتيك المزاج إلا في الليالي القمرية..
- وأنت لخبطت مزاجي بتدخلك الفجّ هذا.. أرجوك لا تفعلها ثانية. نسيت أين كنا.
- سأقول لك يا صديقي أين كنا..
- وهل تظنني أستطيع بعد أن قطعت سلسلة السرد. هل تدري شيئاً عن سلسلة السرد. لا أظن.

اللعين اختفى. سأنتظره في ليلةٍ أخرى. هذا إن كانت هناك ليالٍ قمرية أخرى في هذا البلد الملبّد بالغيوم من

أخمص بحره حتى هامة سمائه. لا أقول حتى هامة جباله.. هو يفتقر كذلك للجبال.

تذكّرت أمراً نسيته في الليلة السابقة، أو للدقة أنت من أبعدني عنه بقطعك لسردي.. حين كان خالد زوال يلوب وحيداً على ظهر السفينة، كان مشغولاً بسؤال داهمه حين كان هناك قبل سفره، لكنه نحاه جانباً. سؤال يبحث عن الرابط بين الغجريّة شبه المتسولة وصفوان الذي تحول بعد تخليه عن حزبه إلى ما يشبه مقاولاً مبتدئاً، والشاعرة صاحبة قصيدة الجسر المعلّق. وإذ تعب من إيجاد ذلك الرابط، لجأ كعادته إلى كتبه، لجأ إلى ما كان قد قرأه عن النظرية البنيوية.. أخذ يفكّك الكلام ويجمعه حسب المفردات المتشابهة، وجدها مفردةً واحدة قالها الثلاثة، أو بالأحرى قد اجتمعوا على ذلك الشيء الذي دعوه بالمعلّق. بعد ثلاثة أشهر على وجوده في اليونان رأى أن نبوءة الغجريّة قد تحققت (ما بال طيرك لا يحطّ على أرض)، وصار على ما وصفه به صفوان شيئاً ممنوعاً من الصّرف والتداول.. وأخيراً تجلّت أمامه رؤيا الشاعرة عن جسرها المعلّق، وصلها المعلّق، حبها المعلّق.. وجد أن أمر المعلّق أمرُ...

أما لماذا هو معلّق.. معلّقٌ بين من ومن.. أمام من.. فوق من.. تحت من..؟، تلك الشواخص الاستفهامية لم تكن تشغله عندما كان داخل الحدود. كان رأسه هناك مكتظّاً بمشاريع وخطط كلها ستنفّذ خارج الحدود. منها أنه فكر يوماً أن ينجز دراسةً لغوية، نحوية، سسيلوجية، تهدف إلى إلغاء الفعل المضارع من التداول. هكذا رأى في لحظة تجلّي، أن هذا الفعل زائدٌ في قواعد ونحو اللغة. كانت في ذهنه بدائل، منها الماضي المستمرّ، المستقبل الناقص، ذينك البديلين، وجدهما يتماشيان مع طبيعة الأشياء في زمنه، الماضي مستمرٌ والمستقبل ناقصٌ أو حتى غيرُ متداول.

تتزاحم في رأسه الأسباب والموجبات والمراجع التي عليه مراجعتها لتدعيم مشروعه. المشروع الآخر كان يخصُّ أبيه (زوال محمود). كان ينوي كتابة مذكراته. المذكرات التي ستكون حافلةً بأحداثٍ ووقائعَ وقصص، كانت تسليةً مضمونةً له ولآخرين من أفراد عشيرته في ليالي شتاءٍ طويلة، باردة، قاسية. هو يعدّ أباه سارداً أو روائياً ناجحاً، لولا أميّته لكان واحداً من كتّاب الرواية. كان الأبُ بسرده الممتع ومن حيث لا يدري

يرسم لابنه مستقبلاً قلقاً، لا مكان فيه للسكينة والارتواء، سداه ولُحمته التمرد والهروب. حتى تفتّق خياله المأخوذ بقصص أبيه عن مشروعٍ لدراسة شخصية (الحرامي) في الأدب الشعبي الشفوي. (الحرامي) وليس (اللص)، إذ وجد شتّان ما بين دلالة مفردة اللص التي تشير إلى الحقير، النذل، الجبان، الخسيس، الغادر، الخائن. الخ، من مفردات الشتم والذمّ في القاموس الشعبي والفصيح على السواء، ودلالة مفردة الحرامي كما كانت متداولة في زمن أبيه ووقعها على السامع.

كان الحرامية رجالاً شجعاناً، فرساناً، ذوي قيم ِوأخلاق، لا يسرقون إلا ما يجب أن يُسرَق. لا يسرقون الفقراء. هم لا يسرقون أصلاً، بل يسطون. هكذا يحلو لأبيه ترديد المفردة (سطيت وسطينا). وأحياناً يستبدلها بمفردةٍ أخرى (حفت) و(حفنا) و(أحوف). مفردات مجردة من جذرها الدلالي القديم ومتقمصة دلالات محلية ضيقة. كما يلحقون مفردات الذلّ والضعف والجبن والهوان بضحاياهم الذين كانوا في الغالب من مالكي الأرض والحيوان والنبات ورقاب الناس.

قضى أبوه في فترة شبابه ردحاً من سنينه مع الحراميّة، واحداً منهم، يفهم ويتعامل بلغتهم. تلك اللغة العجيبة التي لا يفهمها سوى الحراميّة. حين يتحدث اثنان منهم في مكانٍ عام يبدوان كأنهما يتحدثان لغةً أجنبية. لكنهما في الواقع كانا يستخدمان ذات اللغة التي يستخدمها السكان إنما بتغيير وإضافة حرفٍ أو اثنين مرةً في أوّل الكلمة ومرّة في آخرها. شيءٌ يشبه شيفرةً متفقاً عليها في وسط الحرامية... كما عرف أن هناك لغة خاصة بـ(الموامنة) أي رجال الدين، هي الأخرى تبدو أجنبية على أسماع السكان، لكنها تتبع ذات القاعدة، قاعدة تغيير حرفين واستبدالهما بحرفين متفق عليهما.

عدا هذين المشروعين، كان مكتظّاً بمشاريع أخرى تأخذ به لرؤية مدن وشعوب وقبائل وغابات وجبال كثيراً ما قرأ عنها.. وأخيراً أو بدءاً، كان ثمّة مشروع ُعده مشروع َالمشاريع، مشروعَ الارتواء من النساء، الارتواء من هذا الطلسم الذي إما أن يكون مهاناً، مسحوقاً، ذليلاً، متاحاً في متناول من يدفع، أو نائياً متسربلاً بأوهام ورؤىً وكوابيسَ ينأى كلما حاول الاقتراب منه. تتلاعب في مخيلته خططٌ ونوايا على خلفية مشاهداتٍ مبتورةٍ لأفلامٍ ومجلات تعرض عريَّ جسد المرأة.

رتّب أولوياته ووضع المشروع الأخير على رأس القائمة. به سيبدأ،

سينظف رأسه من خزعبلاتٍ علقت به وتشابكت خيوطها، بين نساء أوروبا المتحزرات الشبقات كما زرعتها في مخيلته قصصُ سمعها من هذا وذاك ممن سافروا وعادوا أو من رواياتٍ تفترش في العادة واجهة المكتبات بعناوينها المثيرة والصادمة، ونساء مدينته المتلفّعات بالسواد من أخمص القدم حتى قمة الرأس، مختبئاتٍ تحت يافطةٍ طويلة عريضة مصونة تقول هنا حريم فلان وهناك حريم الفلان الآخر. نساءٌ أقصى ما يفعلنه لمالكي الحريم فتحَ الأفخاذ في ظلام الليالي، للخلاصِ من ذلك الواجب الذي لا مردّ له. يريد أن يغسل جسده وروحه من آثار احتصاراتٍ وكبتٍ وحرمان، علقت في زوايا الروح كدمٍ وأورامٍ تخزّن قيحاً وتنتج تشوشاً في الرؤية والرؤى. وفي ذهنه ما إن ينظف الرأس والروح من تلك القاذورات والأوساخ التي لحقت بهما، حتى يحصل على الصفاء والهدوء اللازمين لتنفيذ بقية مشاريعه.

ها هو الآن وحيداً يلوب بين دروب السفينة، بعد أن قذفت به اليابسة بعيداً عنها إلى البحر، يردد مع نفسه مفردة (معلّق) التي وجدها تشبه كلمة سرٍّ من نوعٍ ما، قذفتها بوجهه ثلاثةُ عوالمٍ متباعدة فيما بينها. كلمةٌ كان يداورها وتداوره حتى أخذته بعيداً، بعيداً إلى ألعاب الطفولة، ومن تلك المرابع البعيدة أطلَّ عليه وجهٌ هو وجهه، كان يبحث في حيرته عن عظمٍ ضاع، قُذف به في حلكة الليل، في غفلةٍ من أطفالٍ سادرينَ وجوههم على الحائط وأذرعُهم ملتفةٌ على رؤوسهم لئلا تنتهي متعة اللعبة حين يرون مسرى العظم. وما أن يعلن الطفل القاذف للعظم في حلكة الليل، حتى تبتدئ اللعبة، لعبة البحث عن ذلك العظم الضائع، عظمٍ كان للتو في يد أحدهم يلوح به مزهوّاً، وهو الآن في تلافيف الظلام، في جهة من الجهات الثلاثة.. في مكان ما.. لا بد للعظم أن يكون هنا.. أو هناك.. محمود كعادته يدخل كلياً في اللعبة، وخالد لم يتغير، كذلك على عادته؛ لا يبحث حيث يبحث الآخرون، تجتذبه على الدوام رائحةٌ أخرى في مساحةٍ منسية مهملة، هناك في تلك المساحة المركونة بعيداً خارج اهتمامات الأطفال، كان نادراً ما يعثر على العظم المفقود، حتى يبدو لأترابه كأنه يبحث عن عظمٍ آخر يربك به اللعبة.. لماذا هو يبحث في المكان الخطأ؟، بينما صديقه محمود منهمكٌ في حساباته الواضحة، أنّ قوة ساعد من قذف العظم لا توصله إلى أبعد من هذا الحد.. يبحث محمود في المساحة الفاصلة بين حائطهم وذلك الحد، وخالد ما زال يبحث في ركنه المنسيّ.. حتى يصله صوت محمود ساخراً منه:

- خالد!، أنت ليش ما تروح تدور بقطاع العتّاب!!.

وكان يقصد أن يبحث خالد في الحارة الأخرى التي تسمّت باسم غالبية ساكنيها وهم من عشيرة (العتّاب). يرد عليه خالد وكأنه يدمدم مع نفسه:

- ما لك علاقة راح ألـگـاه..

لكنه لم يعثر على أيّ عظمٍ طيلة حياة اللعبة التي كانت تستغرقهم. في الغالب محمود هو الواجدُ لذلك العظم، ولأنه مرصودٌ من الفريق الآخر، كان يسلّم العظمَ خلسةً إلى خالد غير المشبوه. يركض به هذا ليوصله إلى عند الحائط. هكذا كانوا يسجّلون النقاط تلو النقاط على الفريق الآخر. وهو يستعيد وجه محمود وجد نفسه مستغرقاً بضحكٍ عالٍ، قهقهة متدرجة تخرج بتدرجٍ بطيء كأنها تقطع تلك المسافة الفاصلة بين حاضره وتلك العوالم البعيدة. كان جالساً في مؤخرة السفينة على تلك الكتلة الحديدية التي يلفون عليها الحبال. شعر لأول مرة أنه وجد السر، سرّ تلك المفردة التي أطلقتها بوجهه ثلاثةُ عوالم متباعدة.. أراد حرف النبوءة، الرؤيا، الرؤية (أنا لست معلّقاً، أنا فقط أبحث في المكان الخطأ)..

- يا لهول الاكتشاف يا (ابن زوال)، يا لروعة البديهة، وعظمة الذكاء الذي تتمتع به.. وما الفرق يا مسكين بين هذا وذاك؟.
- ها أنت مرةً أخرى تريد قطع السرد. اتركني يا أخي وشأني.
- لك ما تريد.

كان البحر قد هدأ، بعد أن ابتلع قرصَ الشمس الأحمر الكبير في جوفه. كأنه كان هائجاً لجوعه، وهو قد شبع الآن، يتململ كما لو أن النعاس دهمه فجأة، بخدرٍ يلملم أطراف الليل، سيتدثر به حتى الصباح.

بعد يومٍ عاصفٍ منهِك، تراجعت الأمواج، وعادت السفينة إلى حالتها الوديعة، تنساب دون اهتزازات مخترقةً الستارة السوداء إلى مدى غامض. الصمت

وشاحُ يلف الكون، لا يخدشه سوى ضجيج المحركات المكبوت وتداخل أصوات البحارة في فسحة المطعم الضيقة في مقدّمة السفينة. لقد أنهكه التجوال بين أروقة السفينة وسلالمها المتشابكة، قبل أن يقرّر التوجه إلى مؤخرة السفينة. إلى حيث كان يدور عمل الظهيرة. أرضيةُ السفينة مغسولة، نظيفة، تفوح منها رطوبة منعشة. كلّ شيءٍ قد أعيد إلى موضعه قبل العمل الصباحي. الحبال قد لفّت على شكل رقم 8، والأدوات أعيدت إلى مشاجبها، والعمال ذهبوا إلى فسحة المطعم، يأكلون هناك ويشربون البيرة الباردة في جو من الاسترخاء الضروري، بعد الشد والتوتّر الذي أحرق الأعصاب وبلبل القلوب في خوفٍ مستحكم، ألمّ بالجميع جرّاء ثورة البحر المفاجئة وهم يبتعدون عن آخر جزيرةٍ يونانية. هرب من كوّته التي غدت بؤرةً للدوار، للقي، للتشتت. يشعر الآن بالندم على ثورته وشجاره مع الثخين ويفكر هل بمقدوره أن يتآلف مع البحر. في الحقيقة كان يتجول هائماً على وجهه بغية التآلف مع روحه. صار يفتقدها من حينٍ إلى آخر، مع ارتفاع وانخفاض الموج، وهو يتمنى لو يجدها، لو يتعرف عليها مجدّداً وسط هذه العزلة في مؤخرة السفينة. لقد تحمّل دوار البحر وتقيأ أحشاءه، ترى ماذا عساه فاعلاً مع الروح المنقبضة، هي تلوب على ظهر السفينة لا تطيق رؤية البحر.. هل يتقيأ روحه؟.

كان يظنّ قبلاً أنّ لا شيء أوجعَ للإنسان وأكثر تبشيعاً لإنسانيته من عزلة ربايا الجيش. يرى الآن؛ أنّ البحر والربيئة صنوان يتبادلان تهديم أرواح الجنود والبحارة، عناصر التهديم هي ذاتها، العزلة، الإحساس الكامن بالخطر، العلاقات المفروضة.. والانتظار. هنا وهناك ثمّة عدوٌّ مجهول يتربص بك، ورغم كونه مجهولاً غامض الملامح، إلا أنك تعايشه، تتشرّبه كلّ تفاصيل حياتك اليومية. ما عليك في النهاية سوى المواجهة، مواجهةِ مصيرك الذي لا تدري كيف سيتشكل من تلك العجينة المخلوطة بالخوف، القلق، الشك، الانتظار. الانتظار هو

سيدُ اللحظات الناضح بها زمنك الممجوج. وبما أن هشاشة طبع الإنسان لا تجعله ينتظر الفواجع والكوارث، لذا تراه يرسم لانتظاره شكل الفرح.. الفرح في الإجازة لدى الجنود، والوصول إلى الميناء المنتظر لدى البخار.. لكلّ جنديٍ مشروعه المفضّل في الإجازة، المشروع الذي يجعله طيلة وجوده في الربيئة ينسج خيوطه، كذلك للبخّار ميناؤه المفضل، الميناء الذي يحوّل كل موانئ البحر إلى محطات انتظار متشابهة للوصول إليه.

ما زال لم ينسج له علاقة مع البحر. لذا هو لا يحلم بميناءه المُنتظر، كل الموانئ في رأسه وأمام نفسه المنقبضة متشابهة. كانت علاقته بالبحر علاقة المشاهدة، لا الخوض. لم ير بحراً في حياته، رآه للمرّة الأولى في تينك المدينتين (أثينا) و(تسالونيك). قبلهما، لم ير بحراً إلا في الأفلام. ورغم كل الأفلام التي شاهدها عنه، وكل الروايات التي قرأها، لم يحببه. أحب أشياءً كثيرة أثارتها في نفسه الروايات والأفلام.. أحبّ (باريس) وهو لم يرها. ظل زمناً يتجول ويرتاد مقاهي الحي اللاتيني والشوارع اللّاصفة بالضوء والجمال وشهوة النساء المتحرّرات. ارتاد المقهى الذي اعتاد ارتياده الفنانون والأدباء والهيبيون كما صوّره (سهيل إدريس). مثلما عشق (سانت بطرسبورغ) رغم كل البؤس الذي صوره (دستويفسكي) لتلك المدينة الجاثمة على أرواح الناس كما تروس آلةٌ جبارة.. وساح في سهوب روسيا وغاباتها، وتعرف على فلاحيها وأسرها المميزة كما أراد (تولستوي).. وهو يعجب الآن من ذلك العناد، ذلك الإقصاء الذي فعله لبحر (حنا مينة)، و(هيمنجواي). كان يتشوق لرؤية (اللاذقية) و(طرطوس) و(بانياس) وكل مدن وقرى الساحل السوري، حتى أنه على قناعة أنّ باستطاعته الوصول إلى تلك الحانة الكائنة في زاوية منسية من المدينة البحريّة (حانة ماريّا) دون دليل، والوصول إلى تلك الصخرة التي انبثقت من ظلها (حكاية بحّار).. لكن رغم ذلك لم يعشق بحرها، ظل البحر كتلةً زائدة في كلّ روايات (حنا مينة) هذا المهووس باللاذقية

وبحرها.. ولا يذكر من (هيمنجواي) وبحره سوى تلك العبارة اليتيمة (ممكن للإنسان أن يُدَّمر، لكنه لا ينهزم) يداولها مع نفسه مثل حكمة، نبوءة، أو وصف سحري للإنسان. في قرارة نفسه كان يحاول لصقها بسلوكه، لتمييز سلوكه عن سلوك الآخرين الذين وجدهم و يا للمصيبة أنّ أول ما يفكرون به في أول مواجهةٍ هو الهزيمة!، قل هم مهزومون قبل أيّ مواجهة. كان يردد تلك الحكمة، التميمة، مع نفسه ويحاول أن يكوّنها، رغم أنه نسي الرحم الذي خرجت منه تلك التميمة، نسى البحر. وها هو كما يرى نفسه الآن أبعد من أن يكوّنها، مهزوماً أمام البحر من أول مواجهة، لا يختلف عن أشباهه.. عارياً أمام نفسه يحاول مراوغة نفسه بيقينٍ جديد أو هروبٍ جديد؛ أنه لا يحب البحر، يكرهه، يخافه كما الموت ولسبب يجهله.. كأنه يحاول القول؛ أنا لست مهزوماً.. لكني أكره البحر...

- هذه قديمةٌ يا صاحبي.. الهزيمة هي هزيمة، لا تحاول تلطيفها بمسمى آخر أرجوك.
- أرجوك أنت. لا تتدخل.

* * *

بعد وصوله إلى أثينا، حاول للمرّة الأولى أن يصحح مسار علاقته بالبحر. دأب على الذهاب يومياً إلى ميناء (بيريه)، الميناء المكتظ على الدوام بكل أنواع السفن والبواخر والزوارق. المكان الذي تجد فيه الكرةَ الأرضيةَ مكوّرةً بشعوبها وقبائلها، بألوانها، بلغاتها، بعاداتها. المكان الذي تكون فيه اللغة الإنكليزية هي سيدة التنوع. وجدها فرصة أخرى لتطوير إنكليزيته الركيكة، إنكليزية (زكي) و(ليلى) الذاهبان إلى المدرسة، هنا الإنكليزية تستخدم لكل الأغراض، وليس فقط للذهاب إلى مدرسة مزعومة.. إنكليزية البيزنس، السمسرة، العهر، العلاقات الإنسانية التي تبدأ بابتسامة وتنتهي بقصص غرام وتبادل رسائل وشجون. كلّ يومٍ يقضي الساعات متمشياً على رصيف الميناء، أو جالساً يحتسي البيرة في إحدى مقاهيه

الكثيرة. محاولةً لتدريب العين على رؤية المدى الأزرق الشاسع، الناس الساعين للتخفُّف من آخر قطعة قماش تستر عوراتهم، البواخر الكبيرة، الصغيرة، الزوارق السياحيّة.. وأيضا تلك الرياضة العجيبة، رياضة التزلّج على الماء. يحاول الإحساس بنشوة المتزلّج، وهو يشق عباب الماء وراء المركب البخاري الصغير، وذلك الزهو المتلبّس لملامحه وهو يعود ظافراً من مغامرته. وهي محاولة كذلك للصيد النسائي، لمستلزمات مشروع المشاريع. هنا النساء وفيرات، لكنهنّ مختلطاتٌ كذلك، فيهنّ العاهرات بين محترفةٍ ومبتدئة، وفيهنّ السائحات الهابطات من ثلوج الشمال على هذه السواحل بحثاً عن مغامرة، وفيهنّ نساء المدينة اللواتي يقضين نهاراً سعيداً بصحبة أسرهنّ، فيهنّ الصبايا المستغرقات بمرح العشق الأول مع فتى الأحلام، وفيهن النساء الوحيدات أو المهجورات.. لأوّل مرة يحصل لديه هذا التفريق بين امرأة وأخرى، ليس كلّ امرأةٍ تضاجعها وتضاجعك هي عاهرة، وليس بالضرورةِ أن تكون أنت الباحث عن العلاقة. تزودت ذخيرته الفقيرة بعددٍ من التجارب المقطوعة، وبدأ جسده يسترخي قليلاً.

حصل هذا قبل أن يصطدم بتلك المخلوقة التي سبق للغجرية أن رأتها مرسومةً على كفّه. سيقتنع لاحقاً أنّ ما سمعه من تلك الغجريّة شبه المتسوّلة في ذلك المقهى البغداديّ الكئيب لم يكن سوى مصيره. إذ ما إن تعرّف عليها حتى ترك النساء وظل معلّقاً يلاحق طيفها، حضورها، غيابها. وما تركه لأثينا ومجيئه إلى تسالونيك إلا بحثاً عنها. لم يعد مسيطراً على أفعاله ونواياه وأهدافه. تفرّغ رأسه من الأهداف إلا هدفٌ وحيد؛ ملاحقة أمينة العراقية.

ظلّت علاقته بالبحر تنتهي مع تلك الحافات الإسمنتية، أو الشواطئ الرملية المليئة بأجساد العراة نهاراً والصمت ليلاً. يطلّ عليه إمّا متنضتاً إلى أسرار صمته أو متفرّجاً على كائنات الشواطئ الجميلة، متفرّساً

في الثنايا والتقاسيم وتلك الزوايا اللعينة، التي تعشعشُ في ذاكرته على شكل أخيلة، كان يشكّلها من خلف عباءاتٍ و ملاءاتٍ وأردية، تبدو كأنها لا تطيق انفجاراتِ وشهوات، تنضح بها الأجساد الأنثوية وتفحّها في وجوه أمثاله أخيلةً عامرة لليالي و نهارات الاستمناء. وجد نفسه وهو يتفرّس في أجساد النساء شبه العارية على الشاطئ يهرب من المشاهدة إلى الأخيلة. هروبٌ يشبه هروبه اللاحق؛ حين هرب من كل نساء (أثينا) العالميات إلى مخلوقةٍ بعينها، لعوبٍ، غامضة، غائبةٍ على الدوام ومشغولةٍ بمشاريعٍ وأهداف وعوالم لم يصلها يوماً. شيءٌ يشبه اللعنة؛ أن يترك أجساد النساء على الشاطئ وهي كما في المجلات والأفلام التي كانوا هناك يهربونها لبعضهم مصحوبةً بكثير من الإثارة والتوتر.. نساءٌ جميلات، مثيرات بشعورهنّ المنسابة كالحرير حتى تخوم الأرداف بوجوههن التي شبّهها شعراءه هناك بـ(خبز تنّور حار) بالتقاطيع الجيلاتينية المدورة.. كلّ شيءٍ فيهنّ مدوّر.. رغم هذا هو هاربٌ منهنّ كمن لا يريد تصديق الرؤية.. لا يمكن أن يكون هذا هو جسد المرأة.. المرأة الوهج، السر، ليالي الاستمناء، الشبق، الفحيح الذي تطلقه العباءات، الشياطين التي تعبث في رؤوسهم وتطلق ألسنتهم شعراً في جسدها.. قصائد تُقال في تكوير النهدين، وأخرى عن الفم اللوزة الفستقة، العنبر، أما القوام فهو إطار المرأة، إطار الأخيلة الهائمة في فضاءٍ من اللذة وهي تردّد ما توحي به الشياطين.. تلك هي المرأة.. ذينك هنّ النساء.. أما هذا الجسد المتاح كله للعين المجردة، المستلقي على رمل الشاطئ وجده عاجزاً عن إطلاق ولا حتى شيطانٍ واحد من شياطينه الكثيرة. يا لغرابة وشذوذ الرؤى والأخيلة حين تتكفّل عباءةٌ واحدة تخفي في ثناياها جسدَ أنثى فائرا، بإثارة كلّ ذاك التوتر والانتصاب الفاضح بين سيقان الصبية والشبان.

ظلّت روحه عصيّة على الترويض للنساء وللبحر حتى جاءه جرجيس السمسار المصري الذي أوصله إلى هذه السفينة، يعرض عليه فكرته المراوغة:

- يا سيدي أنت مولودٌ في ليلة القدر.
- والله يا جرجيس كل الذي أعرفه عن أمي أنها ولدتني يوم الجمعة.. أما أيّ يوم جمعةٍ ذاك، في أي أسبوع، في أي شهر، في أي سنة.. هذا أمر لم يكن يعنيها. لكن ما الأمر؟.
- يا سيدي، لأنك حتشتغل على باخرة مع ناس محترمين.. دول الناس مش أي واحد أبعته ليهم.
- يا سيدي كلّ البواخر متشابهة.. كلها تعوم وتخوض في البحر.
- لا، إ الباخرة دي. أنت عارف إيه ميزتها؟، طبعاً مش عارف.. الباخرة دي شغّالة على البحر المتوسط وبس، آه.. والله.. بين الدول العربية وأوروبا.. يعني أنت تصيّف وتشتّي على كيفك. إيه والله، لا ومش بس كده، و بيدفعوا كويّس.. وأنا والله كنت مستنّيك.. إنت عارف الأفارقة بيدفعوا.. قلت لا، الحاجة دي مخصوصة علشان خالد أخوية وحبيبي.. وكمان مش حآخذ منك حاجة.
- الله يخليك. بس أنا حقيقي ما عندي خبرة بالبحر. جئتك لسبب آخر.
- ما هو أنت لو تجي معاي وتتعرف على الكابتن.. وتشوف السفينة، وبالمناسبة فيها عرب كمان، فيها مصري ومغربي وتونسي وأردني.. و إنت عراقي..
- يعني راح نسوّي جامعة عربية في السفينة.

ضحك جرجيس أو هو لم يضحك.. إنما بدا لخالد زوال يحمل في داخله هماً يريد تفريغه على رأسه والآن.

- يا سيدي.. أنا بس عاوز أعرف إيه اللي بينك وبين حكيم؟، مش عارف.. الحكاية دي مدوّخاني.. الرجل كان بيحبك.. أنت عملتلو إيه..؟.
- ولا حاجة. بس إيه علاقة هذا بذاك؟.

- لا. في علاقة.. آه.. في علاقة..

ظلّ ساكتاً، كأنه يداور أمراً في رأسه، أمراً يشعر بالحرج من قوله، إنما عليه قوله. حتى ألحف خالد عليه:

- جرجيس! احنا أصدقاء أليس كذلك؟.
- إيه والله..
- طيب، إنت الآن شوّشتني. هوّ في إيه؟.
- تقدر تقول صرت أفهم على حكيم.

وسكت ثانية.

- هو حكيم كان عندك؟.
- أيوه.
- الآن فهمت.
- فهمت إيه؟.
- قل له أنا باقٍ هنا رغماً عن أنفه.
- الله يرضى عليك بلاش عناد وتحدّي... فهمت من الرجل، إنك مش لازم تبقى في (تسالونيك)، مش بس كده، في اليونان كلّها مش لازم تبقى، شوف لك حتة تانية.. وأنا من ناحيتي شفتلك الحتة دي.. من جهة حتكسب من وراها وتدعيلي، وبالمرة إنت خلصت من حكيم.
- قل له على لساني طز فيك.
- خالد!، الرجل لما بيغضب بيخوّف.. آه والله.. وهو غضبان عليك.. عملتلو إنت إيه أنا مش عارف. حكيم هنا حاجة كبيرة أوي.. أنت مش قدّه. اسمع نصيحتي واركب السفينة. اعتبرني أخوك الكبير.. بكره حتتعلّم شغل البحر وتكسب وتدعيلي..
- جرجيس الله يخليك!، لا أريد أدعيلك ولا أدعي عليك. إنت بس وصّل ما سمعته منّي لحكيم.

كان الوقت ظهراً حين غادر خالد زوال مكتب

جرجيس. هو لم يغادر جرجيس، إنما هرب منه.. أو هرب من نفسه. وجد غضبه، حنقه، جنونه سينزل على رأس هذا الرجل.. وهو لا ذنب له في هذه المواجهة التي بدأها مع حكيم. الرجل في كل الأحوال سمسار، هذا عمله، يجد العمل لمن يدفع له، وخالد لم ينس بعد ما عمله هذا الرجل لأجله.. هو من أوجد له العمل والمأوى، لولاه لظل يذرع الشوارع، أوجد له سفينة مقطورة راسية في الميناء.. نهاراً يعمل فيها مع العاملين على تصليحها.. وليلاً سلمه مفتاح إحدى كابيناتها للنوم فيها. كأنّه في شقة مفروشة. غرفة نوم، منافع، مطبخ. ماذا يريد أكثر من هذا.. حتى أنه لم يطلب منه شيئاً لقاء تلك الخدمة.

كذلك هو يعلم أن سطوة حكيم هذا المتجبّر في مملكته السرية والعلنية، المتحكم بنصف شرطة المدينة، وصاحب الأسهم والأملاك وجنسية البلد، سطوة لا مرد لها. جرجيس لا ذنب له. هو خالد زوال من بدأ المواجهة، وهو من جديد أمام ذات المفترق المشؤوم؛ إمّا المواجهة الخاسرة أو الهروب. حكيم قادر على ترحيله من البلد. لا يملك إقامة شرعية فيه، كذلك لا يمتلك اللغة التي يدافع بها عن نفسه. هذا عدا أن ما فعله خالد مع حكيم وحده كافٍ إن لم يكن للترحيل، فللسجن. لقد سرق شيئاً من بيته، ما هذا الشيء.. هل هو سرقة أم لا.. هذه الأسئلة وأجوبتها عليه أن يقنع بها الشرطي الذي سيستجوبه. خالد يدّعي لنفسه أن ما فعله هو استرجاع وليس سرقة. مع أنه قد نفى حتى أمر الاسترجاع أمام حكيم:

- يعنى هسّه المكتبة كلها ما دخلت عينك.. إلا هذا الدفتر؟.
- هذا يا دفتر؟.
- خالد، ماكو غيرك سمحت له بالدخول إلى مكتبتي.. ليش تخذلني؟.
- عجيب أمرك، بعدك تعتقد آني سرقت شيء من مكتبتك؟.

- زين، گلي إشراح تسوي بيه؟.
- ...

ظلّ خالد صامتاً. وهو يرى أن السر قد أنكشف وبان. ظل يماطل أياماً فقط ليستطيع استنساخه. وعاد حكيم يتحدث بهدوء وتأكيد على مخارج الكلمات:

- خالد احتفظت بهذا الدفتر أكثر من عشرين سنة، هو شيء خاص، لا يمكن أن أفرّط به. تكدر تقرأه حتى تتأكد أن لا شيء فيه يخيفني، أو يمكن أن يخصّك وبعدين ترجعه. اتفقنا؟.
- على ماذا؟.
- راح أعوفك تفكر.. وآني متأكد راح ترجعه.

يقول لا شيء فيه يخصّني. آه لو يعرف كم تخصّني هذه اللقية التي لقيتها في مكتبته، أنها ستكمل مشروعي الثاني.. مشروع كتابة مذكّرات أبي. مع أنّ هذا الدفتر المخطوطة لخبطني، شوشني أكثر مما أنا مشوّش أصلاً.. ما هي علاقة حكيم بأبي، حين قلت له بعد أيام من سرقتي المخطوطة (على فكرة هو لم يكتشف أمر مخطوطته إلا متأخراً) حين قلت له: أنا خالد زوال محمود. أجابني بعصبية:

- كافي وأنت تعيد علي اسمك الثلاثي كأنك في دائرة نفوس.

وجدت أنّ اسم أبي لم يعن له شيئاً، لم يثر فيه شجن ذكرى ما، نأمة حنين، جرس بعيد يلوح له من تلك الأيام.. وإذ حاولت معرفة المزيد عنه، من أيّ مدينةٍ في العراق هو، أيّ محلة، أيّ سنة ترك فيها البلد.. وجدته قد انزعج من أسئلتي.. ثم أوقفني عند حدّي كما يقال، مع أني كنت حذراً جداً في طرح الأسئلة، كنت أتعمّد حشوها ضمن طيّاتِ حديثٍ يكون بيننا:

- خالد ..!، سألتك آني فد يوم: إنت منين، من أي مدينة، شنو قصتك، منو رماك عليّ؟.

- لا.
- زين لعد انـچبّ واسكت وكافي أسئلة.

كانت هذه طريقته التي صدمني بها في البدء، إنما تعودت عليها لاحقاً، يتبل حديثه على الطريقة اليونانية مع الذين يودّهم بفشار وشتائم، وهو لا يقصد بها الإساءة إنما الود. ثم أردف:

- لك أنت ما تخجل.. صار لك مدة نازل على رأسي تحقيق وأسئلة... شوف!، آني ما سألتك... بس أعرف أنت شيوعي.
- أنت هالمرة غلطان. لأني فعلاً مو شيوعي.
- أنـچبّ وأسكت. أنت شيوعي.

بهذا انضمّ حكيم إلى دائرة غير المصدقين بكوني شيوعياً، انظم إلى مسؤول المنظمة الحزبية في منطقة سكني، إلى أصدقائي من الجهات المتعارضة، إلى نقيب الاستخبارات في وحدتي العسكرية.. لدى أولئك جميعاً قناعة غريبة بكوني شيوعياً، مع أنني في عرف الشيوعيين محسوب على الصف المعادي لهم. لكنّ حكيم لا يستطيع إيذائي، أنا متأكدٌ من هذا، فيه شيءٌ لا أستطيع تحديده بالضبط، لأنه هلامي، متحوّل، متقلب.. ذات الشيء الذي جعل الجميع هنا لا يخافونه فقط وإنما يحبونه كذلك، يحبونه بصدق.. لِمَ لا؟، هو يساعد الجميع، بيوته مفتوحة (للمـگـاطيع) وهذا مصطلح مفهوم في هذه المدن، يشار به إلى الشباب الذين تتقطع بهم السُبل، يفقدون المال، العمل، والمأوى. يعطيهم المال، يوفر لهم العمل، يسكنهم في بيوته.. هكذا دون أي مقابل، لا ينتظر منهم شيئاً.. في البدء شككت أنا نفسي في هذا الأمر، قلت هو يستدرجهم لتجنيدهم في أعماله القذرة.. لكني وجدت فيما بعد، أنه لم يكن بحاجة لهم، لديه كثيرون من الذين يتوسلون للدخول في أعماله تلك.. هم يبحثون عنه، وليس هو من يبحث عنهم.. كان ينتظر أحد (المـگـاطيع) حتى يجد لنفسه عملاً، أو هو يجد له ذلك

العمل، عندها يقول له:

- من باچر تأخذ جنطتك وتولي، ولا تخليني أشوف خلقتك كُدامي.

هكذا كان يودع مگاطيعه. كأنه يطردهم. هم يتقبلون تلك الدعابة منه ممتنّين، ولا ينسونه. الغالبية من هؤلاء لا يعرفون شيئاً عن عمله الحقيقي. ما يعرفونه هو ما يظهره للشرطة والمؤسسات الأخرى، رجل أعمال، لديه مصانع ومزارع ويتاجر في العقارات، وهو فوق هذا وذاك مواطن يوناني. أما العمل الحقيقيّ الذي كان يمول مشاريعه ويستدرّ الأرباح الحقيقية هو ذلك العمل الذي لا تعرفه غير قلة من هؤلاء الناس. وكنت لسبب من الأسباب واحداً من هذه القلة.

***

لكن، لماذا يريدني أن أخرج من البلد كله. هل هو ممتعض مني إلى هذا الحد بسبب المخطوطة. رغم أنه لم يلح كثيراً على استعادتها، بل تركني أفكر. وأنا حسب الاتفاق ما زلت أفكر، على أية حال، إذا كانت المخطوطة تهمه كثيراً فسوف لن يتركني أهرب بها. أوَ يكون السبب ما دار بيننا تلك الليلة.. الليلة التي على أثرها تركت أنا البيت الذي كنت أسكنه مع مازن، وكان هو يدفع إيجاره، بل كل مستلزمات معيشتنا ومصروفنا اليومي؟، كنت ومازن محسوبين عليه، مازن كان داخلاً في اللعب، وأنا ما زلت على حافّته. في تلك الليلة حصل التهشّم الذي طال انتظاري له، نسفت العلاقة معه، نعم. نسفتها مع نفسي أولاً، نظفت رأسي من أوهام عدم القدرة على خوض الحياة في (تسالونيك) بمعزلٍ عن عونه وتدخله. وكانت المخطوطة هي الفتيل الذي فجر في مزاغل للنور. كانت قراءتي لها لهاثاً يتسقّط أخبار امرأة حالمة اسمها فضيلة.. وأحداثاً أخرى كان أبي لا يملّ من سردها المرة تلو الأخرى في مضائف ودواوين العشيرة، بطريقته الأخّاذة التي تجبر من يسمع أن يدخل في الحدث حد الذوبان في تفاصيله. ومن جهة أخرى كانت المخطوطة

غوراً في أعماقٍ مجهولة من النفس الإنسانية.. هذه اللعوب المكتظّة بأحطّ ما ورثه الإنسان من حيوانيته إلى جانب أنبل الأحلام التي تضعه في مصاف الأنبياء. لقد فجّرت فيّ خوفاً مني على نفسي. من ذوباني فيها ومن خوفي عليها، كنت عازماً على الهرب بها. الأمر الذي جعلني أبحث عن أيّ سببٍ لخلق شجار معه، فقط لدفعه إلى طردي من البيت. وجاءت الشرارة التي قدمها لي بنفسه هذه المرة. طلب مني أن أحضر له في الصباح التالي صورتين شخصيتين قديمتين..

- ليش الصور..؟.
- حتى أسوّيلك جواز سفر مثل البشر.
- بس آني عندي جواز سفري العراقي.

أجابني أولاً بابتسامةٍ ساخرة، ثم ألحقها:

- جوازك هذا ما يوصلك للتواليت.. يجوز ينفعك للمسح.
- مع هذا، لا أجد حاجةً لغيره.
- زين وشغلنا؟.
- هذا يا شغل؟.

كان يقود سيّارته الـ(بي أم دبل يو) المكشوفة الجديدة، وكنت بجانبه بعد أن أنجزت له مهمّة صغيرة في أحد بيوته الريفيّة، ذات البيت الذي عثرت فيه على المخطوطة في تلك المكتبة الرهيبة، جداران مؤثّثان بصفوفٍ من الكتب. استدار ناحيتي وكأنه قرر ترك قيادة السيارة:

- أخ الـ.... يعني تريد تقنعني أنت ما تعرف شيء عن شغلنا؟.
- يجوز أعرف أشياء بسيطة. لكن على العموم أنا لا أذكر أني أخبرتك على موافقتي.
- شنو..؟.

- أعتقد سمعتني.

عاد إلى وضعية السائق الجاد المحاذر المتنبه إلى الطريق. ظلّ ينظر في المرآة التي أمامه، ثم الجانبية.. ومن هناك وصلني صوته خفيضاً هذه المرة:

- ليش؟.

كنت حينها عازماً على الشجار:

- المخدّرات عمل لا أخلاقي. بعدين فيه خطورة.
- لا أخلاقي.. ها؟، وهاي المدّة اللي قضيتها ببيتي تأكل وتشرب وتـ... كان فيها شرفك وين؟.
- كنت ساكن مع مازن. ما كنت أعرف هو بيتك.

تبعتها لحظة صمت تمدّدت دهراً، ثم فجأة أوقف سيارته في منتصف الطريق الجبلي، فرمل السيارة حتى كادت تزحف بنا إلى الهاوية وطلب مني النزول:

- انزل.. انزل. لا تشوفني خلقتك بعد اليوم. إذا شفتك عند مازن، أسلمك بيدي للبوليس.

لم أرد عليه. فتحت الباب ونزلت. كان الوقت مساءً، و(تسالونيك) لم تزل بعيدة، حتى أنا لا أعرف في أي اتجاه هي. كنت قريباً من قمة الجبل، منحدراً مع انحدار الطريق الملتف على نفسه مثل أفعى هائلة، يختفي تارةً ويظهر تارة أخرى من بين الغابات الكثيفة التي تكسي تضاريس الجبل، ومن بعيدٍ هناك في الأسفل، في نقطةٍ بدت لي نائية، لمحت شبح باصٍ ترك نقطة توقفه. أسرعت الخطى والخوف يراودني أن يكون هو الباص الأخير هذا الذي شاهدته.

السؤال يبقى، لماذا أرادني أن أختفي من المدينة. طيلة الفترة التي قضيتها بعيداً عنه، لم يحاول إيذائي، وكان قادراً لو أراد. يكفي أن يرسل لي عدداً من (مـڤاطيعه)، ليشبعوني ضرباً ثم يختفون. الأمر سهلٌ في هذه المدينة. كذلك هو حين صادفني يوماً أتمشى قريباً من الشاطئ، وكان هو في سيارته، زمّر لي، ثم دعاني

للصعود. صعدت إلى جانبه. أنا كذلك غير خائف منه. بل مطمئنٌ إليه. أتعامل معه كما لو كان قريبي. لعلها المخطوطة أقنعتني أن في حكيم شيئاً من أبي. صعدت دون أن أنبس ببنت شفة. ظللت صامتاً. ثم فجأة ومن غير مقدمات:

- تعرف خالد آني كلما أسمع بجريمة جديدة في العراق ألعن الشيوعيين.

عندها ذهلت حقاً. وكان مبعث ذهولي ليس لأن ما قاله هو خارج سياق ما كنت أتوقعه منه، بل هو خارج سياق كل حديث جرى بيننا حتى تلك اللحظة. أحسست أن شيئاً في صدري بدأ يتململ، قلت:

- على حد علمي أن من يحكم العراق اليوم هم البعثيين.
- طبعاً البعثيين.

سكت. وكان يعالج استدارةً في الشارع، أراد العودة إلى الشارع الثاني الموازي. ثم واصل:

- لأن جماعتك (مرّة أخرى يحسبني على الشيوعيين) كانوا (طناطله). من كان رئيس الجمهوريّة (يقصد عبد الرحمن عارف) يتزحلق بعفطة، كانوا هم نازلين تنظير ببعضهم.. نخوض كفاح مسلح في الأهوار لو نمارس حرباً شعبيةً بالمدن؟. والنتيجة كانت حفنة من السرسريّة سرقوا البلد في يوم كان فيه الشيوعيون هم أسياد الشارع.
- لا أريد أن أجادلك، لأنك تبدو مقتنعاً أنّ الشيوعيين لو كانوا في الحكم لما جرى للبلد ما جرى له. وبصراحة كنت أظنّ أنّ آخر شيء يمكن أن تفكر فيه هو السياسة. واضح أنك داخل فيها للعمق.

قصدت جرّه للمزيد. أحاول أن أجلي عالمه القديم، أن أفك بعض التشابكات التي أحدثتها في ذهني تلك المخطوطة. هنا لغة حكيم تشبه لغة أبي (زوال محمود)،

ذات الأحكام الباترة، اليقينية الفجّة، الاستهانة بالخصوم حد الإلغاء، ذات الموضوع الذي غدا مملّاً لكثرة ما لاكته الألسن ومن طرفي المتراس السياسي، الشيوعيون والبعثيون. أنها لغة ذلك الزمن. بعد فترة صمت لعلها طالت، لأننا تجاوزنا اثنين من الإشارات الضوئية، سمعته يقول بنبرة هادئة كمن ينبس لنفسه:

- السياسة سلبت مني أجمل ما كان عندي.

أخيراً، هاي هي نبرة حكيم في المخطوطة، لنقل الشخصية الرئيسية فيها، نبرة الحزن، اليأس، الانكسار بعد ارتطام مفجع. شعرت أن الوقت قد أزف لجلي الحقيقة. سألته مباشرة:

- أرجوك جاوبني بصراحة؛ هل تعرفت على (زوال محمود)؟.

سكت ثانية. امتدّ صمته طويلا، حتى حسبت الصمت لغةً أخرى عليّ فك رموزها. بعد حين أوقف سيارته أسفل العمارة التي فيها مكتب جرجيس، قبالة المقهى الذي اعتدت الجلوس فيه. سألني دون أن ينظر إلى وجهي، عيونه شاخصة إلى الأمام كمن رأى شخصاً ما، خرجت كلماته مسالمة وودية:

- بعده أبوك شيوعي؟.

كانت المفاجأة كبيرة بالنسبة لي. شعرت أن طلسماً آخر من طلاسم تلك المخطوطة قد فُك. وما عليّ سوى تتبع مساراتها الأخرى بحثاً عن أبي فيها. أجبته وأنا أهم بفتح الباب للنزول:

- ترك الحزب من تلك الأيام.

تعمّدت استخدام (تلك الأيّام) لأنها كانت عنواناً لأحد فصول المخطوطة. أردف وما زالت عيونه شاخصةً في البعيد:

- أنا غداً مسافر. سأغيب أسبوع. بعد أسبوع أريد الدفتر.

كانت مهلةً كافية حقاً، لأني نسخت المخطوطة خلالها

على دفترين من الحجم المتوسط. صحيحٌ أني رغبت بامتلاكها هي نفسها، لكنها رغبةٌ ليس إلا، يبقى المنطق الذي أحاول السير على حده يقول لي: «ما تحتاجه منها قد أخذته». إنما سيبقى الحرج الذي سوف يتلبّسني أمامه، سأبدو صغيراً، حقيراً، أرتكب ذنباً وها هو يعود نادماً أمام أبيه، خصوصاً بعد أن ارتفعت منزلة حكيم في عيني من تاجر مخدرات، إلى صديق أبي، إلى مناضل من ذاك الزمن الذي كنت فيه طفلاً. موقفٌ لا أتمنى، أو غير قادر على مواجهته. لا أتمتع بالوقاحة اللازمة لمثل هذا الموقف. مع أنه قد سهّل علي الأمر كثيراً، على الأقل لم يؤاخذني على سرقتها من مكتبته، يريد استرجاعها فقط.

بعد عودته من السفر، جاء إلى المقهى الذي كنت جالساً فيه أمارس هوايتي مع ألعاب الالكترون. الدفتر موضوعٌ على لوحة الجهاز الالكترونية بداخل كيس بلاستيك. حيّا بعض الجالسين في المقهى وكانوا يعرفونه. تحادث مع أحدهم وهو ما زال واقفاً. ومن دون أن يكلمني وهو مستمرٌّ في محادثة ذلك الشخص مدّ يده إلى الكيس وأخذه. هكذا بساطة انتهى حرجي من الموقف. نظرت إليه وكان في نظرتي انكسارٌ وندم، وكثير من الخجل. استمر يحادث ذلك الشخص وكأني غير موجود أمامه، أو كأنه لم يستعد شيئاً كان ممكناً أن يضيع منه. وإذ وجدته قد أهملني تماماً، عدت إلى لعبتي المفضلة لعبة البليارد على شاشة الكمبيوتر. بعدها غادر دون أن يكلّمني.

أحسست حينها بالتخفّف من وِزر الشعور بالذنب. غدت المخطوطة ملكي.. هي مخطوطتي.. مخطوطة أبي (زوال محمود). تاريخهما هما الاثنان، أبي وحكيم. تاريخهما المأساوي. يتحدث صاحب المخطوطة عن تلك الأيام بلغة تقترب من الأدب بقدر ابتعادها عن الشعارات السياسية والايديولوجية. في كل الأحوال ليست هي لغة أبي المتبلة بخيال الفلاح الحرّ المترع بالأساطير

والخرافات. وجدت أخيراً كل ما كنت أبحث عنه من إجابات لأسئلة طالما أرقتني، وأنا استرجع ذلك الحيز الملتبس الضبابيّ من طفولتي المشردة بين الأهوار والسباخ، بين القرى والمدن، بين هذا وذاك من بيوت الأقارب. لم تعرف تلك الطفولة استقرارا ولا أماناً، على الدوام ثمة من يبحث عن أبي وعيونه تنطّ شرراً وينضح جسمه برائحة الخطر. وها هو حكيم يعيد لظم شتاتِ تلك الأيام بلغةٍ تناغي ذوقي القرائيّ.

- أين أنت يا رجل؟.

بدا الصوت لـخالد زوال على وضوحه كأنه آتٍ من هوةٍ سحيقة. صوتٌ انبثق فجأة من الصمت الذي كان يلفّه، خرج من البحر. كان صوت عبدو التونسي. مز وقتٌ بدا طويلاً، وهو يحاول انتشال نفسه من غور تلك الأيام والذكريات التي دهمته، وهو جالسٌ على ذلك المقعد الحديديّ في مؤخرة السفينة. المكان الذي غدا في أيامٍ لاحقة صومعته الأثيرة..

- أهلاً عبدو..
- بحثنا عنك في كلّ مكان. ماذا تفعل هنا؟.
- أحاول التخلص من دوار البحر. هنا الجوّ لطيف.
- تقيأت كثيراً؟.
- لم أبقِ شيئاً.
- لا تهتم، الأمر بسيط. كلنا بدأنا هكذا. تعال الآن لتأكل، لأن المطعم سيغلق بعد قليل.

فسحة المطعم الضيقة بدت مكتظة بالبحارة. كانوا قد أكلوا جميعاً، وبعضهم لم يزل يتلذذ بالبيرة التي قدّمت مع الأكل. غادر اليونانيون المطعم إلى كابينة الكابتن الواسعة، وهي مكان تجمعهم لقضاء الليالي والاستراحات خلال فترة العمل النهاري. لم يبق سوى البحارة العرب. وهؤلاء كانوا حين دخل خالد زوال منهمكين في مباراة من نوعٍ غريب. كان كلٌّ يدلو بخزينه من مفردات الفشار والفحش وعلى عدد اللغات المتداولة حول البحر المتوسط. لعلها لغة البحارة في النهاية. كان الطباخ الأردني رشيد أقدرهم على معرفة كلّ شتائم الشعوب، وكلّ تلك المفردات الداخلة في وصف أعضاء

المرأة والرجل الجنسية. لعلّه الأعرق في مهنة البحر.

هكذا هم البخارة مثلما الجنود في تلك الربايا والسواتر الحربية، ما إن يحصل الجندي على إجازته وهي قصيرةٌ في كلّ الأحوال، حتى يسرع لإشباع حرمانه من شيئين: المرأة والكحول. ولأن الإجازة قصيرة فلا مفرّ من أقصر الطرق، تلك التي لا تتسع لتراتبية وبطء العلاقات العشقية. يلجؤون إلى العاهرات والبارات. وهذه تتكاثر في أوقات الحروب. كذلك البحار، إذ يتوفر له الكحول في السفينة، تظلّ المرأة هاجسه وحلمه الدائم. وهذا ما تتكفل به الموانئ. دائماً هناك أقصر الطرق.

- إيه يا عراقي، شفت (تونس) من قبل؟.

سأل رشيد وهو يضع طبق الأخطبوط المقلي مع البطاطا والسلطة أمامه..

- شفتها مرّة في كتاب الجغرافيا. تونس الخضراء. ولو أني لا أصدق أن مدينة عربية ممكن أن تكون خضراء؟.

ردّ رشيد:

- اسأل عبدو. هي مدينته.

التفت خالد زوال إلى عبدو الذي كان منزوياً في الركن البعيد يشرب بيرته:

- مبروك أخ عبدو. ستلتقي بأهلك أخيراً.
- شكراً يا عراقي. أنا قلت للشباب: ستكونون مدعوّين عندي في البيت.
- إن شاء الله. كم أرغب أن أرى كيف ستستقبلك أمّك.
- المسكينة ستطير من الفرح. ثلاث سنين يا عراقي.. اشتقت لها.

فجأة، انبثقت في رأس خالد زوال فكرة جديدة، واضحة المعالم وقوية. أزاحت ما سبق من مشاريع

ونوايا «سأبقى في تونس. رغم كلّ شيء هي مدينة عربية، على الأقل سيفهمني الناس فيها كما سأفهمهم».

لم يحاول المزيد في ترتيش فكرته، ربّما خوفاً عليها من تقلبات كثيراً ما تمسح نوايا كانت تبدو راسخة في رأسه. خائف عليها منه. من يعرف قد تراوغه وتهرب. وخلال تلك اللحظات من اقتناصه لفكرته الجديدة، وخوفه عليها، كان الآخرون يتحدثون عنه. غدا محور أحاديث من في المطعم. تذكروا جميعاً خوفه من البحر، ارتباكه أمام اللجّة، شجاره مع (الثخين)، ثم شجاره وقبل انتهاء فترة العمل النهاري مع المغربي محمد. كانوا حريصين كذلك على عدم استفزازه. يمزجون تعليقاتهم ببهار الضحك العالي والتربيتة على الكتف. ومن حيث لا يعلمون وجدوا أنفسهم يوغلون بعيداً، إلى البدايات، إلى تلك اللحظات الفاصلة بين ورديةِ حلم ِمراود وقساوة واقعٍ فج.. إلى المرة الأولى التي وجد أحدهم نفسه وجهاً لوجه أمام البحر. لكنهم، كانوا بهذا يأتون بطفولتهم، حيث الشواطئ ملاعبهم الأثيرة، والبحر امتدادٌ غامض يداعب المخيلة الطفليّة، محسوس، مجاور، قادرين على أن يغسلوا سيقانهم الصغيرة في زرقته، وهم يلعبون كرة الشاطئ أو السباحة. كلهم عدا رشيد من مدن السواحل. معتادون على البحر، رغم كل حكايا الجدّات والأمهات عن جنيّاتٍ ومخلوقات مخيفة، يدفع بها البحر بانتظام. كانت تلك المخلوقات تتنفس مع أحلامهم وتتمدد مع أخيلتهم. على عكس أحلام خالد زوال وأخيلته، إذ كانت تتنفس في مكان آخر، بعيدٍ عن البحر، مكان لا يجد اللون الورديّ أو الأزرق طريقاً إليه، كان ترابيّاً. أحلامه ترابية بلون مدينته، التي تبدو كأنها من التراب انبثقت. تكور التراب على نفسه وأخرج بيوتاً وبشراً يتنفسون في تلك البيوت. مدينته تأسّست بقرار ثوريّ، وتلفعت بالثورة. لم يكن مشروعها يعدو عن حالةِ طوارئ، حالةٍ دفعت بمخلوقات كانت هاربة من أرياف الجنوب إلى أن تهيم على وجهها على هامش العاصمة. وتفادياً للقرّ والقيظ، شكّلت لها وعلى عجل أشكالاً تواشجت مع المخيلة

الفلاحية وأسموها بيوتاً. حتى جاء الزعيم (عبد الكريم)، هذا الذي تداخلت حكاياته ومثابرته اليومية في المخيلة الفلاحية، لتنسج منها أساطيراً وخرافات ظلت لزمن طويل يردّدها أناس تلك البيوت. قيل عنه أنه لا ينام، بعد أن ينهي واجباته وأشغاله الكثيرة في وزارة الدفاع، وهي مقرّ عمله وسكنه كذلك، يجوب في سيارته الصغيرة طرقُ ودروب العاصمة، ليطمئنّ على شعبه. وفي كلّ مرة تأخذه الدروب والشوارع إلى تخوم عاصمته، إلى حيث بيوت الصفيح والتراب، هناك يخرج من سيّارته يتسلق السدة الترابية ويظل لساعاتٍ يتملّى في الأشكال الهلامية لتلك البيوت، أشكالاً تكون قد أدغمت بالليل ومن الصعب تمييز حدودها وفواصلها الداخلية. في إحدى الليالي اهتدى إلى حل لحالة الطوارئ تلك. أشار بعصا الضابط التي يتأبّطها حيثما يرحل إلى امتداد ترابي يقع شرقاً من السدة الترابية. نادى على مرافقه:

- هناك. هل ترى معي. هناك سأبني مدينة لهؤلاء الناس.

وفي الصباح، ولا أحد يجزم إن كان قد نام، أو ما زال هو في يومه السابق، إنما الفاصلة الوحيدة المؤكدة لمرافقه ولكل المحيطين به هي عذة الحلاقة التي تكون قريبة منه دائماً، يأخذ عدته إلى الحمام ويبدأ بحلاقة ذقنه، هذه العادة التي ورثها من عسكريته الطويلة، هي الحدّ الفاصل بين يوم ويوم من أيام الزعيم. بعد أن فرغ من حلاقته، ومسح يديه ووجهه بعطر الكولونيا، نادى على مرافقه ولم تزل المنشفة على رقبته:

- أريد أن تجمع لي عدداً من أفضل المهندسين في البلد.
- تؤمر سيدي. لكن في أي ساعة تريدهم؟.
- ما أن يكتمل العدد الذي تراه مناسباً، أعلمني.

وفي الظهيرة اكتمل العدد الذي رآه المرافق مناسباً، وأعلم زعيمه. لم يطل اجتماعه بالمهندسين. أعلمهم عن

قراره بتأسيس مدينة في ذلك الامتداد الشرقي من العاصمة، توزع فيها قطع الأراضي مجاناً لسكنة الصرائف. مع معونةٍ لبناء سياج البيت وغرفة واحدة. كان الاجتماع قصيراً، حتى أنّ بعض المهندسين كانوا كأنهم يعلمون بالقرار مسبقاً، أو هم كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر. لم يأخذوا من وقت الزعيم الكثير في مناقشاتٍ وتفاصيل مهنية. اتفقوا فيما بينهم على اجتماعٍ مهني. وفي ذلك الاجتماع انتصرت (نيويورك) شكلاً للمدينة المقترحة. أقترح أحد المهندسين الحاصل على شهادته من أمريكا، أن تتم الاستفادة من خارطة مدينة (نيويورك). خارطة متفرّدة عن سواها من خرائط المدن، خالية من الدوائر والمنحنيات، خارطة الخطوط المستقيمة. انبثقت (الثورة) بشوارعها المستقيمة، وقطاعاتها المتشابهة. قُسمت إلى ٧٩ قطاع سكني والقطاع الثمانون تُرك أرضاً فضاء، ليتسمى لاحقاً بـ(الغابة). مساحة البيوت متساوية. لكل بيت ١٤٤ م٢، ومتر آخر يؤخذ منه ربع لكل جانب من الجوانب الأربعة لبناء الجدار الفاصل بين بيت وآخر. هكذا انبثقت مدينة خالد زوال. خرجت (الثورة) التي ظلّ اسمها ذا وقع يثير في نفوس سكنة بغداد، ذلك الموشور الذي يبدأ بالإعجاب من قبل جمهور الزعيم والضغينة من أعدائه. اسمٌ ناغز، لكنه متداول، محسوس، قريب من أنوف البشر، ينام الناس على وقع حوافر آخر البيانات التي تحدثهم عن نوايا ومشاريع الزعيم، ويصحون على ضجة أوراق بعثرت هنا وهناك في أزقة المدينة، منشورات تتلفع باسم الثورة على الزعيم، في تلك الأيام كان كل شيء يتلفع بجلباب الثورة ومترادفاته الكثيرة، البيانات ثورية، أسماء المحلات، الشوارع، وضمنها أسماء الأطفال. كان نجم الأسماء الساطع في سماء المدينة الجديدة، هو اسم الزعيم (عبد الكريم).

كلّ تلك الأشياء الترابية كانت بعيدة عن البحر، لا يصلها حتى نسيمه. من أين لخالد زوال ذكريات بحريّة أو شبه بحريّة. أنهى طبقه اللذيذ. هكذا وجده. التهمه

التهاما وهو لا يشعر برغبة في التقيؤ لأول مرة منذ يومين. كانت علامة مشجعة لأن يحتسي بيرته مطمئناً. ظل يتابع الأحاديث وهو منكمش ما زال على فكرته الجديدة «سأنزل في تونس.. سأطلب جواز سفري.. وأحصل على راتبي». في الحقيقة لم يكن له في عهدة الكابتن راتبٌ بمعنى الراتب، لم يمض أسبوع على عمله في السفينة، ما سيحصل عليه لو فعلها سيكون تافهاً. لكن لسان حاله ما زال يرتّش لنفسه النزول.. لا يهم، سأجد وسيلة ما.. ربما تكون حتى أفضل من تلك الوسائل التي كانت لي في (تسالونيك)، لن تكون أفقر من تلك الأيام التي قضيتها على أكل السمك. تلك السمكات الصغيرات التي اعتاد الصيادون إرجاعها إلى البحر، كنت اصطادها بسنارتي، وأعود بها إلى سفينتي المقطورة، مأواي، أقليها هناك وآكلها دون ملح وخبز.. حتى الملح والخبز كان مستعصياً في تلك الأيام. رغم ذلك كان له مأوى هناك ، ليكن سفينة مقطورة. مأوى قد لا يجده في (تونس). المنطق في هذه الحالة يفترض أن يتأنى في اتخاذ قرار كهذا. واضح والحالة النفسية التي تولدت عن الخوف من البحر، جعلته لا يحفل بكلّ أنواع المنطق، لم يكن أي شيء واضح أمامه وضوح هذه الفكرة. انتهى الأمر. لا أحد قادرٌ على زعزعتها.

كان محمد المغربي صامتاً، خلافاً للجميع. يتابع تداعيات البحارة ويبتسم فقط. في ذهن خالد زوال كان محمد هو الصادق الوحيد فيما لو تكلم عن اعتياده على البحر. لكنه لم يتحدث. كان الوحيد من بين الحاضرين في المطعم هادئاً خلال تلك اللجة التي دهمتهم قبل مرورهم بجزيرة (سيسيليا). هؤلاء المنتفخون بتداعياتهم ورضاهم عن أنفسهم، كانوا قد خافوا كذلك. اصفرّت وجوههم، وتضرّعوا إلى السماء، باستثناء هذا المغربي. حتى استقرت هيأته في ذهن خالد زوال على هيئة شيخٍ طاعن في السن يوزع الحِكَم والنصائح على الجميع. حِكَم عن الحياة التي عاشها طولاً وعرضاً، بامتداداتها القصوى، عن البحر الذي خبره كما خبر راحة

يده.

لا يدري سبباً لهذه الصورة الذهنية الغريبة عن محمد المغربي، حيث أن عمره لم يتجاوز الخامسة والعشرين. قد يكمن السبب في عباراته التي يطلقها في وجهه مثل مُسلّماتٍ فرغ منها وباللغة العربية الفصحى. وربما هي تشكلت من صورة شيخ رواية هيمنجواي، الذي كان وهو في لجة اليأس من المطاردة اللعينة لتلك السمكة العنيدة، يستجلب لنفسه حِكَم الحياة التي عاشها من قبل... الله يلعنني على تهوري. لماذا ضربته؟، كان هو الأقرب لي، شجاعاً، جلداً، يتعامل بهدوء وبمعرفة أكيدة بأحوال الموج. كأنّ ما حدث كان مزحةً اعتادها. يتابع تكالب الأمواج على السفينة بفراسة بحار... هذه سهلة يا عراقي.. لا تخف منها. وهذه شديدة يا عراقي تمسك جيداً... يقرأ الأمواج، لم يرتبك، لم يداخله الخوف. كان فقط قلقاً عليّ، لم يفارقني. أينما أدرت وجهي أجده أمامي.. تمسك يا عراقي... ابتعد يا عراقي... هو ضعيف البنية، صغير الحجم. لم يتحمل ثقل ضربتي. لكنه أيضاً شتمني أو هكذا بدا لي أنه وصفني بالغباء. كنت مهتاجاً مثل ثورٍ محاصر بين فكّي الخوف ولهيب تموز. وفقط حين سقط متعثراً بالحبال المتناثرة، شعرت بالندم على فعلتي. رغبت حينها أن أرفعه وأقبله على جبينه. أو أقدم له وجهي ليضربني كما ضربته. لكنه لم يترك لي مجالاً لتصحيح خطأي. أخرج من جيبه سكيناً وهجم عليّ. زغت منه باتجاه السُلّم. أردت فقط إبعاد أذاه عني. وجدته مصمماً أن يجرحني ولعله كان سيقتلني. لم أرغب أن أؤذيه. كنت قادراً على ذلك، يكفي أن أدفعه جانباً ليسقط في البحر وهو الأقرب إلى حافة السفينة عند السلّم. ظللت ممسكاً بيده التي فيها السكين وأراوده حتى وصل الآخرون وفكوا بيننا.

بدا لي ذو كبرياء ومن حقه أن يثأر لنفسه. يقيناً هو لم يتوقع أن أضربه حين صرخ بوجهي، بعد أن وجدني ما زلت غير قادر على لف الحبال بالطريقة التي علّمني

إيّاها كذا مرة. يبدو أن ذخيرته من الصبر قد نفذت أمام غباءِ وشرود مستحكم... لا يهم سأشتري الليلة قنينة (أوزو) وأذهب إليه لنسكر معاً.. لِمَ لا؟، سأشرب الليلة حدّ الغثيان، وبعد أن أتقيأ سأشرب من جديد. سأعطّل ذاكرتي، ألجم هذياني. لا قرارات جديدة، هو قرار وحيد: سأنزل في تونس..

فرغ المطعم. كلٌّ ذهب إلى كابينته. ظل خالد مع قنينة البيرة المقدمة مع الوجبة، مسترخياً في ركنه. الطبّاخ الأردني رشيد منهمكٌ في شؤون مطبخه. كان من حين إلى آخر يراقب رشيد. رجلٌ خمسيني، بدا له أنه بحارٌ عتيق، عليه أن يتقاعد ويرتاح مع زوجته وأولاده في ما تبقى له من عمر، لكنه، بدلاً من أن يتقاعد من مهنة البحر، وهذا ما صرّح به هو قبل قليل؛ اختار شكلاً جديداً لتقاعده، أن يعمل طباخاً في السفن التجارية، لحين أن تسنح له فرصة في سفينة سياحيّة. العمل على السفن السياحيّة حلمٌ يراود الجميع. ما أن فرغ من غسل آخر الصحون، أخرج قنينة بيرة وجلس قبالة خالد ودون مقدمات:

- يا زلمة أنتم العراقيين أصحاب مشاكل.
- و الله احنا مساكين.
- يا ابن الحلال، ما مضى عليك أسبوع، صار لك مرتين تتهاوش. يعني أنتم ما عندكم طريقة ثانية تحلون بيها مشاكلكم غير المهاوش والخناق.

استغرق خالد زوال بضحكٍ عال. ظل يواصل ضحكه ورشيد هو الآخر صار يبتسم، ثم يضحك هو الآخر دون أن يعرف ما الذي أضحك صاحبه. بعد برهة، عاد خالد زوال إلى عبوسه، وكأنه لم يعرف الضحك في حياته. سأله رشيد:

- تقدر تكلي ليش ضحكت؟.
- آسف رشيد. ضحكت على المهاوش، تذكرت أن هذه

الكلمة نستخدمها عندنا فقط للحيوانات. يستعملها الرعاة في أحاديثهم.. هاوش الكلاب.. هاوش الحمير.. و هاوش الغنم.

- طيب. وش تقولون على مهاوش البشر؟.

مع رشيد لم يكن خالد بحاجة إلى اللغة الفصحى، هو يفهمه حتى لو دخلت مفردات جنوبية على لهجته:

- مو مهم. بس آني فعلاً ندمان على محمد. ما كان عليّ أن أضربه. أفكر أن أصالحه، هل تساعدني.
- هاي بسيطة. تعال أنت الليلة إلى كابينته رح أكون عنده.

ثم عرّج رشيد إلى حديثٍ طويل لم يصغ إليه خالد كلياً. ظل يستمع صامتاً دون أن يعترض أو يناقش. تحدث رشيد في تلك اللحظات عن آلام ومشاكل الغربة، عن أرزاق ومتطلبات عوائل، عن أفضليات العمل في البحر.. وأمورٍ أخرى لا تخرج عن دوامةِ ما كان خالد زوال في تلك اللحظات يرفضه كلياً. ما ينتظره كان واضحاً، ينتظر وصول السفينة إلى (تونس).

ترك المطعم هو الآخر ورغبة مصالحة محمد مستحكمة. توجه إلى مخزن السفينة الذي يفتح كل يوم بعد وجبة العشاء لساعة واحدة. اشترى قنينة (أوزو) وسجائر على الحساب. أثناء مروره بغرفة محمد التي تقع في مقدمة الممر الطويل، سمع أصواتاً عنده. كان عبدو والمصري حسن كعادتهم في السهر عنده كلّ ليلة. قال لنفسه من جديد... سأصالحه.. سأفعل أي شيء لأصالحه... بعدها أو معها تماماً برزت رغبة أخرى، أن يسترخي على سريره ويستمع إلى (شادية). لم تكن عنده مسجّلة. في ليلة سابقة، كان قد استعار مسجلة محمد. هكذا، لتنفيذ أيٍّ من الرغبتين عليه الوصول إلى غرفة محمد. وصل غرفته في نهاية الممر. دخل ودون أن يغلق الباب خلفه، فك غطاء القنينة وتجرع دفعةً كبيرة من الكحول اليوناني. شعر بالاحتراق يلسع بلعومه. بحث عن

شيء يطفئ به الحريق، لم يجد غير علبة السجائر، أشعل واحدة علّها تغير طعم الفم. استلقى على سريره دون أن يشعر برغبة الذهاب إلى الحمام لأخذ دش ومن ثم تبديل ملابس العمل. ما زال يداور مع نفسه أمر المصالحة، كيف ومتى.

قبل أن يداهمه النعاس، نهض من السرير كالملسوع. فرّ خارجاً من غرفته، وفي الممر الطويل بين غرفته وبداية السلم الصاعد تبعثرت الأهداف في رأسه. عادت الأشياء والأهداف غير واضحة. خرج إلى الأعلى. لا شيء غير الصمت يجثم على السفينة والبحر والكون وضجة مخنوقة تتناهى من غرفة المحركات، ما أن تصل حتى تندغم بذات الصمت. هي واحدة من الحالات إذ تمسك به، تحيله إلى كائن منخور، يدور في فراغ، تتماهى أمامه الأشياء وملامح البشر. يخترقه الفراغ عبر الشرود إلى حدود التلاشي. اعتاد في المدينة إذ تدهمه الحالة أن يتيه في الشوارع، يرتدي تيهه حتى تزايله الأعراض. ماذا سيفعل الآن في هذه المساحة المسورة بالبحر؟. اتّكأ على سياج السفينة المقابل لمدخل كابينات النوم. كان البحر وديعاً، تتهادى أمواجه كأنّها سجّادة زرقاء تزخرفها ألوان الغروب. لمح من بعيد وفي عرض البحر حركة كائنات برؤوس سوداء. بدا أنها تتبع خطّ سير السفينة، تختفي في البحر ثم تظهر. ومع اقترابها عرف أنها الدلافين. كانت تتقافز على سجّادة البحر الجميلة وتبدو سعيدة، لاهيةً كلما اقتربت من السفينة. أكثر من عشرة دلافين تلاعب بعضها بسعادة وانتشاء، وتنساب فوق الماء برشاقة. ظلت تتابع السفينة، ولعلها كانت تنتظر أن يُرمى لها شيئاً، وحين يئست اختفت ولم يعد يراها. مع أنه ولأول مرة يشاهد في حياته الدلافين التي كثيراً ما سمع وقرأ عنها، إلا أن تلك المشاهدة لم تجلب له الشعور الذي يحسه الإنسان حين يرى شيئاً للمرة الأولى، إحساس بالفرح، بالاندهاش. لم يندهش. تعامل مع المشهد وكأنه يراه يومياً.

ظلّت وحدها ضوضاء المحركات تخدش الصمت وفوضى النوايا المتزاحمة في رأسه وتشوش أصواتاً قادمة من بعيد، لكنها ما أن تجيش روحه حتى تختفي، كأنها تسقط في البحر قبل وصولها إليه. كانت تلك الأصوات قريبة، أليفه. أصواتٌ كان يقاسمها الغرفة واللقمة في أيام (أثينا). أيام أمينة العراقية. المرأة التي التبس أمرها على الجميع. ها هو صوتها ينفرد من بين حزمة الأصوات، يطرق أبواب روحه، ويكتسح بذور التشوش من رأسه. ما زال يلوذ بفرضيات الحب وبراهينه ويعيد ترميم حضورها في روحه.

اصطدم بها في واحدة من حالات الثيه التي انتابته خلال أيام (أثينا). كان يحاول وقتذاك إشباع (مشروع المشاريع) بالمزيد من النساء، عاهرات، سائحات، بنات ريف، بنات مدينة.. لديه ما زالت ثمة نقود وغرفة يستطيع الانفراد بها بصيده. في تلك الظهيرة كان قد دخل مع عاهرة فندقاً دخولاً جعله يلعن ليس العاهرة فقط، بل لعن (أثينا) واليوم الذي رأى فيه (أثينا). لعن (أثينا) متحف أساطير العالم وأحلامه الرصينة، المدينة الودودة، الناعمة، الصاخبة، الضاجّة بأنواع الكائنات وأفخر المشروبات وآخر العاهرات الآتيات من الريف يجمعن مهور أزواج المستقبل. كان قد هرب من عاهرة الفندق تلك التي قيأته أحشاءه. وهو يواقعها ساحت من جسدها رائحة ليست لأنثى، رائحة مركبة من روائح أجناس وأعراق وطؤوا جسدها وتركوا روائحهم تذكاراً. اخترقت الرائحة رأسه وخرجت من أنفه وفمه قيئاً. تركها في غرفته وهرب. أسلم نفسه للرصيف وهو يمسح بقايا القيء من زوايا فمه وأنفه.. دار به الرصيف ولما تعب أسلمه لرصيف آخر. تقاذفته الأرصفة وتلاشت ساحة (أمونيا) بفنادقها الرخيصة وسماسرتها من العرب الباحثين عن صيدٍ جديد من أبناء جلدتهم يقدمون له خبراتهم اللغوية، مقابل تفريغ جيوبه ورأسه من نية العودة ثانية إلى (أثينا). هو والأرصفة لا يدرون عما هو يبحث. يا لعهر الطقوس. للأرصفة كذلك طقوس، هي

تحتمل آلاف الكائنات والأشياء كل لحظة، كل دقيقة.. كلٌّ يحثّ السير إلى هدفٍ وفي ذهنه المسار، وحتى ذاك الذي لا يبحث عن شيء، هدفه واضح هو اللاشيء ذاته ومساره الدوران إلى نقطة الانطلاق.. في النهاية سيصل إلى مبتغاه، إلى ثغر من تلك الثغور المتراتبة على حواف الأرصفة. الثغور والأرصفة تتناوب على ابتلاع الكائنات ثم تلفظها. قذفت به الأرصفة إلى الأزقة الجانبية الضيقة، إلى تلك الكواليس الخلفية لـ(أثينا) القديمة. لكنه لم يكن يبحث عن معمارٍ وأطرزة بناء ومتاحف وأساطير تنضح بها تلك الأمكنة. ملّته الأزقة سريعاً وأعادته إلى الأرصفة من جديد.

وفي عودته الثانية وربما العاشرة، طالعته الواجهات. تنبّه للتوّ أنّ على الأرصفة كذلك ثمة واجهاتٍ تعرض كلّ الأشياء. سرق نفسه واختار واحدة. هناك وفي الظلام الكسول اصطدم بمقعدٍ وجلس. صار يتفرج على المدينة من جديد وهي تعرض نفسها له عارية.. كان ثمة ذكور وإناث يدبون على اثنين وأربعة يلهثون بلعنته الأبدية. وجد نفسه على الشاشة العريضة عارياً إلا من الكوفيّة والعقال يدبي كما الحيوان على قوائمه الأربع وحورية تمتطي ظهره. يتقافز مثل قردٍ نشوان، والحوريّة تلهو به. كانا يمرحان في فضاءٍ أخضر، وثمة حورٌ وغلمان واقفون على خدمتهم، يحملون كؤوساً تفيض بمشروبات الجنّة العربيّة. وضع أحدهم بيد حوريته سنارة صيد، كان مقبضها عضواً ذكرياً برأسٍ مفلطح وفي نهايتها يرفرف الدولار. الحورية تداعب بالرأس المفلطح كل فتحاتها، وهو يلهث تحتها لاصطياد الدولار.. ضج الظلام الكسول بالضحك، لم يفهم على من هم يضحكون، على الحورية العابثة، أم على هذا العاري إلا من عقاله.. ولِمَ أبقوا على عقاله وملامحه تدل عليه كفاية.

تجشّأ اللعبة حد الانتصاب. ترك مقعده وذهب إلى غرف التواليت. كان هناك عددٌ من الأفواه تنتظر انتصاب أمثاله. اختار غرفةً ترك بابها مواربا، تبعه أحدهم. تم

الاتفاق بالعيون. الفم الداخل وعضوه المنتصب يبحثان عن بعضهما. امتصّ الفمُ رحيق احتصاره مُنتشياً بعيونٍ تنضح بالإغواء. شعر هو بالذنب، كمن كان مُسرنماً وصحا توّاً. عرق وارتبك. أعاد سحاب البنطلون وخرج وهو يواري وجهه من عيون الأفواه الأخرى المنتظرة احتصار أشباهه من جلّاس الصالة الكبيرة.

عاد من جديد إلى الأرصفة. قادته هذه المرة إلى ضريحه. هكذا صار يسمي المقهى الذي رآها وتعرف عليها فيه. المكان يعبق بأنفاسها أو هكذا يتراءى له، يستطيع أن يتشمّم رائحتها. في هذه المنفضة كانت تفرك أعقاب سجائرها المخضبة بأحمر شفاهها، وهذا النادل ذاته الذي كان يخدمهم، هو الآن أحدُ سدنة الضريح. هنا أيضاً أطلقت هي حكمتها (الرجل والمرأة كلاهما واهمان، هو بفحولته، وهي بأنوثتها. لا شيء حقيقيٌ، غير رغبةٍ تحركها غريزة الجوع لكليهما. الغريزة هي الشيء الحقيقي الوحيد) وهو ماذا قال؟، لعلّه حاول القول: (كلّ نساء هذه المدينة لا يلجمن عوائي، سوى واحدة ووجدتها).

- أنا أعمل في قبرص وأقضي إجازتي هنا. عندك مانع؟.

للوهلة الأولى ومن نبرة الحسم في ما قالته، شعر بالارتداد. ارتدّ جسمه ورأسه إلى الوراء. ثم جاء الذهول. ذهول من وقع في فخٍّ لم يخطر بباله قط. لكنه نطق أخيراً:

- أنت عربية؟.
- شنو رأيك؟.
- وعراقية؟.
- يسمونّني أمينة العراقية. تكدر تقول هذا هو اسمي. وأنت؟.
- ليش خليتيني أرطن كل هذا الوقت حتى تاهت عليّ

اللغات؟.

- أخذني الواهس. شفتك مصدّق أني إيطالية.
- اسمي خالد زوال.
- خالد.. اسم حلو.. بس زوال هذا منين جايبه؟.
- اسألي جدي.

ضحكت بكركرة تشبه ضحكة الغواني في الأفلام المصرية. ضحكة مقطعيّة تستطيع إنهاءها حسب الحاجة. أنهتها بالقول:

- نكتة. حلوة.

أزاحت نظّارتها الشمسية بعدستيها الكبيرتين إلى فوق لتمسك شعرها الكستنائي الهائج على شكل أمواج متداخلة. انجذب إلى جمال عينيها. شعر كأنّ العيون كانت هي مبعث الضحك وليس الشفايف المضمّخة بأحمر شفاهٍ خفيف. شيء غير مفهومٍ بثّته العيون في ثناياه يشبه دفئا في ليلٍ بارد. أطال النظر إلى عيونها لعله كان يبحلق. حتى سألته:

- هاي شبيك؟.

لم يجد جواباً. غير أنّ رأسه متخمٌ بأقوالٍ وحكايا تشبه الشكوى.. ماذا يقول لها.. هل يطلعها على الثيه الذي هو فيه.. هل يشكو لها الفتاة التي ساحت من جسدها تلك الرائحة التي قيئته أحشاءه.. هل يشكو لسانه الملجوم برطانة اللغات حتى نسى أنّ له لسانٌ للنطق وليس قطعةً زائدة في الفم... اللسان الذي من الآن سينطق وكأنه لشخص آخر:

- تعرفين؟، آني كنت أدوّر عليك.
- تعرفني؟.
- من زمن نوح.

تنهّدت بالقول لنفسها بهمسٍ مسموع: إيه يا أمينة رح تتورطين ويا شاعر. ثم عادت ووجهت سهام عينيها له:

- يعني ما كنت تدور على إيطالية، اسكندنافية، يونانية.. تخلّص وياها وقت؟.
- كنت أدوّر عليك.
- شوف!، آني مو عادتي أدوّخ رأسي بالألغاز. رح أطلب شيء نشربه. إنت هسه ضيفي. شتريد تشرب؟.

عليه التعوّد من الان على مفاجآت هذه المرأة.

- لكنك لم تدعيني.. أنا من تطفل عليك..
- شوف!، في البداية ردت أصرفك من أجيت عاوج حلكك تريد تحكي إنكليزيي.. كان آي سيتنك مدام.

نطقت الجملة الانكليزية بتفخيم وهي تقلده. واصلت:

- من نطقك للإنكليزية عرفت أنك عراقي.. فيك شيءً أثار فضولي. قلت يا مرة شوفي هذا العراقي شنو فلمه..

ضحكت بذات الكركرة المتقطعة. أحس بالانطلاق وزوال التلعثم الذي ألمّ بلسانه من المفاجأة الأولى:

- وداعتك رح تشوفين فلم هندي. أطلب (اوزو).
- ليش متعجّب.. آني هم رح اطلب (اوزو).

كانت ومضةٌ برقت في سماء تيهه وانطفأت، تاركةً له رماد كلمات يريد تصديقها. يجلس إلى ذات الطاولة، حيث المكان يحاوره. جاء النادل بابتسامته التي تشبه ابتسامة طفلٍ ماكر. هو يعرفه لا يحتاج أن يسأله. يعرف ماذا يريد، ومن ينتظر. ورغم جهلهما للغة بعضهما، إلا أنهما يتحادثان، النادل يتحدث وخالد زوال يستمع إليه ويفهم كذلك، ربما بالحدس. يحدس أنه يحدثه عن تلك الأشياء التي تصادف النادل في عمله اليومي. ولما يجده قد ملّ الاستماع يعرج إلى ذينك السؤالين المترابطين في ذهنه: يسأله عن غياب أمينة، ثم يعرج على حصار (بيروت). لا يدري لماذا هذان الشيئان مترابطان في ذهن النادل. لكنهما مترابطان كذلك في ذهنه هو خالد زوال. لأنّ أمينة قبل إحدى غياباتها، قالت له: أنها ستتوجه إلى

بيروت.

***

الأصوات والوجوه تتوالى على روحه، كأنها تنبثق من البحر، وما أن تصل إلى حافة السفينة حتى تسقط من جديد في البحر.. ها هو صوت سامان ببحته التي يثلم بها الحروف العربية، يؤنث ويذكر على هواه.. صوت علي بلحيته الجميلة التي تؤطر سمار وجهه الداكن، ضحكته الطويلة المتروية المتحكّم في مقاطعها، ولغة القرآن التي ما انفك يدعو الجميع لاستخدامها في كل حين.. كأنه يستمع إلى ذات الجدل بين علي و حامد جيفارا بشعره الطويل. اسمه حامد أما الملحق (جيفارا) فأتى من لحيته الخفيفة الشبيهة بلحية الثائر الأرجنتيني (جيفارا) ومن تلك الخرقة التي واظب على ربط رأسه بها. يسمع ذات الجدل حول قدرة أو عدم قدرة الفصحى على النزول إلى كلّ ميدان بما فيه الميدان الجنسي.. في واحدة من الحالات التي كان يتعمّد حامد فيها إغاظة عليّ بحرف النقاش بينهما إلى سخرية. يغيّر نبرة صوته لتحاكي أصواتَ شخصيات المسلسلات الدينية..

- ما بالك أيتها المومس اللعينة.. ألا يعجبك نكاحي..؟.

يردّ عليه علي بصوتٍ متروٍّ خالٍ من الانفعال:

- هذه سفاهة. وهي ليست موضوعنا. أنا أتحدث عن مجتمعٍ لا يكون فيه مكانٌ لكلّ هذه السفالات.

يردّ حامد:

- وأنا أتحدث عن مجتمعٍ موجود، فيه كل هذا وغيره، فيه لوطيّون، فيه نسبة أمية مخيفة، فيه لهجات، لغات.. صدقني لو تحدثت مع أمي بالفصحى ستدير وجهها إلى أبي وتسأله: هذا ابنك بيش يرطن؟.

ظلّت الأصوات والوجوه تتساقط ويبتلعها البحر، حتى فرغ رأسه. عاد من جديد إلى فراغه. تناغم صمته الداخلي مع الصمت الخارجي الذي يلفّ الكون. هدأت روحه من فوضى النوايا. قرر تنفيذ رغبته الأولى. نزل

السلم، وقف أمام باب غرفة محمد، تذكر أن عليه جلب قنينة (الأوزو). ذهب إلى غرفته، خطف القنينة من الطاولة وكأنه كان مطارداً وما عليه سوى خطف القنينة والعودة إلى باب غرفة محمد. طرق الباب ودخل دون أن يسمع صوتاً يدعوه للدخول. كان هناك إضافة إلى محمد، حسن وعبدو ورشيد. وجد نفسه ينطق ما يشبه النكتة:

- أجد الأمّة العربية مجتمعة هذه الليلة. أكيد أكو قمة عربية على الطريق.

انذهل لقدرة لسانه أن يلهج بنكتة. وهو الذي كان حائراً بتحضير جمل الاعتذار التي عليه قولها لمحمد. ما إن يمسك بواحدة يظنها ودية ومفهومة حتى يخرج له لسانها ساخرةً من سذاجته. وها هم الآن يضحكون لنكتته ويرحبون به، باستثناء محمد. ظل هذا جالساً على سريره وملامحه لا تنبئ بشعورٍ وديّ للزيارة. وضع قنينة (الأوزو) التي جلبها معه على الطاولة الجانبية وجلس قرب رشيد على السرير المقابل لسرير محمد. شعر أن رشيد قد مهد الأرضية لنيته على المصالحة وأن الآخرين مرحبون به. قدم له حسن كأس (أوزو)، أخذها منه، وقبل أن يشرب بصحته كما طلب حسن، فاجأ الجميع، إذ تقدم باتجاه محمد وقبّل رأسه. هكذا دون كلمات ومقدمات. تبدلت سحنة الأخير وأحتضنه مقبلاً إياه، فاسحاً له مكاناً على سريره. ارتفع من الجميع ضحك الاستحسان وشربوا نخب المصالحة (العربية). هو غير مصدّق بعد أن المشكلة حُلت بهذه السهولة. بدأ رشيد بحديث عن الأخوّة والعروبة.. مع ذلك، كان خالد قد لمح مع دخوله أنهم أخفوا شيئاً ما تحت السرير المقابل لسرير محمد، حيث جلس هو قبل قليل.

بدخوله، صارت اللغة الفصحى هي الوحيدة واسطة للتخاطب فيما بينهم، يلوكون مفرداتها بتأنٍّ وتكلف واضحين. هو الوحيد الذي لم يتعود بعد على لهجاتهم المحلية، كما هم لم يتعوّدوا على لهجته. ظلّ البحر هاجسهم عائدين إليه كلما تشعبت بهم الأحاديث..

- سفينتنا، مركبٌ صغير قدَام البواخر العابرة للمحيط.

قال حسن، وعلّق محمد:

- نحن في تمّوز، البحر في أهدأ حالاته.. كلّ الخوف من شباط وآذار ونيسان.

أثنى رشيد على ما قاله محمد:

- الله يستر من شباط. تشوف الموج من كلّ الاتجاهات. يظلّ يرفع المركب وينزله حتى يشقه إذا كان قديم. رأيت أمامي كيف انشق مركب صيادين، كنا على بعد ميلٍ منهم. لحقنا عليهم وأنقذناهم.

نطق عبدو للمزة الأولى، وغمز بعينه دلالة المزح:

- يبدو العراقي لم ير بحراً في حياته؟.
- كيف أرى بحراً، والبصرة في بلدي لم أرها. البصرة هي المدينة العراقية الوحيدة التي تقع ضواحيها على البحر.. أو على الخليج.

علق رشيد:

- أنا عرفت بحّارة من كل البلاد العربية.. لكني لم أسمع ببحّارٍ عراقي. ردّ عليه حسن مستنكراً:
- بالعكس، أنا عرفت عدداً منهم، لكنهم لا يستمرون طويلاً في البحر. العراقيّ غير صبور.

قال خالد:

- المسألة ليست مسألة صبر.. بل هو موقع العراق الجغرافي، كما قلت قبل قليل، قطعة صغيرة منه فقط هي التي تطلّ على الخليج. كيف سيكون له بحّارة معروفين؟.
- وحول هذه الأرض الصغيرة تدور الحرب الآن؟. سأل محمد.
- لا، بل حول نهرٍ يصبّ في الخليج اسمه (شطّ العرب)، هو ممرُّ العراق الوحيد إلى البحر. تنازل عن

نصفه رئيسنا لشاه (إيران). بعد سقوط الشاه غيّر رأيه.

سأل عبدو مندهشاً:

- تتنازلون عن شيءٍ بيدكم، ثم تحاربون عليه فيما بعد؟.

ردّ خالد:

- بالنسبة لي، لم أتنازل عن شيء. هذا أمرٌ يخصّ الحكومة. كانت صفقةً سياسيةً بينهم وبين الشاه. نتنازل عن نصف شط العرب عند حدود مدينة البصرة، بالمقابل يسحب الشاه دعمه لأكراد العراق المتمردين.

علّق رشيد:

- -يا جماعة الخير، أنا أشعر بالصداع مع أي حديثٍ في السياسة. والعراقيون ما يعرفون غير حديث السياسة!.
- رشيد خلّ السياسة تتركنا.. وأوعدك احنا نتركها.

لم تبدُ على الآخرين رغبة المواصلة، ربما باستثناء عبدو الذي اشتبكت في رأسه أحجية شط العرب ولعله لأول مرة يسمع بهذا الاسم. أراد المزيد من التوضيح لولا إخراج محمد لتلك العلبة الصغيرة من تحت السرير الذي يجلس عليه رشيد وعبدو. العلبة التي بدت لخالد أنها تحوي شيئاً شبيهاً بالتبغ. لكنه عرف أنها الحشيشة. سبق وأن رأى لفافاتها مع عدد من شلّة حكيم في تسالونيك، كانوا يسمونها (جكليتة). صار عبدو يفرغ سيجارة المالبورو على سطح الطاولة القريب منه، ليخلطه مع تبغ العلبة الصغيرة، حتى عمل من الخليط سيجارة جديدة. راحوا يدخنوها بالتناوب. تابع خالد باندهاشٍ ما يفعلون، حتى وصله الدور. سأله رشيد:

- عراقي!، دخّنت الحشيشة قبل هللة؟.

شعر مع فجاءة السؤال بوتر التحدي ينبض في رأسه،

أتت إجابته سريعة غير متوقعة له:

- نعم.

كذبَ. لأنه لم يسبق له أن دخّن الحشيشة. حتى حين كان يسكن مع مازن، طلب من هذا أن يدخنها بعيداً عنه. كان هذا حين يريد تدخينها، يذهب إلى البيت الثاني من بيوت حكيم القريب منهم. سمع مازن مرة يقول: بهاي الجكليتة تقدر تنام مع أجمل جميلات تسالونيك.. الرأس بجكليتة. في حينه كان يشعر أنّ مانعاً من نوع ما يصدّه عن تجريبها. ها هو الآن يدخن محاكياً طريقتهم. كم مضى من الوقت، وهل أنّ طعم (الأوزو) الذي كرعه دون مزة، مسح عنده طعم الأشياء، أم أن طعمها هو هكذا، لا يختلف عن طعم التبغ العادي؟. مع الوقت بدأ يشعر بثقل رأسه، حتى تخيل أنّ صخرةً كبيرة لكنها فارغة تجثم على كتفيه، ومعها شعر برغبة تكتسح أطرافه تدعوه للرقص، للطيران، للقفز، صار يشعر برغبة القفز من سياج السفينة إلى البحر، لملاعبة الدلافين اللعوبة، تلك التي كانت تطارد سفينتهم عند الغروب. شعر بالانتشاء والسعادة والتخفّف من كل العوائق والهواجس التي نغصت عليه الأيام القليلة التي قضاها على ظهر هذه السفينة. اكتظّت صخرته برغبةٍ ملحاحة للحديث، رغبةٍ تدفع بها وجوهٌ أخذت تتوالى من أفق الدوامة التي كانت تعصف برأسه قبل دخوله إلى الغرفة. كان الآخرون كذلك موغلين بملاحقة أشيائهم البعيدة عن عالم البحر، تراودهم حكايات ووجوه تتقمص تلك الحكايات. كلٌّ مبحر في عالمه البعيد عن البحر. الصمت وحده يسبح مخترقاً كتل الدخان المكورة على هيئة أشكالٍ تتموج وتتحول من شكلٍ إلى آخر. بعد رحلة تيهٍ في فضاء الغرفة الصغير المكتظ، تتسلل كتل الدخان المتشكلة بأحلامهم وذكرياتهم من كوّة الغرفة الصغيرة وتسيح في الخارج المظلم حتى يبتلعها البحر. الرغبة الملحاحة للحديث تراود الجميع. الكلّ يتحدث ولا أحد يسمع غير نفسه. اختفت من أمامه سحنات رفاق الغرفة.. لم يعد

يرى غير دخانٍ ووجوه تطلّ عليه من بين كتل الدخان.. صار يحدث أصحاب الوجوه.. وجوهِ أصدقاءٍ تركهم هناك في وطنه الموبوء بالحرب.. وجه أمه وهي تعاتبه.. لِمَ الدموع يا أمي.. سأصل الحدود وأعود مثل كل مرة.. لا أصدق أنهم سيسمحون لي بالعبور.. دوامة الوجوه تدور في الشريط العتيق، وجوهٍ تخفي بعضها وأخرى تتساقط مثل ثمارٍ غير ناضجة.. رويداً رويدا غادرت رأسه كل الوجوه، كل الحكايات، كل الأصدقاء القريبين والبعيدين، وجهٌ واحدٌ بدا عنيداً على التلاشي، وجهُ أمينة العراقية، بعيونها الساحرة ذات النظرة العجيبة وهي تمزج الحزن بالفرح.. معك حق يا مازن أنت ومدمناتك.. الرأس بجكليتة.. حلوة هاي الرأس.. أي رأس.. جكليتة.. جكليتة.. مازن في علاوي الحلة يحمل جمبراً معبأ بجكليتاته.. ويصيح الرأس بجكليتة.. مشهد باهر.. الله يلعنك يا مازن كيف وجدتها..!!.

سأجعل هذه الليلة يا صديقي لتلك المخلوقة التي دعت نفسها أمينة العراقية. تعرف؟، أنا لا أعرف بعد اسمها الحقيقي. قد يكون هذا اسماً حركيّاً على عادة السياسيين العراقيين خارج بلدهم، أو هو اسمُ فنّي، كما زعم حامد جيفارا، وهو ينقل معلومته بطريقة قال فلان عن علاّن.. سمع أحدهم يقول، أنها راقصة تعمل في أحد فنادق قبرص.. مهما يكن من أمر اسمها وعملها لأقّدمها لك ولقرائك كما هي.

بعد عودتها الرابعة من (بيروت) كما قالت هي خلال الفترة التي عرفها بها خالد زوال، أو من (بغداد) كما يصرّ سامان على الدوام. داهم (خالداً) إحساسٌ ذو ملامح مدببة وشائكة. وجد نفسه فجأة وببساطة ضحيّة سذاجة تلبّسته مع عاهرة مُحترفة. كانت حين تعرّف عليها، ما زالت تقضي إجازتها على السواحل اليونانيّة. محاولةً منها لامتلاك جسدها والحصول على المتعة المتنحّية بعيداً في خضمّ دوامة العمل ومتطلبات الزبائن. تبذل لهم هناك المتعة دون إحساس. لا شيء يجذبها في الزبون غير انتفاخ جيبه. تعبر البحر إلى الضفة الأخرى في مواسم تختارها هي، لتصطاد ضحاياها من الذين ستفرغ جيوبها عليهم هذه المرّة. بهذا هي تمارس ذات العمل إنما باتجاهه المعاكس، تتقمّص أدوار زبائنها في تلك الحانات القاتمة المنزوية في طيّات أزقة (بيروت)، المدينة التي يتقاتل أبناؤها منذ دهر. أو حتى من تلك الملاهي الكائنة في المناطق المشبوهة من (بغداد)، الأماكن الأنيسة للمقاولين وتجار الحرب والجواسيس من كلّ لون ونوع. تأتي إلى هذه السواحل بعيداً عن بلادة الزبائن وشذوذهم المقرف، أولئك الذين لا يجذبهم في المرأة غير مؤخّرتها. بعيداً عن استنزاف القوادين وحرصهم الأمني. إلى هذه السواحل التي تكاد أن تكون مقفلة في مواسم الاصطياف للاسكندنافيات، اللّواتي يهشّمن شرانقهنّ الثلجية في هذا الموسم من السنة، يهبطن إلى هذه السواحل الدافئة أو الحارقة، بحثاً عن الحرارة المفتقدة هناك في بلادٍ غائرة في ثلوج الشمال، وبحثاً عن مغامرة. لكلٍّ منهنّ مغامرتها الصغيرة، تحمل تداعياتها زوّادةً لليالي الشتاء الطويلة، حين تلاعبهم الشمس في لعبة التخفّي المعتادة، ما

إن تخرج من الشرق حتى تختفي بعد ساعة ربما وفي ذات الشرق. أمينة هي النشاز في هذا المشهد الممل، حيث الشمس المتشربة إلى مساماتها تكفيها عمراً دون شمس. كانت بعد كل عودة من عوداتها الأربع تبحث عن خالد زوال وتجده، تقضي معه أياماً وأحياناً أسابيعاً.

لتكن من تكن. هذا الأمر لم يشغله كثيراً. لم يفكّر طويلاً بغموض غيابها، لأنّ حضورها قادر على جعله يرتب ملموسيّات وبراهين الحب التي يجمعها لنفسه. بحضورها تتبخر محتوياته، يرى قلبه عصفوراً تائهاً يشدو في فضاءٍ من اللذة، ورأسه ينسى رأسه.. يتقافز مثل أرنبٍ مذهول وسط فوضى حقولٍ تنضح عطراً لا يدري له اسم بعد.. في تلك الليالي في غرفتها من الفندق الذي لا تبدله ما إن تصل أثينا وفي تلك الجولات التي تأخذه فيها بعيداً إلى جزر ومدن ومنتجعات لم يحلم بها، ينسف كلّ شكوكه ومعها تلك الأسئلة التي تنصب له الفخاخ أيام وشهور غيابها. أقساها كان: ما هو موقعه من الإعراب في عالم هذه المرأة المكتظّ بالطلاسم والأسرار؟، وتتوالى إجاباته متشابهة: زبونٌ عابر.. صديقٌ عابر.. أيّ شيءٍ عابر. أليس هذا ما تقوله هي له في كل مرّة يصلون فيها إلى موطئ وضع اللمسات على شكل علاقتهم. من تكون.. ماذا تعمل.. أين تعمل.. لماذا تسافر وتعود..؟، ظلّت أسئلة عقيمة لم يجد لها إجابات وهو يدافع عنها أمام أصدقائه شركاء الغرفة. هذا هو سامان:

- خالد!، أرجوك فكّر فقط في احتمال كونه مجنّداً للمخابرات العراقية.
- يا سامان أنت مو بالعراق. ليش خايف من المخابرات كل هذا الخوف؟.
- آني مو خايف على نفسي. بس إنت راح يوگع.
- هسه ما تكلي آني منو حتى المخابرات تلحگني لهنا.
- بعدين لا تنسى، إنت كل مرّة تجيبه لبيتنا.
- گول من البداية: بعد لا تجيبها للبيت وخلص.

يعتقد خالد أن هذه لا يمكن أن تكون حقيقة أمينة، فقط أنّ سامان لم يشف بعد من آثار اعتقاله، والتعذيب الذي تعرض له هناك. ثم لِمَ كل هذا التعقيد؟، هل سألته

هي من يكون.. ماذا يفعل.. لماذا ترك البلد؟، على العكس، يجدها على الدوام لاهيةً عن مثل هذه الأسئلة وتكاد أن تكون ساخرة من كلّ تلاوين السياسة عندنا بشقّيها السلطويّ والمعارض.

- أنا أجد النفاق يعمّ الجميع. لا أحد صادق، لا أحد يعرف ماذا يريد. الجميع متورطون في لعبة لا يعرفون قانوناً لها..

حصل هذا في حالاتٍ قليلة، عبرت فيها أمام خالد عن وعيٍ سياسيٍّ أدهشه. ذات الدهشة التي داهمته لاحقاً أمام حكيم. وهو لا يدري على وجه الدقّة سبب الدهشة، هل لأنّ ما تفوها به بعيدٌ عن عالمهم المرئي المعروف المقولب، أم هي النمطيّة التي تغلّف وعيه مثلما غلفت وعي الكثيرين عن الناس وتصنيفاتهم.. كأنّ على السياسيّ ما دام هو سياسياً أن يتكلم بالسياسة في كل حين، أو هو لا يعرف شيء آخر غير السياسة.

رغم هذا وذاك، يحاول خالد أن يرسم لنفسه فهماً ما، تصوراً ما، لسبب اندفاعه وتعلقه بها، يريد أن يصل إلى بصيص ضوءٍ في نفق العلاقة أرادها في البدء تسليةً عابرة، تشبه غيرها من علاقاتٍ عابرة مَرّ بها خلال وجوده في أثينا وقبلها في بلغاريا وفي تركيا. شيء غريبٌ عصيّ على التفسير يشدّه لها، لا يجد له أسبابه المقنعة. هي ليست جميلة بمقياس جمال الأثينيات والاسكندنافيات، كذلك هي ليست فتاةً صغيرة، بل امرأة كاملة النضج تكبره بعددٍ لا يعلمه من السنين. لكن رغم هذا يجدها صغيرة، بل هي تصغر أمامه لقاءً إثر لقاء. واضح أنّ هناك مقاسات كثيرة لجمال المرأة، أو لجاذبيتها تلك التي تتحكم بردود فعل الرجل، لا مكان للمطلق فيها. قد تكون هذه المقاسات مزاجيّة أو حتى ساذجة. هو خالد زوال مثلاً، لا يستطيع أن يفهم لماذا الفلاحون لا يحبّون غير المرأة الممتلئة شحماً، ويكاد يكون شرطهم الوحيد للزواج منها.. أو لماذا كان صديقه محمود يحبّ المطربة (نجاة الصغيرة) كل ذاك الحب

الذي يخلق منه شجاراً في المقهى بعد كل أغنية للمطربة يظهرها لهم التلفزيون. يظلّ صوته يعلو فوق أصوات الجميع بآهات الإعجاب والنواح ويصرخ بهذا وذاك حتى تنتهي الأغنية دون أن يفهموا منها شيئاً.. حتى عرف السبب لاحقاً: أنّ محمود لم يكن يحب (نجاة الصغيرة)، بل كل امرأة اسمها (نجاة)، هكذا لأن فتاته الأولى التي ضاعت منه وتزوّجت غيره كان اسمها (نجاة). ربما هكذا تكون على الغالب مقاييس البشر، إلا أنها تبقى صادقة، طالما هي تنسجم مع شيء في الدواخل يخفق معها. أمينة العراقية عند خالد هي أجمل النساء، وإلا ما سِرّ كل تلك الفوضى التي تعتريه، إذ يلمح تسريحةً تشبه تسريحة شعرها، التسريحة المنسدلة كالموج الهائج على كتفها النحيل، يراها أجمل تسريحة تكون لامرأة. لم يجد أجمل من عينيها، هما عنده نافذتان تضيع معهما تفاصيل الوجه الصغير، سوى أنهما لا يبوحان بأسرارهما لكلّ عابر سبيل، يظلان يخفيان ما عنّ للمخيلة من أسرار. صحيح، وجهها صغير، وجهٌ لا يملأ الكف، يعود لطفلةٍ تداهمه الرغبة مراراً لحملها على ذراعه ومداعبتها كما يداعب طفلةً جميلةً وذكية. وفي أحيانٍ أخرى يجده يشبه وجه أمّه. كذلك وجه أمّه صغير، مثلما جسدها صغير، كان لا يصدق من يراهم معاً أنّ هذا العملاق لهذه البنت الصغيرة. أتُراه واقعاً في (عقدة أوديب)؟، حين يصل إلى هذا الموطئ كان يصرخ في نفسه.. كفى تعقيداً وتفلسفاً، اللعنة على (أوديب) وعلى من أوجده. صحيح أنا غير قادر على تفسير مشاعري تجاهها، لكني أحبها، أنا على يقين من هذا الحب. لأيّ سبب؟، ليس بالضرورة أن تكون للحب أسباب. يكفي أنّ شيئاً في داخلي كان يقودني إليها حتى من قبل أن أراها.. ألا يكفي هذا سبباً. (داروين) اكتشف أصل أنواعه بجزءٍ من الثانية، لكنه قضى عمره يأتي بالبراهين ليثبت ذلك. و(نيوتن) اكتشف قانونه بلمحة بصر اتّسعت فقط لسقوط تفاحته على الأرض.. لماذا لا يكون لي اكتشافي الخاص؟، أنا الآخر كان لي اكتشافي، توصلت إليه بأسرع من ذينك

الذي يخلق منه شجاراً في المقهى بعد كل أغنية للمطربة يظهرها لهم التلفزيون. يظلّ صوته يعلو فوق أصوات الجميع بآهات الإعجاب والنواح ويصرخ بهذا وذاك حتى تنتهي الأغنية دون أن يفهموا منها شيئاً.. حتى عرف السبب لاحقاً: أنّ محمود لم يكن يحب (نجاة الصغيرة)، بل كل امرأة اسمها (نجاة)، هكذا لأن فتاته الأولى التي ضاعت منه وتزوّجت غيره كان اسمها (نجاة). ربما هكذا تكون على الغالب مقاييس البشر، إلا أنها تبقى صادقة، طالما هي تنسجم مع شيء في الدواخل يخفق معها. أمينة العراقية عند خالد هي أجمل النساء، وإلا ما سِرّ كل تلك الفوضى التي تعتريه، إذ يلمح تسريحةً تشبه تسريحة شعرها، التسريحة المنسدلة كالموج الهائج على كتفها النحيل، يراها أجمل تسريحة تكون لامرأة. لم يجد أجمل من عينيها، هما عنده نافذتان تضيع معهما تفاصيل الوجه الصغير، سوى أنهما لا يبوحان بأسرارهما لكلّ عابر سبيل، يظلان يخفيان ما عنّ للمخيلة من أسرار. صحيح، وجهها صغير، وجهٌ لا يملأ الكف، يعود لطفلةٍ تداهمه الرغبة مراراً لحملها على ذراعه ومداعبتها كما يداعب طفلةً جميلةً وذكية. وفي أحيانٍ أخرى يجده يشبه وجه أمّه. كذلك وجه أمّه صغير، مثلما جسدها صغير، كان لا يصدق من يراهم معاً أنّ هذا العملاق لهذه البنت الصغيرة. أتُراه واقعاً في (عقدة أوديب)؟، حين يصل إلى هذا الموطئ كان يصرخ في نفسه.. كفى تعقيداً وتفلسفاً، اللعنة على (أوديب) وعلى من أوجده. صحيح أنا غير قادر على تفسير مشاعري تجاهها، لكني أحبها، أنا على يقين من هذا الحب. لأيّ سبب؟، ليس بالضرورة أن تكون للحب أسباب. يكفي أنّ شيئاً في داخلي كان يقودني إليها حتى من قبل أن أراها.. ألا يكفي هذا سبباً. (داروين) اكتشف أصل أنواعه بجزءٍ من الثانية، لكنه قضى عمره يأتي بالبراهين ليثبت ذلك. و(نيوتن) اكتشف قانونه بلمحة بصر اتّسعت فقط لسقوط تفاحته على الأرض.. لماذا لا يكون لي اكتشافي الخاص؟، أنا الآخر كان لي اكتشافي، توصلت إليه بأسرع من ذينك

العبقريين، توصلت إليه بما يعادل ومضة.. لمحة بصر (نيوتن) استغرقت طويلاً لحين سقوط التفاحة على الأرض، وهي كافية لأن تتسع لومضة، إذا الأخيرة أقصر زمنياً. بهذا الزمن القياسي اكتشفت في ذلك المقهى الضريح، وهي تحدثني عن الرجال ورياهم، أني أحبها. بعد الاكتشاف أطلت النظر إلى عينيها، كان يتجمع في عينيها حزن العالم، وما ينتج من فوضى الألوان. يتوثّب على السطح عناد ليس لامرأة مهما بلغ صلفها. منذ ذلك الحين وأنا أجمع الملموسيات البشرية لأثبت لنفسي ذلك الحب.

لكن، القضيّة الأخرى التي شغلته هي تقلّباتها. كان يجدها أحياناً هائجةً حدّ الطيش، غاضبةً حدّ الملل، ساخرةً حد الاستهتار.. وأحياناً أخر تكون هادئةً لا يعكّر صفوها وسكينتها دويّ قنبلة، مسالمة، وديعة، حكيمة، مثل راهبة وهبت ذاتها للإله. لا يدري. ما عرفه عنها قليل، وهذا القليل كان كافياً فقط لإقناعه أنها ليست عاهرة. لكنّه لاحقاً وبعد أشهر، بعد حصوله على المخطوطة، مخطوطة حكيم إيّاها. وهو يقرأ بنهم الكلمات والأسطر، لمح خيطاً، أو ربما خيوط.. قد تقوده إلى عالم أمينة. لم يكن متأكّداً منها، كانت كغيرها من الأحاجي والطلاسم التي استعصت عليه في ذلك العالم، لذا قرر أن يدعها جانباً ليعود إليها لاحقاً.

ليست عاهرة!، هذا ما كان يهمّه من أمرها. ولكي يصنّفها لأجل الفهم أطلق عليها صفة امرأة غير عاديّة. هي غير عاديّة ليس في إصرارها على تحقيق ما تريد وبأقصر السبل فحسب، بل في شفافيّتها، الشفافيّة التي تصل حد الوهم. من خلالها تطلّ على نفسها وعلى البشر. البشر أمامها عراة لا تحجب عوراتهم كلّ الأغطيّة والحجب المتلفّعين بها. قالت مرّة:

- حياة الإنسان قصيرة إلى حد الأكذوبة. لا تستحق منه كل هذا العناء لإثبات ما يناقض هذه الحقيقة،

مَجترِحاً كل وسائل النفاق الاجتماعي.

لذلك كانت قاسية في نظرتها للآخر خصوصاً إذ تمسكه متلبساً بالنفاق. كانت حينها تتكلم عن سامان، وفي إحدى الحالات القليلة التي كانت فيها تستعير لغة المثقفين:

- ما يقتلنا يوميّاً هو هذا النفاق الموروث. لا نعبّر عمّا نريده، بل عمّا لا نريده، حتى غدا الأخير سمة تدمغنا ونتوارثها.

قالت أن سامان تحرّش بها، بل حاول أن يغتصبها. وماذا قال خالد؟، لعلّه كان كذلك في واحدة من حالاته النادرة، لم يغضب من صديقه، بل حاول التبرير لفعلته، برّر فعلة سامان بعقدة الاضطهاد التي أورثتها إياه سنين السجن الطويلة..

- أنت أيضاً توحين أحياناً للآخر بأنك سهلة المنال، بل حتى راغبة، تتكلمين دون حشمة وكأنك تكلمين امرأة مثلك. ردّت عليه بنفور:
- هذه واحدة من حالات التخلّف التي تتلبّسكم أنتم معشر الرجال.. والمشكلة النساء كذلك متورطات بهذا النفاق.. أنا كنت مدرّسة، كنت أدرّس منهج العلوم بكامله وأزيد عليه شروح وتفاصيل، بينما أعرف بقية المدرّسات حين يصلن إلى درس الأعضاء التناسلية للمرأة والرجل، يعبرن الدرس..

ما أحسّه خالد بعد هذا البوح، هو التخفّف. وجد نفسه يتخفّف من لبنةٍ أخرى من لبنات هذه المرأة. هي من فرضت عليه هذا الشكل من المعرفة. لا تتقبّل الأسئلة المباشرة، لم تجب عن أسئلته السابقة. هي من يقرّر البوح. وها هي تخبره أنها كانت مدرّسة. إذا هي ليست راقصة... لا تستعجل يا هذا.. هي قالت كنت.. وكنت فعل ماضي بعيد. بعد شهور وهو يقرأ مخطوطة حكيم وجد فيها ما يشبه ما قالته الآن. كان هذا وغيره هي الخيوط التي قرر البحث فيها لاحقاً. ما كان يشغله في

ذلك الحوار هو كيف يشرح لها البون الشاسع بين تصورات سامان عنها، عن تبعيتها للمخابرات العراقية، وبين حقيقتها، حاول أن يوصل لها أنّ ما فعله سامان كان ثأراً شخصياً، أراد أن يثأر لنفسه مما فعلته معه المخابرات في سجنه.. الولد مسكين.. كانوا يغتصبونه في السجن.. كذلك البون شاسع بين تصوّرات علي الذي ما زالت المرأة عنده كلها عورة يجب سترها وحجبها عن الآخرين، وبين سلوكها الفعلي مع الرجال. لكن ما جدوى كلّ تلك التبريرات التي يبحث عنها لنفسه ولأصدقائه.. تظلّ أمينة هي نفسها لا تغير جلدها، ويظلّ ذلك السؤال الفخ الناغز يشاكسه كلما حاول معرفة موقعه هو في عالمها.

قبل أن تغادر تقول له: «باي خالد.. بعد ما رح تشوفني».

غير أنها تسافر وتعود لتبحث عنه. مرّة قالت له:

- خالد!، ليش ما تشوفلك وحدة زغيرة وحلوة على كدّك؟، البلد مليانة اسكندنافيات، يونانيات، أفريقيات.

غير أنها إذ تمسكه مع واحدة غيرها، تلوي (بوزها)، ولا يسترذها حتى تقتنع أنّ حديثه مع تلك الفتاة كان عابراً. إشارات كثيرة تجعله إذ يسترجعها، كأنّه يتعرّف عليها للمرّة الأولى. كذلك هو يحتاج إلى وقت قد يطول، فقط ليستطيع تكييف أذنه على مفردات قاموسها الأخلاقي. لا توجد في قاموسها ظلالٌ لكل تلك السلسلة الطويلة من مفردات الحياء والخجل، التي أبدعت العربية في استنباطها، مثلما أوجدت للبعير أكثر من ٦٠ اسماً. كثيراً ما يفاجأ بمشاعر الانقباض والخيبة، إذ يجد نفسه ليس نذاً لها. حينها يقرر أن يلغيها من حياته ويعود إلى سكينته السابقة، في كل الأحوال كانت حدود تلك السكينة معروفة له: عمل، أصدقاء، صيد نسائي قابل للتبديل. من أيّ طينةٍ جُبلت هذه المرأة وهي تزعم أنها

جربت كلّ أعمار الرجال.. وما زالت تبحث عن رجلها المنتظر:

- وداعتك من عمره ١٥ سنة حتى الـ٦٠.
- هذا اعترافٌ خطير. ماكو امرأة عندنا تبوح به أمام رجل.
- ليش أنت رجل..؟.

حاول ضربها بعلبة السجائر التي كانت بيده. زاغت منه. وأخذت تضحك تلك الضحكة المضغوطة بحزن وعتبٍ على شيء أو كائن بعيد.

- بس مو نادر أن تمارسه النساء. يجوز يختلف العدد.

سألها معابثاً:

- ليش تتجنين على أمي؟.

سحبت لها سيجارة ونهضت تبحث عن القداحة. في العادة حين يكونان معاً، تتبعثر الأشياء من حولهما، لا يستقرّ شيءٌ في مكانه. كانا عاريين، وكانت راغبة في التدخين دون أن تعثر على القدّاحة. صارت تشتمه بما على لسانها من مفردات الفشار، وهي كثيرةٌ على أية حال. تبحث مشدوهةً وهو يضحك. لم يكن يضحك لغرابة فشارها فحسب، بل لأنه لمح وبالصدفة أن القدّاحة موجودة في باطن حذائه. قال لها متشفياً:

- ما رح تدخنين قبل ما تبوسين قندرتي.

نفد صبرها وأرادت تكسير السيجارة ورميها بوجهه. ما زال هو يتشفّى بها:

- بس هي هاي الحقيقة.. حل مشكلتك موجود بقندرتي.

نظرت إلى حيث حذائه قرب السرير، لمحت القدّاحة. أخذتها. أشعلت سيجارتها ورمتها خلف ظهرها. ستكون مشكلته القادمة البحث عنها. كانت ما تزال مسكونة بذلك الحزن الممتزج مع ضحكها، وهو لم يزل مشدوهاً من اعترافها. سحبت لها نفساً عميقاً من السيجارة وأعادته

سحابة دخان في وجهه. نطقت:

- آني ما أعرف أمك. بس هي امرأة. إذا لم تمارس الشيء، لا يعني أنها لم ترغبه.
- هسه عوفي أمي بحالها وشوفيلي هذا المسكين أبو الـ٦٠ سنة.
- كان شيخ جامع.
- لا يا مكسورة الركبة. هيج رح تدخليني جهنم على الواهس.
- هو الشيخ اللي على إيده تحول زوجي من رعديد، سكّير، إلى وليّ من أولياء الله.

كانت هذه المرة الأولى التي يعرف بها خالد أنّ لها زوجاً. لبنة أخرى سقطت من جدارها. سأل:

- وهسَة هو وين؟.
- الشيخ؟.
- أقصد زوجك.
- خليك هسَة من أزواجي.

تتحدّث عن أزواج، وليس عن زوج واحد. لبنة جديدة هوت..

- ما أذكر بالضبط سبب النزوة اللي تمكنت مني وجعلتني أفكر بالشيخ. يجوز تعففه المبالغ به وتحصّنه ضد الشيطان.. أو يجوز شفت بيه بقايا رجولة. لأنّ زوجي (الله يرحمه) نسى بعد هدايته الفراش والمرأة. ويجوز هو فضول مو أكثر. شفت نفسي أشتهي الشيخ. كنت بعدني زغيرة وخائفة ألا يفهم ما أريده منه حين دعوته ليعلمني الصلاة. بس الحمد لله طلع الشيخ ألعن مما توقعت..

سحبت لها سيجارة أخرى، أشعلتها من الأولى. أخذت تدخن بصمت، وهي مكورة على نفسها في زاوية السرير عند الحائط. والفضول يأكل خالد:

- وبعدين؟.
- شنو وبعدين؟.
- أقصد.. شلون كان الشيخ؟.
- أحسن منك.

تقدّم نحوها. سحب السيجارة من فمها ولثمه بقبلة طويلة أخذتهم من جديد إلى نوبة هياجٍ وصراخ وآهات وجنون حتى همد جسديهما متعرقان بنضيح اللذة. هذه هي أمينة. من السهل وصمها بالعهر، بالابتذال، طالما تتلفع عندنا المفاهيم ما زالت بتلك الازدواجية الأصيلة: عاهرة من تبيع جسدها، من تخون زوجها، من تسعى لردم نداء جسدها المهجور، من تعرف المضاجعة قبل الزواج.. والسلسلة طويلة، الازدواجية ذاتها التي تبيح للرجل كل تلك الممارسات، وتحصنه في ذات الوقت ضد صفة العهر. يظلّ العهر واحداً من المفاهيم التي ما زالت تتنفس خاضعة لقانون وحيد هو قانون العشيرة وأعرافها.

وهو خالد، ما زال يحبّها. بل يسيّره شعورٌ مبهم يقنعه أنه مسؤولٌ عنها. يجد نفسه مدفوعاً لتبني كل ما تتفوه به. حتى في أحلامه وجد نفسه مدافعاً عنها.. كان حلماً مركباً ذلك الذي حلمه في إحدى ليالي غيابها، ظلّ يدافع فيه عنها حد الإغماء.. لم يكن حلماً، بل سلسلة أحلام تداخلت وتبادلت الإيهام، تقاذفته فيما بينها، وكان هو يدرك أنه يحلم.. وجد نفسه معها في أرضٍ قاحلة ضجراً من شيء، وكانت هي تهدهده مثل طفلٍ لا يعرف أنه فقد أمه للتو في الرمال، فجأة وجد نفسه ينتقل إلى الطرف الآخر، كأنّه الطرف الآخر من الكون.. دخل في فوضى جنود يرتدون الملابس المرقّطة، كانوا يتناهشونها مثل فريسة هبطت عليهم من السماء، وكان هو يركض من ذلك الطرف البعيد، يراها تتمايل بينهم كأنها سكرى، سيقانه تتطوى تحته، خذلته سيقانه، كيف له أن يعبر إلى الطرف الآخر من الكون دون سيقان. لكنه رآها، رآها قبل أن تختفي بينهم. صار فيما بعد، في حلمه الثاني أو

الثالث، يستطيع تمييز وجوههم، كانت قاسية متعجرفة مرقّطة مثل ملابسهم، كان يزحف، ويتمتم مع نفسه بما يشبه تعويذة.. إنه حلم، لا خوف من حلم.. حتى وجد نفسه هو الآخر بينهم، وسط الجموع المرقطة، ضربه أحدهم، ترنّح وسقط.. كانوا يدورون حوله وتتقاذفه اللكمات والركلات حتى أغمي عليه. وهناك في غيبوبته وجدها، صار يتفقد جسدها، كما يتفقد جسده.. كلّ شيءٍ في مكانه، لا تقلقي كان حلماً وانتهى الآن. كانت هي خائفة. سحبته من يده إلى طابور من الرجال لعلّ هذا كان في حلمٍ آخر. كانوا واقفين كأنهم أصدقاء، قالت له بعد أن تملتهم واحداً واحداً: خلّيني أعرّفك على أزواجي.. هذا هو الأول أبو كذلة أحببته قبل أن يتحوّل إلى سمسار، وهذا الثاني؛ ضابط أرعن.. وهذا الثالث المؤمن المهتدي.. الرابع.. توقفت عند الرابع طويلاً وظلت تمسّد وجهه ورأسه بحنان وهي تتمتم فيه.. ثم التفتت إلى خالد.. تعرف خالد.. هذا يجمع في داخله أقبح نقيضين.. مخنث وشرس.. تصور.. لم يستطع تفسير مشاعرها تجاه ذلك المخنث والشرس، أهي ضغينة أم حب. نهض من كوابيسه يتصبب عرقاً، شاعراً بالعطش وهو يردد مع نفسه «يا إلهي كيف لي أن أملك قوة الإلغاء».

الصراخ. نستنجد بهذا الصوت القديم قدم الكائنات لئلا يطوينا النسيان. هو صوت، لغة، دلالة، احتجاج، أمل وهو الحد الفاصل بين الحضور والتلاشي. هو صوت خالد زوال الممزّق بين لغة علوية تتلاشى عند تخومها حميمية الأشياء وحرارتها، ولهجات تلوكها الألسن كما تدور كِسَرٌ من الخبز اليابس، لا تسمع غير صرير دال عليها. أين يجد بديلاً عن لهجته، لغته التي لا يفهمون منها غير ذلك الصوت الدال على كائن يتكلم. كذلك أين يجدون هم بدائل عن لهجاتهم، لغاتهم؟.

أصوات وزخارف هيروغليفية في هجين مشوّه اعتاده البشر وغدا لغة، يمارس بها الناس حياتهم دون قواعد ونحو. أتكون لغة الضّاد الباحثة عن ضادها في لهجات الشعوب القائلة والموسومة بها بديلاً؟، حين طغت لغة الضّاد، كان شعبها المنتصر الأقوى. تماهت لغات الآخرين تحت خيمتها، هضم القادمون الجدد كل الحروف إلا الضاد، ظل ذلك الحرف المشاكس معانداً الترويض، يدورون زواياه الحادة دون ما جدوى. والآن؟، لا شيء الآن. لقد تآكلت تلك الإمبراطورية العتيدة (امبراطورية الضاد)، تآكلت من ترهلها وانشغال ولاتها بفتوحات من نوع مختلف، تحولت ميادينها من ساحات القتال إلى فروج الجواري ومؤخرات الغلمان. صاروا يتنابزون بعدد الجواري والغلمان، من يملك أكثر هو الأقوى. لكن قانون البقاء لم يزل هو الساري: لغة الأقوى هي الأبقى. وإلا ما سر هذا اللهاث وراء لغات الغرب..؟.

كان في معزله في مؤخّرة السفينة. ما إن ينتهي عمله النهاريّ الذي غدا رتيباً بعد أن أبحرت السفينة في عرض البحر، حتى يتوجّه إلى معزله هذا. حتى أنه ينسى موعد وجبة العشاء لولا تذكير الآخرين له. كان مُحتصراً بحزنٍ خانق، حزنٍ لا تتسع له كلّ المفردات المتداولة على ظهر هذه السفينة. لا تتسع له غير لغته، لهجته، وصدر أمه. في حضرة الأم تذاب المفردات وتختزل إلى حركة وحيدة، تستجيب لها الأمّ الباحثة عن قطعة جسدها الهاربة منها، ويستجيب لها الابن الهارب إلى ضياعه، كلاهما يستجيبان بالبداهة، يضع رأسه في حضنها، تمرر هي أصابعها على رأسه،

بهذه الحركة تمسح من رأسه كل فضلات المدن والوجوه والرطانات، تنظفه من هموم النوايا ومشاريعها، من الحيرة القادمة مع مفارق الطرق ومساراتها الغامضة، من أرداف النساء وشعور عاناتهن، كلّ هذا سيختفي مع حركة الأصابع، وحركة أصابع الأم على شعر ابنها لغة، لا تقال ولا تهمس حتى، بل هي تسري من الخلايا إلى الخلايا، الخلايا تتذكر بعضها، لها ذاكرة التكوين الأول. لغةٌ تسري مع ضوع عطر الأم، تتمثلها مجسّات الرأس المتعب. وعطر الأم كذلك لغة. أمه لا تستخدم عطراً غير المسك، جسدها مضمّخ بما يكفي من عطور الأضرحة المقدّسة والأعياد. سيغسله عطرها، ويلبسه ثوب العيد الجديد، يعود يمرح مع الأطفال، كائناً جديداً، كائناً قد تكون توّاً. يا لهذا النأي.. يا لهذه القسوة.. لا مفر من الغناء. هو صراخٌ كذلك، إنما أحدّ ما سيؤدّيه بدلاً عنك.

قبل لجوئه إلى معزله مرّ على غرفة المغربيّ محمد وطلب مسجّلته. فاجأه محمد:

- أراك غير مهتمٍّ بالغناء. ما حاجتك للمسجلة؟.

زعم له:

- بل أهيم بالغناء. سوى أني لا أجده.

أخرج له من خزانته فوضى أشرطة، مقترحاً عليه أن يسمع ويختار. طلب منه أن يعيد أشرطته إلى مكانها، لأنّ عنده ما يكفي. ثم أردف محاولاً التهرّب من الشبهة التي قالها محمد:

- مشكلتي يا محمد أنّ الغناء عندي لم يزل كلمات.
- يا أخي الغناء ليس كلمات فقط، هو لحنٌ جميل كذلك. أنا لا أفهم الإسبانية كفاية مثلا، لكني أحب سماع (خوليو).
- مع (خوليو) لك الحق. أنا الآخر أجد عنده ما يجذبني. لكن مع الآخرين أحتاج إلى مران، لأجعل أذني تستسيغهم.
- لكن اللحن الجميل تميزه الإذن من الوهلة الأولى.
- اللحن كسائر اللغات، له أبجدية، والمران الذي قصدته

هو أن تتهجى تلك الأبجدية، ثم تسقطها على المعاني التي ترغب.

- أختلف معك في هذا. الناس حين يستمعون إلى الموسيقى يفهمون ما أراده الملحن وليس المستمع، وإلا من السهل عليك أن تعتبر موسيقى الأعراس مثلاً على أنها موسيقى مآتم، فقط لأنك تكون حزيناً في ذلك الوقت وأنت تستمع.
- لا أدري كيف أوضّح فكرتي، لأنها ما زالت غير مكتملة. لكني أفهم أن لغة الموسيقى تعتمد على الإيحاء وليس على الإفصاح.. ومن هنا منبع الاختلاف بين اثنين يستمعان إلى ذات اللحن، غير أن كلاً منهما يستسيغه لسبب مختلف.
- الملحّن يأخذك إلى عالمه هو، لا يأتي معك إلى عالمك. إنما الذي يحصل هو أن أحوالكما قد تتشابه في تلك اللحظات..
- أما أنا فأعلن استسلامي.. وحاجتي إلى مسجلتك. ليس عبثاً أن تكون عندك كل أغاني العالم.

جلس على قاعدة لف الحبال، تلك التي تشبه كرسياً. أركن المسجّلة على حافتها الثانية، وأطلق العنان لصوت مطربه الجنوبي، ينوح بلوعته وحنينه.. «أما آن لهذا الحنين أن ينكفئ، أن يبحث له عن صدَفةٍ يتكوّر داخلها ويتركني وشأني؟، كلّ هذه المخلوقات التي معي تعمل وتحلم. ما بالي معلّقٌ بين هذا وذاك..؟، كلُّ الجسور موصلةٌ إلا المعلق». عاد إلى جسره المعلّق. إلى ذلك العالم الثلاثي، الذي تقاسمت أضلاعه عرافةٌ وشاعرةٌ ومقاولٌ صغير. واضح هو صدَق الكذبة. هم يكذبون وهو يصدق، هكذا بسهولة تنطلي عليه أكاذيبهم وتخريفاتهم. ليس هذا فقط، بل يساعدهم على أن يكونها. أطلقوا بوجهه نبوءاتهم وذهب كلٌّ إلى شأنه. في كل الأحوال ومهما كان شأن الواحد منهم، فهو له شأنٌ يسعى إليه ويحاول تحقيقه.. الشاعرة ستنشر ديوانها الآخر..

وستكون سعيدة، مزهوةً بحصيلتها الأدبية، ألا يكفي أنها امرأة وتكتب في هذا العالم الذكوري؟، والعزافة البدويّة ستعود إلى عائلتها مزهوةً بحصيلتها من الدراهم التي جمعتها من أشباه خالد زوال إن كانوا مصدقين نبوءاتها، أو هم كان يحاولون فقط الدخول إلى جسدها المكتنز بأسراره. وصفوان سيتحوّل سريعاً إلى مقاول حقيقي. لقد نظف دربه جيداً، أزاح منه كل تلك الحصى الصغيرة والأحجار الكبيرة التي ستعترض درب المقاول. ما كان يدور في رأسه واضح، سهل، ولسانه يلهج بتلك الأحجية العجيبة التي حوّلت رعاة إبلٍ وماعز إلى مقاولين لا يُشقُّ لهم غبار، لم يكن تحولهم متدرجاً، بل قافزاً، قفزوا قفزتهم وتربّعوا على عرش المقاولات والأعمال، في بلدٍ يكاد ينفجر بما فيه من نقودٍ وخططٍ انفجارية. لماذا سيفشل هو؟، لن يفشل. الهدف يكاد يكون ملموساً، والمسارات في رأسه واضحة. لم ينتظرهم أن يسحلوه في الشارع، ثم يجلسونه في الأقبية الظلماء على قنينة مهشمة الفوهة، ليقتنع أخيراً أن لا مفرّ من التوقيع على تلك الورقة التافهة (ورقة البراءة من حزبه).. ذهب بقدميه إلى مقر المنظّمة الحزبية ووقّعها. نقطة. بداية سطر جديد. وكان السطر التالي هو مروره على المقهى الذي يكاد يستوطن به خالد زوال، هذا الذي كان منشغلاً حينها في جدلٍ حامٍ مع أحدهم حول صرعة البنيوية في النقد الأدبي:

- اترك كل شيء وتعال معي. لا تسألني أيّ سؤال!.

في حالات مشابهة كان يكتفي خالد زوال بـ(روح دوّر غيري) وفي ذهنه أنّ صفوان يبحث عن نديم خمرة. أما الآن فأن الأمر مختلف. كان وجه صفوان وهو واقف قبالته، متحوّلاً من حنطي إلى أسود، عيناه لم ترفّا وهو يكاد يبحلق في عيون خالد، ارتجاف فكه السفلي.. بقاؤه واقفاً لا يروم الجلوس.. وذلك الإلحاف في نبرته.. كل هذه الأشياء أفصحت أن الذي أمامه الآن كائن آخر لا يعرفه، كائن جديد ودّع للتو توأمه، شبيهه الذي كانه.

قطع خالد زوال حديثه مع صاحبه على وعد معاودة النقاش. نهض دون حواشي كلامية، كما أمر صفوان وصار يتبعه. لوح هذا إلى سيارة تاكسي كانت في عرض الشارع المستقيم، أخبر سائقها أنهم يرومون الذهاب إلى (الثورة). لم يجب السائق، فقط غير العداد. ركبا السيارة وظلا صامتين طيلة الطريق إلى بيت صفوان. فيما مضى، قبل هذه اللحظة، كانت اللغة بينهما سهلة ومتاحة، حتى الصمت كان لغةً يفهمانها ويتبادلان مفرداتها. ما يفصل بينهما الآن هو فراغ الصمت فقط، لا لغته. جالسين على المقعد الخلفي من السيارة متجاورين، إنما لا أحد منهما يريد العبور إلى الآخر. وصلت السيارة. نزل صفوان بعد أن أعطى السائق ديناراً كاملاً. لم ينتظر استرجاع الباقي، مع أنّ الأجرة كانت أقل من نصف هذا المبلغ. تبعه خالد زوال. دخل بيته. كانت أمُّ صفوان تستظلُّ شجرة النارنج جالسةً على بساطٍ ملونٍ في فناء الحوش تنقي الرز على صينية فافون. دخلا دون تحية، وفقط بعد أن تجاوزا المرأة، تذكّر خالد أنه لم يسلم عليها، توقف، ثم نكص عائداً إلى حيث تجلس، وكأنه قد قرر الخروج من الدور الذي كان عليه تمثيله إلى الأخير. وجد نفسه محتصراً بضحكةٍ مجلجلة تبحث لها عن منفذ. أطلق لها العنان. جلس لصق المرأة وهو ما زال يضحك، احتضن رأسها وقبله على عادته في كلّ زياراته لهم. لم يقل كلمةً واحدة. المرأة كانت في سكينة البحث عن شوارد حبات الدنان، لكنها منذهلة الآن، فاتحةً عيونها وفمها، تريد أن تفهم ما الذي يحدث. هذا منهمك ما زال في ضحكه المجنون، وذاك مر من أمامها مسرعاً كأنه خارجٌ من شجار. سألت:

- هاي شبيكم؟.
- اسألي ابنك.

وصله صوت صفوان من غرفته في ركن الحوش البعيد، منادياً عليه أن يأتي. فرغ فمه من بقايا الضحكة الطويلة. ربت على كتف المرأة مطمئناً:

- هسّة راح أعرف شنو القضية.

دخل غرفة صفوان. كان هذا واقفاً أمام مكتبته. خالد في العادة يكرر على مسامع صفوان، أنّ عنده مكتبة أبحاث لا تنسجم مع عقلية نجار قالب. كان صفوان يشتري كل كتاب جديد ما إن ينزل إلى السوق. بينما خالد يحصل على كتبه من هذا وذاك بطريقة الإعارة التي تشبه الدين الميت. هذه المجلدات والعناوين مكدّسة على بعضها بعشوائية يعلوها الغبار. صفوان ينظر الآن إلى كتبه نظرة جديدة، لا تشي بالافتخار بل بالعداء:

- خالد.. تقدر تأخذ من الكتب ما تريده. لأني سأحرق الباقي.
- تحرق؟!.

لم يجبه. اكتفى بهز رأسه من الأعلى إلى الأسفل. استمرّ يهزّ رأسه وكأن السؤال كان مجموعة أسئلة. يعرف خالد أن في البلد حملة جارية على قدم وساق تستهدف الشيوعيين، وعادة ما تكون كتبهم هي أدلة الاتهام الجاهزة. بدأوها بإعدام لاعب كرة قدم مشهور مع ٣١ عسكري، ثم عمموها على كل الحزب. قضوا أطرافه أولاً، قضوا على تنظيمات المحافظات الجنوبية، صعوداً إلى المركز. تحدوا الحزب الحاكم رغبة ملحاحة بإنهاء الحزب الشيوعي خلال بضعة أشهر. لينفرد بالبلد بلا مماحكات معارضة واعتراض. هو الآخر أراد تنظيف دربه. كنس من أمامه كل العوائق، قضى على انتفاضة (خان النص) الشيعية، مشتتاً تلك الجماعات الداعية إلى جمهورية إسلامية شيعية، وبعثر قبلهم فصائل حركة التمرد الكوردية بين منافي الخارج والداخل في تلك التضاريس النائية ووصل أخيراً إلى الشيوعيين..

كل هذا كان يدور في رأس خالد زوال وهو يطالع كتب صفوان.. شعر بالحيرة والتشتت والاندهاش من هذا اللاموقف الذي يتلبّسه.. إلى متى يظل طافياً مثل قشة على زبد الأمواج، لا يريد الابتعاد ولا الغوص.. من هذا الذي سيفهمه.. هل هناك من سيفهم الحالة العجيبة

التي تتلبسه والتي يطلق عليها حالة التناسخ.. الحالة التي جعلته طيلة الوقت طافياً تتقاذفه النظريات، الأفكار، الرؤى، المشاريع، الأحزاب.. كل هؤلاء وغيرهم يتناوبون حالة التوطن في روحه وعقله لكنهم كذلك يتناوبون التلاشي. لا قدرة له على مقاومة إغراء التناسخ، لا قدرة على التجاهل والنسيان، لا قدرة على فهم لعبة الأبيض والأسود. الجميع يمارس اللعبة إياها بحذيها الواضحين - من ليس معنا يكون ضدنا - وهو خالد زوال لا يريد أن يكون مع أحد ولا ضده. من هذا الذي سيفهمه؟، عاد إلى صديقه القديم:

- صفوان!، أنا لا أرغب التدخل في خياراتك. لكن لماذا تحرق كتبك؟.
- أريد أشوف دربي.

شاف صفوان دربه، وظلّت كتبه تغبّش مسارات خالد زوال. هذا الممنوع من الصرف والتداول حسب صفوان، مثل عملة قديمة أكل عليها الدهر وشرب، أو كما يحب هو أن يصف نفسه: عملة جديدة لم يتعرّف عليها أحد بعد.

كما تراني يا (كريم) يا ابن (كطافة)، أتحدّث عن أناي من علوّ. علوُّ ما بعد الموت. وجدت الموت فسحة رحبة ورحيمة، وفرت لي هذه المراجعة للذات وللآخر. مراجعة حيادية حد الكذب. حيادية كنت أفتقدها في عالمكم. لأني أدنت صفوان حينها، حسبته جباناً خذل رفاقه في أول مواجهة. الكثير من رفاقه قد سيقوا إلى غياهب لا أحد يعلم إليها منفذاً، ومن يدري لعلهم قد أعدموا جميعاً. كانوا أمام حد السيف (من ليس معنا فهو ضدنا) من لا يتبرأ من حزبه بذلك التعهد الخطي اللعين، هو ضد الحزب والثورة. ليس أمامه سوى الموت. غدا الموت خيار من قاوم الهجمة.. خيار روّاد مقاهي الأدباء والمثقفين في شارع الرشيد، فنران المكتبات في شارع المتنبي، رواد مطاعم الفلافل المصرية واللبنانية نهاراً وبارات شارع أبي نوّاس ليلاً، خيار أولئك العمال الذين ما

فتئوا يحنون إلى نقاباتٍ كانت يوماً لهم.. كانوا شباناً جميلين، ممتلئين بتلك القناعة العجيبة؛ لقد صدقوا أنهم قادرون على تغيير العالم.. صدقّوا أنّ عالمهم المعوج القبيح لا يتغير بدبابة بل بكتاب.. وها هو صفوان يتخلى عن سلاحه الوحيد الذي كان به سيغير العالم.. أنا الآن لا أكره حتى من قتلوني، من عذبوني قبل القتل، أولئك الرجال القساة الممعنون في التجاهل، حتى لأولئك وجدت الأعذار والمبررات التي جعلتهم لا يستطيعون فعل إلا ما فعلوه.. لهذا أنا لا أحب الدخول في معمعة الـ(لو) والـ(لولات)، ما حدث قد حدث، وكان يجب أن يحدث بعد أن توافرت كل عوامل حدوثه.

***

ما كان يميز خالد زوال عن أشباهه، أنه الوحيد الذي لم يكن يدري شيئاً عن بواعث أفعاله وخياراته. كانت أفعاله وخياراته كأنها تخلق نفسها بنفسها. فجأة يجد نفسه متلبساً بموقف أو خيار وما عليه سوى مواصلته. وكانت مخالطته للمعارضين ومن كل التلاوين، سبباً لمطاردته لاحقاً، رغم أن الرجال الأمنيين المكلفين به، كانوا في حيرة من أمرهم.. لا يدرون على أيّ خانة يحسبونه. وهو لا يريد إلا أن يكون نفسه. عالماً قائماً بذاته ولذاته. يتشرب أفكار الآخرين دون أن يمتزج بها. كان هو الشخص المرغوب به والمنبوذ في عوالم متصارعة فيما بينها، كلٌّ يحاول جذبه إلى طرفه، وهو يبتعد، ينأى كلما اشتد الجذب. ثمّة إحساس مبهم يحذره من التفريط بحريته، يدعوه لممارسة حريته في أقصى مدياتها، دون كوابح، موانع، محرّمات من أيّ صنفٍ كانت. وهذا لم يكن مفهوماً للجميع.

ربما لم يكن الأمر صدفةً كذلك، أنّ أغلب أصدقائه تقع انتماءاتهم على الحافات، شيوعيّون خارج حزبهم، إسلاميّون علمانيون، بعثيون كارهون للبعث، أكراد مستعربون وخليط من الجنود.. هذا محمد ذياب فنان، رسّام، فعل الرسم يسري في دمه، الوجود في عينيه

لوحاتٌ تستفزّ المخيلة.. ما عليه سوى تلبية ندائها. هو من تنبأ له مدرس الرسم في الصف الثالث المتوسط:

- هذا الطالب سيكون له شأنٌ في الفن.

وكان له ذلك الشأن. لقد اختاره المركز الثقافي الفرنسي، الذي استضاف أحد معارضه، من بين المئات من المتقدمين لمنحة دراسية في (باريس). كان بعمرٍ دون الثامنة عشر، درس الفن على أصوله، لكن، دون أن يبارحه هاجس (فنّان مسلم). كانت له معارض خرجت عن مألوف الحركة الفنّية هناك. مدّدوا له المنحة لدراسة أعلى، لكنه ترك (باريس) وحركتها الفنية وعاد إلى البلد ليُعتَقل ويُعدم لاحقاً لاشتراكه في انتفاضة (خان النص) الشيعية.

محمد ذياب لا يصف خالداً إلا بـ(الشيوعي التائه).

وكان يجيبه بذات التورية:

- مثلما أراك (مسلم تائه).
- مسلم تائه.. مسلم تائه.

ظلّ محمد ذياب يردد عبارة خالد زوال بصوت مهموس مع نفسه، كأنما العبارة ذكرته بشيء كان يبحث عنه. ثم سأل:

- تقصد لأنّي فنان؟.
- أنت خالق. أنت تجعل الكائنات في لوحتك تنطق، لها روح. دينك حرّم كل فعل يتشبه بالخالق.
- ما حرّم هذا ليس الدين، بل بعض الفقهاء.. البعض وليس الكل.

مع توقّف مطربه الجنوبي النائح بغضب عن النوح، توقفت كذلك تداعياته البعيدة. عاد إلى السفينة، إلى حيث يجلس على تلك القطعة المعدنية الباردة. أخرج شريط المسجلة وأداره على الوجه الآخر، وكان الوجه الآخر نواحاً كذلك، إنما هو غير متمرد، نواح مستسلم لتقلبات ومزاج المعشوق، موغل في استلابه وخيبة أمله،

لكنه راضٍ بقدره، نصيبه، حظه. عاد معه يتفكر في أمر الناس الذين يقاسمهم السفينة، أو كما ينعتها هو بالتابوت العائم. الجميع هنا يحلمون، لكنهم يعملون، يحاولون أن يجمعوا لهم من هذا التابوت العائم ما يرجعون به إلى بلدهم، محققين ما سافروا وتغربوا من أجله. العمل على السفينة فرصة لجمع ثروة صغيرة، تتجمع الرواتب دون أن تمسها، تستطيع أن لا تمسها. ضروریاتك اليومية تحصل عليها داخل السفينة وبالمجان، وحسب العقد سيكون لديك كل سنة ما يقارب ٥٠٠٠ دولار مع أجور الأعمال الإضافية وتعويضات أخرى. كلها سنتان، أو ثلاث، تعود مع حصيلتك بتلك النشوة الأخاذة، نشوة العائد إلى وطنه، المحقق أحلامه، ليبدأ حياته الجديدة، بمشروع صغير، يكبر، ثم يكبر، تتشعب المشاريع وتتوطد الركائز. ثم تؤجِد لك أسرة صغيرة، هي الأخرى تكبر بالأبناء والبنات. لتغدو شخصاً ذا شأنٍ في المجتمع. أهدافك واضحة غير مشوّشة، مساراتك ستختارها أنت، لا شيء يشوّش الصورة، طالما الأمرُ متعلقٌ بك شخصياً. تستطيع أن تتحمل كل أنواع الأخطاء، وأقسى ما تتوقعه هو أن تبدأ من جديد.. طيب، لتبدأ من جديد، كلُّ شيء مفتوحٌ أمامك، أنت في البدايات والعالم من حولك متنوع وزاهي..

هؤلاء هم.. هاجسهم قريب. يكاد الواحد منهم أن يلمسه، أن يتحسس وجوده كل يوم.. ولو طغى عليه الحنين يوماً، وغض بالشوكة اللعينة التي تخنقني، ببساطة سيحزم حقائبه إلى الوطن، الملجأ الأخير، الأمان الدائم، حيث الدفء وحميمية علاقات القربى.. سيجد من يمدّ له يداً يستند إليها لينهض من جديد، هم أهله. أما أنا فهاجسي بعيد.. بعيد لا أكاد أن ألمحه. إن تمادت معي هذه الشوكة اللعينة وعابثتني طويلاً، ليس أمامي غير أن أضرب رأسي بأقرب جدار، أو أن أحطم أقرب شيء في متناول يدي. لا أحلم بالرجوع إلى بلدي، إلا إذا تساوت في عيني الأقدار على كفتي الميزان.. موتي هنا أو موتي هناك.. عندها، وعندها فقط سأفكّر بالعودة إلى

الوطن.. أن أموت في بلدي، بلدي المزروع بكل أشكال الموت.. يا إلهي، ألا تبدو بغيضةً هذه المعادلة.. طرفاها موت..!، تمرّدت وهربت من الموت هناك وظلّ هو القاسم المشترك الذي يجمعني بوطني.. لقد سئمت سبات واستسلام ناسه.. هربت منه ومنهم.. رفضت الموت في لعبة حظٍّ يحزك خيوطها غيري. هربت لأنّ الموت هناك غدا وليمة يومية فقدت رونقها وهيبتها. موتٌ على الجبهات، موت في جحور ومقرّات الأمن، موت في حوادث دهس مُدبّرة..

كلّ شيء جرى ويجري وفق آخر صيحات تكنولوجيا العذاب، حتى تختلط عليك الأشياء.. لا تدري مَنْ يدرّب مَنْ.. هل يأتي خبراء العالم السادي ليدربوا كوادر البلد على آخر صرعات الغرب المتحضر في التعذيب.. أم هم ببساطة يأتوننا ليتدربوا على أيدي كوادرنا. نعم، كوادرنا يمتلكون مخيلة فوق بشرية، لا تعبأ بكلّ مدارس ومناهج التعذيب.. تعمل على السليقة وبالفطرة السادية.. تجيد وتبتكر وتطور بأصالةٍ مستوحاة من روح الأمة، أمة الخازوق وقطع الرؤوس وسمل العيون والدفن في جلد حمار ومن ثم حرقه، هذا ما سنقدمه إلى متحف الإنسانية.

لا أريد الموت. لقد رأيته، شممت رائحته، لامسته وهو يزحف على الكائنات، يجتثها بحديده وانفجاراته. رأيته كيف يمسح الحياة من على وجه الأرض، ليحيلها إلى حفر، ملاجئ، قبور.. في النهاية كلها قبور.. رأيت الموت حين كنت وحيداً بين الركام أنوس بالحياة، كنت قابضاً على حياتي بيدي، تكورت عليها بعد أن كادت تفلت مني مع تلك القذيفة التي تطاير معها المقذم (ذيب). كنت قبل ارتطام القذيفة معه في الملجأ.. كان يكلمني، يسألني.. وكنت أحب ذلك الـ(ذيب)، غير المكترث لتلك التراتبية السخيفة بين الضابط والجندي. يستبقيني عنده حين أجلب له البريد.. لا يتركني واقفاً على عادة الضباط مع جنودهم، يجلسني حيث يجلس، يقدم لي الشاي بنفسه.

يحدّثني كصديق، يبوح لي أحياناً بهمومِ شخصية والتباسات تؤرقه هو الفلسطيني التائه.. يسألني ولا ينتظر مني أن أجيبه، هو يسأل وهو من يجيب، كأنه يحاول اختبار قناعاته التي يقذفها بوجهي محاولاً جري للبوح كذلك. لم أخفه، فقط لم أكن قادراً على حرف اتجاه رؤيته من (عبادان) إلى (القدس)، يبدو كان مصدقاً أن طريق الوصول إلى مدينته (القدس) المغتصبة هناك في الغرب، يمر عبر هذه المدينة (عبادان) الرابضة شرقاً. وإذ يصطدم بصمتي المتغابي، يخرج لي صوره العائلية.. سيدة جميلة مع بنتين. اسأله:

- أين هم الآن؟.

يجيبني بتهويمةٍ من يده في الفراغ. هو الآخر لا يدري إن كانوا ما زالوا في لبنان، أم وصلوا إلى سورية.. انقطعت رسائل الزوجة منذ زمن انقطاع البريد بين البلدين. لقد نبشوا ظهر ملجئنا بأطنانٍ من الحديد والبارود.. اختلطت رائحة الموت بصرخة مقدم (ذيب) الذي خرج من الملجأ لجلب الماء من الجلكان الكائن غير بعيد عن الباب. اختنقت صرختي في تجاويف الملجأ بعد أن سقط على رأسي أحد أعمدة السقف. في تلك الثواني الفاجعة، ومع تناثر أشلاء مقدم (ذيب) لم تتساو حياتي مع موتي.. لقد اخترت حياتي وهربت.. هربت من الملجأ المدمر أجرجر رعبي ودماء جرحي خيطاً يتبعني ويعلّم سيري.. وصلت إلى ملجأي الكائن في المرابض الخلفية، ملجأ قلم الفوج. أخذت نسخاً كثيرة من نماذج إجازات الجنود الفارغة وأخفيتها في جيبي. كان جرحي خفيفاً. لم يأخذ من المضمّد سوى دقائق ليعصب رأسي ويقرر عدم حاجتي للإخلاء إلى الوحدات الخلفية. عزمت على الهروب. الهروب الذي غدا وشمي وملمحي الفارق.. لم أزل هارباً من الموت. ومن هذه التابوت العائم سأهرب كذلك.

من ذلك الشتات القادم مع تداعياته المصحوبة بنواح مطربه الجنوبي المستسلم والراضي بقدره، كان يحاول

ترسيخ فكرة هروبه الجديد من هذه السفينة التي لا يراها غير ربيئة أو ساتر أمامي من سواتر الجبهات التي هرب منها هناك. نعم سأستقز في تونس.

- ماذا تفعل هنا يا صاحبي؟.

قطع تداعياته ليس بسبب صوت محمد المغربي الذي كان على ما يبدو يبحث عنه، بل لأنه اقتنع تماماً بفكرة النزول في تونس. أجابه:

- كما ترى يا صاحبي أستمع إلى الغناء الذي تتهمني بأني لا أحبه.
- أقصد لماذا هذا المكان دون غيره.
- لا شيء. أجد راحتي في هذا المكان.
- تكون تعودت على البحر..؟.
- لا أظن أني سأتعود عليه.
- ستتعود يا صاحبي. هذا هو البحر يصدم في الأول.. في الأول بس.
- وأنت.. هل تعوّدت عليه؟.
- أنا أحنّ إليه لو تركته مدة طويلة.
- يا أخي إلى أيّ شيءٍ تحن.. إلى هذا التابوت؟.
- أحنّ إلى البحر. البحر يوفر الصفاء وينظم لك أفكارك.. يطلعك كلّ يومٍ على حياة جديدة، تجربة جديدة.. ثم هو مصدر رزق.
- هذه السفينة لا تختلف عن ربيئة.
- أيش هي الربيعة؟.
- ربيئة وليست ربيعة. موقع عسكري لمجموعة قليلة من الجنود تكون دائماً في عزلة وبعيدة، وتتعرّض لكل المخاطر التي يتوقعها أو لا يتوقعها الجندي. لقد عشت كثيراً في الربايا، ولا أجد سفينتنا هذه تختلف عن أي ربيئة.

- هذا لأنك ما زلت تعيش هناك..

صار يلوّح بإصبعه السبابة في الهواء إلى اتجاه بعيد..

- أنسى يا صاحبي هناك. فكر أنّك هنا.
- وهل نسيت ما حصل قبل أيّام؟.
- ذلك لم يكن شيئاً أمام ما رأيته من قبل.
- أرأيت أخطر من ذلك؟.
- رأيت كيف تحطّم مركبنا. كنت أعمل على مركب صيد مغربي، كان عمري سبع عشرة سنة، ظللت طافياً ببدلة النجاة ليلة بكاملها، حتى انتشلتني مع الآخرين سفينة إنقاذ..
- ورجعت إلى البحر؟.
- وماذا سأفعل إذا تركت البحر؟.
- هل خلت اليابسة من عمل؟.
- اليابسة عندنا يا أخي يابسة. الوضع عندكم مختلف. عندكم بترول.
- الله يلعن البترول واليوم اللي اكتشفوا فيه البترول. كم مضى على وجودك هنا؟.
- بعد شهر سأكمل سنتين.
- وكم تجمّع عندك من رصيد؟.
- لم يصل بعد إلى الرقم الذي أريده.
- الله يلعن أرقامك يا محمد، أنا لا أصدق متى نصل إلى تونس، لأهرب من هذه الربيئة.
- لهذا أنا جئتك الآن. عرفت أنك تريد النزول في تونس. أقول لك يا صاحبي: انس. لا تفكر في تونس. والأحسن تسأل عبدو قبل أن تفعلها. سأذهب أنا ألاعب حسن النرد.. أيش تسمونه أنتم.. طاوله.. طولة.. تذكرت تسمونه طاولي. صحيح؟.

تركه وذهب ومن أسفل الدرج وصله صوته:

- لا تنسَ موعد العشاء.

اللّيلة القمريّة السادسة: الغياب الأخير

(روتردام) تسبح في تدرجات الرمادي، حتى ليلها رمادي. ثلاث ليال مرت على إطلالة القمر في هذه المدينة الرمادية. والقمر إذ يعجز عن إضفاء بهائه على الأشياء، يتحول إلى شيء نافل، يمكن الاستغناء عنه واستبداله بأتفه اختراع من اختراعات المدنية.

ما دام ابن زوال محتجباً عني بليلته القمرية السادسة، لأتسلى أنا باستعادة أشيائي اليومية بدل بحلقتي في بياض الورق بلا طائل. اليوم كان زملائي في العمل داخلين وهم يحتسون استراحتهم النصفية مع أكواب القهوة، في معمعة معاني الأسماء. تبين لنا؛ أنّ أسماءً كثيرةً هنا بلا معنى، أحدهم قال أن اسمي أتى بالشكل التالي: بعد جلسات فاشلة بين أمي وأبي لاختيار اسمٍ لي، كلٌّ يرفض اقتراح الآخر، اهتدوا أخيراً إلى طريقة عادلة، وهي تفكيك حروف اسميهما وخلطها في كيس صغير، ثم بدأوا بإخراج الحروف واحداً بعد الآخر وقسّموها على اثنين ليخرجوا باسمي. هكذا إذن ليس بالضرورة أن تكون للأسماء معان. تذكرت ساعتها تلك (البدور اللّواتي)، بدور ابن زوال التي تقود بلده، ومكانة القمر في حياة الناس، هو منهل الأسماء، مقياس الأمزجة، معادل الجمال.. وهو أخيراً فسحة البوح التي اختارها ابن زوال، هذا المنشد ما زال إلى لياليه القمرية.

ابن زوال على أي حال هو روح. لعلّ الأرواح لا تحتفي إلا بالقمر وهي تستعيد ذاكرة أجسادها. هي الليلة الثالثة التي أنتظره دون ما جدوى. لقد أضعت الكثير من تلك الأسماء والأمكنة والأحداث التي عزمت على سردها لتزييت الذاكرة التي أشعر كل يوم بضعفها وتكلّسها بما يشبه بداية زهايمر. وها هو يتركني مبحلقاً في بياض الورق بعد أن انتصف الليل وقارب القمر على الزوال. لقد أنهكني الانتظار. لعله كامنٌ في مكان ما من هذه الغرفة يتشوّف إلى حيرتي، وأنا أتحول إلى مدخنةٍ مع سكائري. لم يترك لي شيئاً أفعله بمحض إرادتي، لخبط خططي ومشاريعي الواضحة لي، أو لأقل كانت واضحة. انسقت إلى مساراته وهوسه بالغموض وسيطاً أمينا له، جعلته يتكلم بلساني وتكلمت بلسانه، لأنفذ فقط من الشرك الذي

أوقعني به، شرك الانتظار.. أو ما أسماه هو قلب المعادلة أن يتبع الكاتب مخلوقه.. ينتظر ما يبوح به أو يفعله هذا المخلوق. أنا عالقٌ مع زوال أحاول لمسه دون ما جدوى ولا أملك غير انتظاره. بدأ الشك يراودني في كل ما زعمه هذا الزوال. كل مساراته رؤى، حدس، أوهام.. ربما لا شيء حقيقي في آخر النفق.

يا ابن ذلك الذي أراد لزواله الخلود، من أين خرجت عليّ بتلك المخطوطة.. ولِمَ أنت لا تسردها لتكون حقيقةً أخوضُ دروبها معك بديلاً عن فوضاك ومساراتك الغامضة.. لم أعد أراك إلا زوالاً لكائنٍ يعوي وسط ريحٍ تدوم بفوراتٍ من العبث والسخرية. لِمَ لا تخرج لي؟، لقد طال العطب كل مساماتي، تاركاً لي تجويفين يبحلقان في فراغ.. تجويفان يشيران إلى كائنٍ أبله وراضٍ ببلاهته، كائن يتسول إلهاماً من زوال..!!.

آه يا أيتها الروح الهائمة المهاجرة. كم من الأرواح تهوم في سماواتك يا بلادي، هل ضاقت سماواتك أيضاً؟، هي أرواحك تهاجر كذلك. أرواحٌ صعدت إلى سماواتها وهي لم تزل منشدّة إلى أوتادها الأرضية، لم تنعم بفسحة للبوح، تلويحة وداع، وصيّة صغيرة أخيرة.. قيل قديماً، وقديماً جداً، قبل الطوفان كان الجلاد يسأل ضحيته عن رغبتها الأخيرة. وهو ملزم بتحقيق كل ما تتفوه به الضحية باستثناء رغبة إلغاء الموت المتربص بها.. أما زال ذلك الحق المقدس متاحاً؟، إيه يا ابن زوال، هل سألك أحدهم عن رغبتك الأخيرة..؟ ماذا قلت؟، هل كانت لك رغبة، أمنية، وصية تطلقها قبل أن يأتوا لك بالملاك؟ يا لسخرية القدر المقيم في تلك البلاد الموبوءة بالقتل.. هم يأتون له بالملاك.. ما هذه الفوضى.. أية فوضى تخيم هناك، فوضى تلبست حتى الملائكة. قديماً أيضاً، وقديماً جداً قبل الطوفان كان ملاك الموت سيد مهنته، لا أحد يقاسمه شؤونها، يقبض روح من يشاء وقت ما يشاء.. له استقلاليته المقدسة، تلك التي لا يتدخل فيها سوى الخالق نفسه. ما باله الآن يجعلهم يأتون به إلى من يشاؤون ووقت ما يشاؤون!!. هل تنازل ملك الموت هو الآخر عن حقه المُقدّس؟.

أعود إليك يا صاحبي. أراك شارفت على التجديف. هون عليك. اخرج من هذه البكائية التي أورثها لك أسلافك وشماً لروحك. لتكن صبوراً ولا تمل من صحبتي. صحيح أن الأرواح تقطع المسافات دون ما جوازات ولا تأشيرات خروج ودخول، لكنها في النهاية تقطع مسافات، تستغرق حيّزاً زمنياً.. ما بالك إذا كانت تلك المسافات مكتظة بكم هائل من الأرواح الهائمة.. أرواح تتشابه ملامحها وحنينها واحد؛ إلى ذلك الشيء الصغير

الذي ذكرته أنت الآن.. الشيء الذي لم تقله أو لم تفعله وهي تغادر عالم الجسد. هل تعرف بمن التقيت وأنا أقطع مسافة الوصول إليك..؟، آه يا صديقي أنت لا تعرف..

- وكيف أعرف إن لم تخبرني أنت؟.
- معك حق. لقد التقيت بـفضيلة.
- ومن هي فضيلة؟.
- أنا أيضاً لا أعرفها!!.
- خالد!، هل ستبدأ ليلتنا بالهذيان، ما زلنا في أولها؟.
- على رسلك، لا هذيان ولا تيهان. فقط أنّ اكتظاظي بما أود البوح به لك، لم يدع لي فرصة ترتيب أوراقي.. أو أوراقك. فضيلة هذه لم يزل مغلقاً عليها بين دفتي تلك المخطوطة التي حدّثتك عنها.. أنا حقّاً لم أعرفها في عالم الجسد.
- وهذا ما أودّ معرفته منك.. هل ستعرفني على مخطوطتك.. اقصد أن تدعها تتكلم عن نفسها دون ما تدخل منك..
- أعدك.. لكن..
- وأن لا تنصّب نفسك سارداً أو حكواتياً.
- دعني أكمل.. قلت أعدك، لكن دع أوانها يحين.
- وفي أي ليلةٍ سيحين أوانها من لياليك التي لا أدري كم سيكون عددها..
- بعد ترتيب أمر هذا التدافع في رأسي.. ماذا أفعل؟، لم أتعوّد في حياتي على أمر التخطيط والتبويب هذا.. والوافدون إلى عالمنا يتزايدون كلّ لحظة، كلّ دقيقة، كلّ ساعة.. ما بالك بالأيام.. لقد أتخموا ذاكرتي بقصصهم، مفارقاتهم، ألاعيبهم.. وأخيراً تلك الطرق العجيبة في تسفيرهم إلينا، حتى اختلطت أشيائي بأشيائهم. ثمة أحداث ومفارقات أقرر سردها

عليك، ثم أعود وأتذكر أنها ليست لي.. الأمر ليس سهلاً كما تتوهم. لنبدأ إذن يا صديقي:

المخطوطة كما أخبرتك؛ هي بحوزة خالد زوال. لقد استنسخها. هي وغيرها كانت أسباباً لطرده من المدينة. صحيحٌ أن المدينة لم يرثها حكيم عن أسلافه، وبالتالي هو ليس حزاً في من يسكنها أو يُطرد منها. إنما نفوذه فيها، علاقاته المتشابكة مع شرطتها ومسؤوليها، ما حدث لصديقه مازن لاحقاً، كلها كانت أسباباً كافية لجعل خالد زوال يخافه وينصاع لنصيحة جرجيس المصري. النصيحة التي رفضها في الصباح وركب رأسه معانداً، عاد إليه ليلاً مستنجداً؛ أن يسرع في إجراءات ضمه إلى تلك السفينة التي حدثه عنها في الصباح. وهو يعلم أنّ مسعى جرجيس منذ البدء، لم يكن بعيداً عن تدبير حكيم.. لعلّه قال للمصري: «شوفلك باخرة لهذا المكطوع، وخليه يغرب عن وجهي.. ما أريد أشوفه في تسالونيك» جرجيس لا يستطيع إلا أن ينفذ ما يطلبه حكيم. ما زال مكتبه جديداً، أنيقاً، والشغل في أوله.. مكتب عمل فاخر، في عمارة جديدة قبالة الميناء، لم يصل إليه بسهولة، وصله بعد (اللتي واللتيا) كما قال هو مرةً لـخالد زوال. وصله بعد مساعدة حكيم:

- حتى أهل مراتي تخلو عني يا خالد.. علشان مبلغ صغير وشوية أوراق.. بس حكيم الله يسترها معاه وقف معاي.

كان يقصد أهل زوجته اليونانية، التي على أساس زواجه منها حصل على الجنسية اليونانية. وخالد لم ينس خوف وتوجس جرجيس وهو يطلب منه العمل على الباخرة، كان كالمتوسل، وهو يتابع عناده وتفوهه بكلمات نابية بحقّ حكيم:

خالد، الله يستر عليك، بلاش شوشرة مع الرجل.

- يا أخي أنت لا علاقة لك. المشكلة بيني وبينه؟.

عندها فقط، لمَحَ جرجيس إلى السفينة المقطورة.

التي جعلها بنفوذه وعلاقاته مع الشركات، محلاً لعمل خالد، وإقامته الدائمة لحين إبحارها.. وكانت الرسالة واضحة: الصعلكة من جديد بين الفنادق وأرصفة الشوارع.

الذي حدث بين عناد الصباح واستسلام الليل، هو ما جرى لصديقه مازن ذلك الذي كان متورطاً في كواليس حكيم. رضي بكلّ الاحتمالات التي قد تواجه عضو عصابة بيع وتهريب مخدرات ومعها ما أطلقوا عليه مسمى (تراب الذهب)، ذلك الشيء الذي يتاجرون به بين تركيا وإيطاليا مروراً بثلاث دول. فقط ليظل مستمتعاً بشبه البطالة التي قد تمتد طويلاً بين مهمة وأخرى، مسترخياً في شقة على البحر، يبّدل فيها الفتيات الصغيرات كما يبدّل القمصان. عنده النقود والبيت. بماذا يحلم أي مـگطوع من المكاطيع بأكثر من ذاك؟، كان هذا قبل أن يتعكّر صفو استرخائه ويهجّ من البيت باحثاً عن خالد علّه يساعده. ذلك ما حدث له على مدى أسبوع سبق لقائهما وافتراقهما الأبدي. خلال ذلك الأسبوع عاد أحد أفراد الشلّة من مهمّة في إيطاليا وسكن مع مازن في ذات الشقّة. وكان الساكن الجديد شاذاً جنسياً. في أوّل ليلة أخبر مازن بلوثته، طالباً منه أن يفعلها معه. رفض هذا. ما حاجته إلى مؤخّرة وليد الجائفة كما يقول، وعنده الفتيات الصغيرات الجميلات المتفتحات توّاً كما الورود. رفض مازن، وأصرّ وليد، وفي آخر الليل حدث الشجار، الذي كانت نتيجته أن رضخ مازن تحت نصل السكين وفعلها مع وليد. لكنه في الليلة التالية فعلها دون سكين. وفي الليالي والأيام الأخرى صار يشعر بمتعة المواصلة. حتى وصل إلى ذلك الشعور الذي ينتاب المقبل على الإدمان، تلك اللحظة من الزمن التي تشبه علامة فاصلة بين عالمين، النكوص أو المواصلة.. لنقل الفسحة التي تعتمل أثناءها في داخله تداعيات، مشاعر، ملابسات تدفع المبتدئ للتفكير بحيادية مقاوماً كل عوامل الإغراء. في تلك اللحظات، لم يقرر مازن الكف عن مواصلة اللعبة الجديدة فقط، بل قرر الهروب من عالم

حكيم بكليته. انتزع نفسه من البيت، دون حقيبة ملابسه حتى، دون نقود، وجاء إلى مقرّ خالد زوال في السفينة العاطلة.

كان هذا جالساً قرب السياج من جهة البحر. يحتسي قهوته الجاهزة، ويجتزُّ نفسه كما كان يفعل كل أمسية بعد انتهاء العمل في السفينة. اندهش بادئ الأمر لزيارة مازن التي بدت مفاجأة بعد ذلك الانقطاع لأكثر من شهر. منذ أن ترك الشقة مطروداً من قبل حكيم، لم يلتقِ بمازن، كذلك هذا لم يسأل عنه. يراه الآن حزيناً كما لم يره من قبل. ليست عيونه توحي بالحزن فقط، بل وجهه كله ينضح بانكسارات الحزن، الخذلان، الندم.. خمّن خالد أن ثمة خطب تلبّس صاحبه، كأن يكون رسالة وصلت من أهله فيها خبر عن مقتل أحد إخوانه في الجبهة. تخاطفت أمام عينيّ خالد صورة عادل أخ مازن الكبير، الذي كان في حقيقة الأمر هو صديق خالد، أما منزلة مازن لديه، فهي منزلة أخ الصديق. سأله:

- لا تقل لي صار شيء على عادل.

لم يجبه. اكتفى بهزة نفي من رأسه. ثم بدا حائراً وهو يداور أمراً لا يدري كيف يقوله، حتى طلب من خالد الذهاب إلى مكانٍ بعيد عن الميناء، ليحدثه عن أمر خطير. بعد أن تيقّن خالد أن الأمر بعيدٌ عن صديقه عادل، عاد إلى طويته المشاكسة:

- لك ملعون. أخاف تريد تغتالني. شوّفني المسدّس.
- خالد، أرجوك ما عندي مزاج.
- لك أنت مافيا.. وآني رجل مسكين على باب الله. من حقّي أخاف منك. زين شوّفني المسدس. أعطوك مسدّس، لو بعدك تحت الاختبار؟.
- أرجوك، البس وتعالي ويّاي.

كان خالد حينها عارياً إلا من الشورت القصير. قال له وهو يتوجه إلى كابينة النوم في الأسفل:

- إذا كان ولا بد، خلينا نسكر بقهوة أبو جبار.

وصله صوت مازن من خارج فسحة السلّم النازل إلى كابينات النوم، بنبرة الحزن والانكسار إياها:

- بعدك تصرّ على تسمية الرجل بـ(أبو جبار)؟.

رد خالد من داخل الكابينة بصوت عال ليصل صاحبه:

- هذا أسهل علي من لفظ عشرين حرف دفعة واحدة، بعدين هو يشبه جارنا أبو جبار.

لم يكن المقهى مزدحماً تلك الأمسية.. بضعة وجوه كانت معروفة لهما. فتيان وفتيات، كانت بينهم اليوغسلافية ليانا صديقة مازن السابقة، مع واحدة بملامح شرقية، لعلها تعمل معها في ذات المقهى الذي يتحوّل إلى مرقص ليلي، المكان الذي اعتاد الاثنان على ارتياده طيلة الفترة التي كانوا فيها معاً للسهر وللتعارف. ليانا وصديقتها تجلسان في الزاوية البعيدة من الباب وتدخنان. حياهما خالد بإشارة من يده ردت ليانا بضحكتها العريضة وتلويحة يد. ما أن جلسا إلى إحدى الطاولات عند الباب، بدأ مازن بالحديث:

- اليوم تركت البيت وما ناوي أرجع أبداً.
- شنو اللي صار؟.
- شيء مخجل، ما أدري شلون راح تفهمني.

وصل أبو جبار بابتسامته الودودة، كأنه أب يسأل أبناءه عن طلباتهم. حادثه مازن وانصرف. رد عليه خالد:

- ما تشوف نفسك مبكر بهذا الاكتشاف؟.
- خالد، المشكلة أفظع مما تتصور.
- وشنو هذا الأفظع من القذارة اللي أنت أصلاً فيها؟.

أخبره عن وليد و(الدودة) التي تنغل في مؤخرته. وبعد أن انتهى، لم يبدُ على خالد الاندهاش الذي توقعه. فقط قال له وبحيادية:

- وليش أنت منزعج إلى هذا الحد؟.

- لأن أبو دودة لا يشبع من مرّة ومرّتين وثلاثة.. حتى صار يطرد البنات من البيت.
- وحكيم؟.
- بصراحة ما كدرت أصارحه بالحقيقة. بس طلبت ينقلني لغير شقة. شفته ما سوا شيء.

جلب النادل كأسين من (الأوزو)، مع صحن صغير فيه حبات زيتون قليلة وعيدان صغيرة تشبه نكّاشات الأسنان بمثابة شوكات لالتقاط تلك الحبات.

- وأنت تعتقد حكيم ما يعرف بمرض صاحبك؟، ليش ما يكون هذا اختبار عليك أن تجتازه، يدير لك مؤخّرته اليوم، وغداً تدير أنت مؤخرتك له أو لغيره. وراها راح تكون مستعد لارتكاب أي شيء، أي جريمة. إذا بلعت هاي، راح تبلع غيرها. لو تعتقد الشغل هو بس چكليتات تسحب بيها بنات زغار..

ثم فجأة انفجر خالد بسيل من الشتائم والفشار. بدا الأمر لمازن وكأنّ خالد الآن فقط استوعب الخطب الذي هو فيه. رأي ملامح وجهه قد تعكّرت، وانكمش جبينه من التوتر، داخلاً في ثورة من الغضب ذكرته بثورات أخيه الأكبر عادل، حين كان يمسكه متلبساً بانحراف ما. لم يستطع ملاحقة ما كان يتفوه به، كانت المفردات تتداخل في بعضها غير مفهومة. استمرّ التقريع طويلاً، ومازن منكمش رأسه إلى الطاولة متلبساً دور المذنب. وما أن أفرغ خالد كلّ ما في جعبته من مفردات الشتم والفشار. صمت. شرب ما في كأسه من (الأوزو) دفعة واحدة. أخرج له سيجارة، أشعلها. ظلّ صامتاً. بعد برهة لعلها طالت، غادره ذلك الانفعال الغاضب وكأنه قد خرج من رأسه مع دخان السيجارة الخارج من أنفه. بدأ مازن يبكي. سأله بهدوءٍ هذه المرة:

- وهسه شراح تسوي؟.

وصل صاحب المقهى يستفهم خالداً عن سبب بكاء مازن. تشبث خالد بجملة (فاذر آند مذر) حاسماً بها حيرة

الرجل من بكاء مازن. انسحب هذا وعلى وجهه تعابير المشاركة والحزن، مصدقاً أن مازن قد تذكر أمه وأبيه هناك ولهذا هو يبكي الآن. جاءت اليوغسلافية ليانا، جلست إلى جانب مازن. أعاد عليها خالد ذات الكليشة. أخذت تمسح على رأس مازن وتتحدث معه بمواساة. رفع مازن رأسه المنكس إلى الطاولة، وأبعد يدها من رأسه بعجرفة، طالباً منها أن تذهب وتتركه. خافت الفتاة وانسحبت على الفور بعد أن عكر الحزن وجهها الجميل. قال خالد وقد رجع إلى حالته الطبيعية:

- لو بس أعرف.. ليش تركت هاي البزونة؟.

كفكف مازن دموعه. شرب ما تبقى في كأسه من خمر، وظل يتملى الكأس بين يديه، ثم أجابه وكأنه يحدث الكأس:

- تريدها؟، هي تحب العراقيين. ومستعدة تجي ويّاك للسفينة.
- أنت تركتها على أساس هي گحبة. زين، أنت شنو؟.

بدت ليانا لخالد وهي تمسح على رأس مازن مثل أمٍّ تفيض حناناً. تابعها وهي تعود إلى صديقتها. فكّر لِمَ هو لم ينتبه لها قبل الآن. أعاد مازن الكأس إلى الطاولة. وسأل خالداً بنفاد صبر وكأنه عرف إلى أين ذهبت أفكار صاحبه:

- أرجوك خالد خلينا بموضوعنا. تـگدر تساعدني.. لو.. لا؟.

لوّح خالد ثانية لصاحب المقهى، الذي وصل مسرعاً هذه المرة. طلب منه على طريقته:

- (أبو جبار) الله يخليك، ذيا اوزو.

فهم الرجل طلبه، وأكيد هو لم يفهم تلك الـ(أبو جبار.. والله يخليك) «ذيا أوزو» من الجمل اليونانية القليلة التي يحسن قولها. ضحك مازن وسأله:

- أنت ليش ما تريد تتعلم اليونانية.. رح يصير لك سنة

باليونان؟.

- البركة في الإنكليزية.. وبعدين آني أعرف يوناني.. شوف (أبو جبار) شلون فهمني بسرعة، جاب (الأوزو) وصحن زيتون ثاني مع أني لم أطلبه.

وضع النادل الكؤوس أمامهم مع صحن الزيتون، ورفع الكؤوس الفارغة وهو ما زال حزيناً لحزنهم. وقبل انسحابه أخذ يطبطب على ظهر مازن. أعاد خالد ذات السؤال:

- وهسّه شراح تسوي؟.
- أفكر في (أثينا) مكان مؤقت. أشوف لي مكان بعيد عن تواجد العراقيين.. وأرجع إلى عملي القديم في الخياطة.
- وبعدين؟.
- أجمع ما أستطيع السفر به إلى (السويد).
- بس حكيم ما راح يفك منك ياخة.. و(أثينا) قريبة.
- أعرف. لهذا ما راح أطول هناك.
- زين أنت أخذت فلوس من حكيم..؟، أقصد مبلغ كبير وعليك إرجاعه مثلاً..

أخرج مازن من جيبه بضعة أوراق نقدية لا تكفي وجبة طعام سريعة..

- هذا كلّ ملكيتي..

في تلك الأيام، كان قد تجمّع لدى خالد مبلغ من المال، من عمله على السفينة المقطورة، أعطى نصفه إلى مازن، وودعه في محطة القطار. وهناك أخبره مازن:

- دير بالك من حكيم. لا يتحمل من يعرف أسراره ويتركه. بعد ما راح يعرف بهروبي، راح يخليك برأسه..
- لا تخاف. جرجيس موجود.

- وهذا المسكين شيـگدر يسوي؟.
- أقصد شافلي شغل على سفينة تبحر بعد يومين.

عاد خالد من المحطة قاصداً المقهى الذي اعتاد جرجيس الجلوس فيه، المقهى الواقع قبالة باب الميناء. كما توقّع وجده هناك. أعطاه ما تبقى لديه من نقود، طالباً منه أن يضمه إلى السفينة التي حدّثه عنها في الصباح..

- كده تكون فكّرت كويس.

أعاد جرجيس قسماً من النقود المطروحة على الطاولة إلى خالد:

- مش حآخذ منك حاجة. حآخذ دول بس للناس بتوعي، بكرا في واحد حيسهل علينا الإجراءات القانونية.

***

بعد أن ترك جرجيس شعر أن ثقة انعطافه حدثت في حياته، تشبه قفزة من مصير إلى آخر. أنهى معها زمناً طويلاً من التردد والتوجس من ارتياد عالم البحر. بين مصيرٍ كان معلوماً له.. أو على الأقل يستطيع أن يستشفّ أبعاده وملابساته المتوقعة، من المحيط المحدد برقعة جغرافية ذات أبعاد وممانعات معلومة سلفاً، لمهاجرٍ أو طريد يبحث عن مأوى بديل لوطنه.. ملابسات لا تخرج عن دوامة الصعلكة والتشرد، والتي قد تزدهر بواحات من الاستقرار والاسترخاء لكن باشتراطات هي الأخرى معلومة وليس من الصعب بلوغها: إقامة شرعية، عمل، علاقات نسائية. كل هذا ضمن حصيلة من التآكل الداخلي بانتظار الآتي الذي قد لا يأتي.. أما المصير الآخر الكائن فيه الآن، صحيح هو لم يزل مجهولاً، إلا أنه زاخرٌ بالاحتمالات والمصادفات ومفتوحاً كأفق البحر.. ما عليه سوى اقتناص الفرص لترميم حياته المهلهلة، والبدء من جديد. بشرط وحيد؛ أن يبني له طموحاً أن يضع في رأسه هدفاً يسعى للوصول إليه، هدفاً عملياً يتلمّس وسائل الوصول إليه.. بمعنى أن ينظّف رأسه تماماً من

هاجس الحصول مجدداً على أمينة العراقية، المرأة المتحولة إلى سراب بعد أن ألغته من حياتها مع أنه لم يكن سوى عابر سبيل في حياتها.. أمينة التي كانت سبب تركه أثينا ولجوئه إلى تسالونيك.. إذ تذكر أنها قالت في إحدى المرات:

- عندي (تسالونيك) أجمل من (أثينا).. كثير من إجازاتي قضيتها هناك.

وحتى هو يفكر بالوصول إلى قبرص وربما إلى بيروت. هذه المحطات كانت تدور في رأسه كلما استعر شوقه لها. هو ما زال يبحث عنها، يتتبع آثارها، وكأنه يلاحق ذلك الصدى الذي خلفته لياليها المدوّمة في كيانه ريحاً عابثة. الليالي التي كانا يحتسيانها حتى مطلع السحر خمرةً وجنساً كالجياع، وليالي أمينة موائد عامرة بالجنس الذي لا يشبه الجنس، بل النهش، كانا يتناهشان بعضهما كالحيوانات الجريحة.. العنف والقسوة سيدا تلك اللحظات التي تمر على جسديهما السابحين بنثيث العرق الناضح. هي لا تعرف الجنس إلا عراكاً حيوانياً، علمته فنون الالتهام، وهي ترتشف شبقه البكر.. كان يلتهمها وتلتهمه حدّ الغياب.. وهي أخيراً من علمته النظر إلى جنس الصبايا على أنه ألعاب طفولة، ومضاجعة العاهرات لا تكون إلا استمناءً. ما زال يلاحق صدى الليلة الأخيرة، الصدى الذي دخل أذنيه ولم يخرج، ترسب هناك متوغّلاً في تلافيف الدماغ، في مسامات الجسد، ينبض مع نبض العروق.

كان قد عرف أنها حين تكون مكتظّةً بأشيائها الخاصة وتريد البوح له، تأخذه إلى فندقها، إلى غرفتها الخاصة التي لا تصلح لبشر يقضي ليلته فيها وحيداً. هناك تنتزع من ذاتها الكثير من الأقنعة، لتعود إلى أنوثتها البكر. في تلك الليلة، بدأ بممارسة الطقوس التي عودته عليها.. يأخذ دوشاً في حمام الغرفة، ثم يتعطر بالعطر الذي اختارته هي. يخرج بروب الحمام الأبيض، يذهب إلى البراد الصغير في الغرفة، يعمر له كأساً من (الأوزو)،

يتوجّه إلى الشرفة، يرتكن هناك مع سجائره وخمرته لحين انتهائها هي من طقوس حمامها. ثم تخرج ملتفّة بتلك الغلالة الشفافة بألوان الطاووس، تغطي جسدها من أخمص القدمين حتى الرقبة. لم يعرف قبلاً شبيها بهذا الزي الذي يبوح بكنوز جسدها على استحياء، تبدو فيه أقرب إلى ممثلة هندية.

لكنها في تلك الليلة لم تفعل شيئاً. حين انتهى من حمامه وعمّر له كأساً متوجهاً إلى شرفة الانتظار، ظلّت على جلستها على طرف السرير، واضعة كفيها أسفل حنكها في وضع من يفكر في مصاب. ما زالت في بنطالها السموكن الحشيشي الذي يُظهّر جمال ردفيها، وقميصها الرملي الشفاف وهو يشف عن حلمتي نهديها الكبيرين. طالت جلستها هناك وشعرها المتموّج والكثيف يغطّي وجهها الصغير. تبدو كالمستغرقة في مصاب. وصلها صوته من الشرفة:

- راح تطولين وأنت تفكرين بالميت؟.

وإذ لم تجبه. أردف:

- الميت مثل الفعل الماضي.. مضى وانقضى..

بعد حين، انتشلت نفسها من تلك الجلسة. قامت إلى البراد الكائن في الزاوية المقابلة. عمرت لها كأس أوزو. أخذته إلى الشرفة. وضعت الكأس على الطاولة. أرادت الجلوس. تذكرت الزيتون. عادت إلى البراد من جديد. جلبت صحن زيتون صغير.

كثيرةٌ هي الثقوب السوداء في جسد علاقتهما التي لم يتعرف عليها بعد. دأب أن لا يسأل، بل يكتشف، يقارن، ثم يستنتج. هي من وضع حدود العلاقة أو حدوده منها. ثمة خطوط حمراء عليه أن لا يتجاوزها إن أراد الاحتفاظ بها. يدع البوح لها، هي من يختار الزمان والمكان. أخبرته في إحدى المرات أنها مدرّسة. لكنه في مرة لاحقة استنتج أنها موظفة في الخطوط الجوية العراقية في قبرص. سرعان ما أهمل استنتاجه ذاك،

ليحل محله استنتاج جديد؛ لعلها تعمل مع إحدى المنظمات الفلسطينية في بيروت، أراده تفسيراً لكثرة ترددها على بيروت. في كل الأحوال لم يكن يعنيه كثيراً أين وماذا تعمل، الذي يهمه أنها كانت إذ تصل (أثينا) تبحث عنه لتجده وتظلّ معه هو فقط طيلة إجازتها كما تسميها.

هي مدمنة على (أثينا)، تزورها كل شهر أو شهرين. من جانب آخر هو كان يستأنس هذا الغموض الذي يؤطّر غيابها وحضورها. لعله غموضٌ من نوع يسهّل عليه مزجها بشخصياتٍ نبتت في ذاكرته، استزرعتها كثرة قراءاته للروايات العالمية، إضافة إلى ما تقذف به رؤى مراهقته من صور وأوضاع للمرأة الحلم.. الأمر الذي جعله طيلة تلك العلاقة لائذاً بأوهامه وحدوسه عن سماع ما يروجه الآخرون عنها. أولئك الذين يدعون أنهم يعرفونها. عاهرة، راقصة، جاسوسة. لكنهم في ذات الوقت لا يملون من محاولات التقرب والتملق بل والتوسل لها، وكأنها المرأة الوحيدة في أثينا. هناك شيءٌ جاذبٌ في هذه المرأة. لعلها هالة حضورها في أيّ مكانٍ تكون فيه، لعله لسانها السليط القاسي حين تغضب من أحدهم، لعلها جرأتها في قول ما لا يجرأ عليه أحدهم، كثيرة هي الاشياء التي تميز أمينة العراقية، والتي يمكن تكويرها وضغطها إلى حجم صغير عنوانه (الحرية)، امرأة تمارس حريتها بامتداداتها المعروفة وغير المعروفة.

في تلك الليلة وكانت الأخيرة، في غرفتها الخاصة، الغرفة الزهرية من الفندق الأثيني القديم، تحت أقدام الـ(أكروبوليس) الإغريقي، دخلت في مساحة جديدة للبوح. مساحة لم تصلها من قبل. لا يدري إن كان هو من استدرجها إليها، بحديثه الفج عما يتناقله الآخرون بشأنها. أو هي أرادت ذلك. كانا جالسين في نصف إضاءة شرفة الغرفة المطلة على (أثينا). المدينة من شمالهما تلصف بأضوائها المتدرجة حتى تخوم البحر، ومن الجهة

الأخرى يمتد ذات التدرج اللوني حتى يضيع في تلافيف الليل. كانا يحتسيان (الأوزو) على الطريقة اليونانية مع الزيتون فقط. سألته:

- أنت ماذا تقول؟.
- أنا أعتقد فقط أنك امرأة غير عادية.
- وين هي لا عاديتي؟.
- يعني بالمقارنة مع العراقيات.. تسافرين بمفردك.. تتمتعين بحرية تقريبا مفتوحة..

رفعت يدها أمام وجهه. طلبت منه السكوت. ثم سألته:

- وأنت شتعرف عن العراقيات؟.

شعر بورطة. هو فعلاً لا يعرف شيئاً عن العراقيات. لقد خرج من البلد بعمر العشرين، وكلّ حصيلته لم تعدو عن مغامرات صغيرة مع تلميذات مدارس بعمره، لم يخرج منها إلا بقُبَل مسروقة وملامسات فوقية في غفلةٍ من العيون. ظلت عذريته صامدة حتى خرج من البلد. وأمينة ليست المرأة التي يستطيع أن يتبجح أمامها بمغامرات مزعومة. اكتفى:

- منكم نتعلم.

لم يكن ينوي الحديث بقدر ما يريد السماع. شعر أن ليلتهم لن تكون على منوال الليالي السابقة. تخافت الوهج الذي كان مشتعلاً في جسده ووطّن نفسه على تقبل كل تقلبات هذه الليلة. ضحكت وكأنها تواسي حيرته.

- زين لعد حبّاب.. اسمعني.

شربت ما تبقى في كأسها، تبعته بحبة زيتون. وعلى عادتها حين تخوض في موضوع جاد تستعير لغة المثقفين، لغة مؤدبة، خالية من أي مفردة للفشار أو الشتم. لغة تبهر خالد زوال نفسه، هذا المولع بلغة القراءة. نبرتها كانت في تلك الليلة تقول؛ عليك بالإنصات فقط!.

- أنا امرأة عادية. هذا كل ما في الأمر. لكن أجمل ما في البشر هو اللاتوزان. لهم نوازع، وأمامهم كوابح. وهذان طرفان في معادلة لا يتوازنان أبداً. على الدوام هناك ما يخلّ في التوازن المرصود على سطح الحياة. التوازن على السطح هو الثوب المزيف الذي يرتديه كل واحد أمام الناس. لكن الأعماق لا تعرف مثل هذا. لو تتبعت الخوض في الأعماق، أعماق البشر ستجد ذلك الخلل، الذي يرجّح أحد طرفي المعادلة في هذه الحالة والطرف الآخر في حالة أخرى.. أقصد النوازع والكوابح..

بدأ صوتها يتهدج، تنتابه تكسرات تشي أنها ستبكي قريباً، حتى أعتقد أن ما قاله منذ قليل على سبيل النكتة، قد يكون صحيحاً، قد تكون سمعت خبراً عن موت عزيز عليها. قال محاولاً إخراجها من تلك الحالة الحزينة:

- دخلتِ في التحليل النفسي..
- لا تحليل نفسي ولا بطيخ.. أنا معك الآن في واحدة من تجليات هذا الخلل الكامن في أعماقي. طفح كيل نوازعي، مزيحاً من أمامه كل قوانين التريث والانتظار. لم أتعود انتظار الحبيب الذي سيهبط علي من الشباك. تواطأت مع نوازعي بعد أن تهرّأ أمامي خيار الحبيب الذي يتحول إلى خطيب ثم زوج. من تجربتي الأولى في الزواج، فهمت لِمَ على الحبيب أن يظلّ حبيباً ولا يتخطى أبداً عتبة الزواج. بالزواج سيتحول إلى أي شيء آخر، إلا ذلك الحبيب الذي كان يثير في النفس ارتعاشة اللقاء، قلق الانتظار، وخدر التيه في جنائن النفس وهي تحلم مع فارس الأحلام. هكذا فقدته في مستنقع الزواج وحصل الطلاق. وفقدت معه أمل الحصول على حبيب ثانية. صرت أبحث عن زوجٍ لا عن حبيب. لحسن حظي، وربما لحسن شكلي حصلت على هذا.

سكتت، كأنها شهرزاد إذ تسكت عن الكلام المباح. تململ الصمت بينهما، وخالد ما زال يستعيد ويداور ما قالته، واجداً نفسه رغم قوة الدلالة في استعاراتها وشدة الوضوح فيما قالته، أنه لم يفهم شيئاً. عفرت لها كأساً جديدة، شربت منها القليل. وبتروي وهدوء أعادت الكأس إلى الطاولة، ثم واصلت فصل البوح:

- ماذا سنفعل للنفس المتطلبة الحمقاء. ظلت تراودني للبحث عن حبيب آخر. بعد سنوات قليلة على زواجي الجديد طلقني الآخر. ومرة أخرى، ولأن شكل المرأة لم يزل هو القيمة الأعظم التي يبحث عنها الرجل تزوّجت للمرة الثالثة. غير أن الطلاق هذه المرة لم يحدث بسببي، لأن خلل الميزان في أعماقي كانت كفّته تميل مع هذا الرجل إلى الروادع، كنت أنشد الاستقرار، لا أريد تضييعه.. لكن زوجي هو الذي تغير، لقد اصطدم بقيمٍ أخرى حلت محل قيمة الجمال، اللذة، السعادة، التي كان يبحث عنها في المرأة.. دخل في دهاليز الإيمان الدينيّ العميق.. ماذا تسمونه..؟، التصوّف.. الدروشة.. لا أدري. لكنّ المفارقة كانت أن الذي هداه إلى هذا الطريق، هو الشيخ الذي حدّثتك مرة عنه هل تذكر؟، كانت هداية أنسته الفراش ومتطلبات الزوجة. لم يكتف بذاك، صار يطالبني بمسايرته. لم أكن (رابعة العدوّية) ولا أريد أن أكونها.. ما بالك وأنا لمست بيدي مقدار الزيف في تدين من أهداه. طلبت الطلاق، وحصلت عليه.

رفعت كأسها بذات التروي والهدوء، احتسته كاملاً، أعادته إلى الطاولة. غرزت شوكتها في حبة زيتون مراوغة ظلت تتهرب من تحت رأس الدبوس الخشبي. حاصرتها قرب حافة الصحن الصغير حتى تمكنت منها. طالعته. وجدته داخلاً في سكينةِ صمتٍ لا يريد مغادرتها.

- ليش ما تشرب؟.
- كلّ هذا الخمر الذي سمعته، وتريدينني أن أشرب!.
- على فكرة.. أنت شاعر؟.
- لم أتجرّأ على خطّ سطرٍ واحد منه. ربما أنا أتذوقه فقط.

عمّر لها الكأس الجديد. رحلت بعيونها إلى المدينة اللاصفة، أو إلى ذلك الامتداد المعتم حيث تختفي الألوان المتدرجة، متحولة إلى جزر لونية صغيرة لمدن وقرى بعيدة تتلفع بظلام الليل. ما زال هو في سكينته مسترخياً، مغلقاً في رأسه على فوضى من الأفكار والنوايا المتصارعة، خليطٍ من أملٍ وخيبة أمل. لقاءهم الأخير الذي امتدّ قرابة الشهر وهما يلتقيان كل يوم، جعله يرسم لعلاقتهما شكل الثبات، لم تعد تلك العلاقة القلقة الرجراجة.. ألمحت له في أحد الأيام وكانا على ظهر زورقٍ سياحيّ يجوب بعض الجزر اليونانية، أنها تفكر بالاستقرار في اليونان، ستشتري بيتاً أو شقة لكن ليس في أثينا.. ربما في تسالونيك.. ثم قرصته من خده وهي تسأله:

- هل تأتي لتعيش معي؟.

قالتها بما يشبه مداعبة إحدى الخالات لابن اختها.. أجابها وهو يحاول تقليد جملة تقليدية في الأفلام المصرية قالباً الدور من المرأة التي عادة ما تقولها إلى الرجل:

- أنا بخاف ربّنا.. كل شيء بيتم على سنة الله ورسوله.

ضحكا ضحكاً صاخباً. ها هي الآن ببوحها تنسف ذلك الاحتمال. لكن، يراوده إحساس أنّ فيضها قد بدأ، وهي لن تقطعه.. الليلة سيحصل على يقينه، الذي طالما انتظره. نظرتها لم تزل متسمرة في ذلك العتم البعيد. والزمن يتمدد بينهما كأنه هو الآخر عاكفٌ إلى استراحة من سيره الحثيث. عادت من رحلة العتم البعيدة. لمحت

على وجهه ملامح تشتت، حيرة، تردد، خوف، يتستر خلفها جميعاً وعلى نحو أعمق شبق من نوع عنيف، شبق مراهقة مفجوعة. انتابتها رغبةٌ أن تضاجعه الآن، أخذ دفق الرغبة يسرّع الدم في عروقها، غير أن رادعاً من روادعها مسك بلجامها. وهي تتملّى ملامحه التي يغلفها نصف الضوء الراشح من الغرفة، تأكد لها أن هذا المراهق كان في أعماقه شبيهاً لها.. هو الآخر يلاحق أطيافاً مبعثرة في نساءٍ كثيرات، يلاحق أشتات نساء.. ولن يجد من ستجمع له تلك الأشتات المبعثرة في جسدها.. تذكرت ما قاله في بداية تعارفهم في ذلك المقهى الأثيني «كنت أبحث عنك ووجدتك»، تأكدت أنه لا يبحث عنها، بل عن الوهم الذي يبحث عنه وقد تلبس صورتها في تلك الأمسية وربما ما زال. ما كان يهمها منه قد أخذته لما أتى معها إلى غرفتها في الفندق. كانت في تلك الأمسية تبحث عن رجل. ثم اكتفت بمشروع رجل. غير أن الاستعداد الكامن فيه للتعلم وقوة شبقه، دفعاها إلى التكرار ومن ثم الإدمان عليه. ما زال الزمن يتمدد متباطئاً بينهما، مالئاً مسامات فراغ الصمت وهذا كان إبحاراً في الأعماق. قطعه هو متعمّداً، محاولاً انتشالها من هذا الإبحار العميق. رفع كأسه إلى الأعلى شارباً نخبها. أعاد الكأس إلى الطاولة بعجلة وبقوة جعلت صوتاً يخرج من ارتطامه في خشبها. حاول أن يبدو منتشياً، سعيداً، ليغلف فوران الأفكار والنوايا وخيبة الأمل التي أخذت تنخر في أعماقه. قطعت إبحارها، وعادت إليه..

- إيه يا خالد.. ما زال الناس في مجتمعنا يعيشون على السطح.. وإلا لماذا حصلت على زوجي الرابع؟، الأمر الذي لم يحدث لباقي النساء بذات السهولة التي حدثت معي. لكننا هذه المرة عقدنا زواجنا على شكل صفقة، بالضبط كما في الصفقات التجارية، ربما لأنه تاجر ورجل أعمال كبير. حددنا بنودها بدقة ووضوح قبل عقد القران. كل منا وضع البنود من تجربته التي حصل عليها من مستنقع الزواج، الذي

أغرب ما فيه أن عليك أن تخوضه دائماً من جديد. هو الآخر كانت له تجارب فاشلة مع ثلاث زوجات هنّ من طلقنه لذات السبب الذي يمكن وصفه بالمرض أو ربما حتى الشذوذ.. من جهة يعاني من برود جنسيٍ مقيت مع الزوجة.. ومن جهة ثانية يصير مثل الدّيك مع القحاب، كل شويّة راكب وحدة.. كان صريحاً معي من البداية.. وبدا يعرف عنّي الكثير بما فيها نزواتي خارج مستنقع الزواج.. اعترفت له بكل شيء. واتفقنا على الخوض في المستنقع، إنما في خطين متوازيين لكلٌ منا عالمه. أحترم شذوذه، مرضه، ازدواجيته سمّها ما شئت وأكون زوجته أمام الناس، أحضر دعوات وولائم برفقته.. وبالمقابل يحترم حريتي ولكن بشرط أن أمارسها خارج البلد فقط. اتفقنا والتزمنا وقررنا الخوض بجدية هذه المرة. هو سعيد بامتلاكي هكذا لمجرد نشوة التملك وإن كانت شكلية وأنا سعيدة بحريتي.. سمحت له أن يمارس حريّته مع القحاب ولم يوفر حتى خادمتي. حاول مراراً أن يجرب معي لكنّه فشل. شيءٌ محيّر لم أجد له تفسيراً بعد.. لا يهم. أما أنا فواصلت عتمة تبديل الرجال. علني أعثر من جديد على ذلك الذي فقدته في هفوتي الأولى. رغم هذا لا تحسبني مهبولة بقناعة الحصول عليه مجدّداً. ذلك أمر قد انتهى، قل هو يشبه الموت. ما أفعله أني أبدل الموت بالغياب.. حسبته غائباً وسيعود. لم أكن عاهرةً يوما، ولا كنت غاويةَ رجالٍ أو ملولة منهم.. أنا فقط أبحث عن غائبي. من جهة لا أحسبه ذلك المنتظر الذي سيظهر يوما ما، لأني مقتنعة بعدم وجوده أصلاً، ومن جهة ثانية أنا أنتظره.. هل تفهمني؟.

- لا.

- ولا أنا. لكني امرأة عادية، متزوّجة، محصّنة حسب عرفنا. ولانشغال زوجها بمشاريعه الكبيرة والخطيرة التي لا أعرف عنها شيئاً، ولا أريد أن أعرف.. يسمح لي بالسفر مع خادمتي أو بمفردي، متى أشاء. هذان هما خطّانا المتوازيان. هو يلاحق أعماله ومشاغله التي لا تنتهي إلا بموته، وأنا ألاحق ذلك الخلل الحاصل في كفتيّ ميزاني العميق. حكمتي في الحياة: على الحبيب أن يظلّ حبيباً، وإلا يسقط في مستنقع الزواج.

لم يزده بوحها إلا تشتتاً، حيرة، غموضاً، حزناً. هو حزينٌ الآن، لقد شم رائحة الفراق في ما قالته. حدس أنّ ليلتهما هذه ستكون الأخيرة، رغم ذلك سألها:

- هل سأراك؟.

وهي تصبّ له الخمر، أجابت كمن تنتظر السؤال:

- لا.

لا يدري ماذا يفعل. إمكانية أن يقول شيئاً ذا قيمة قد تلاشت مع تلك الـ(لا) القاطعة. الشعور المداهم له هو شعور الخيبة، إحساس المطرود. قالت:

- طلب منّي زوجي العودة فوراً. لا أدري ماذا يحدث هناك. لكني علمت أن السفر قد مُنِع. إذا رجعت قد لا أستطيع السفر من جديد.

الخيبةُ وإحساس المطرود قد خدرا حواسه الأخرى. تأكد أنه لن يراها. هذه المرة لا تشبه المرات السابقة. حدث في مرّاتٍ أخرى أن قالت له:

- إذا سافرت هالمرة ما رح تشوفني بعد..

لكنها كانت تعود وتبحث عنه ويراها. الأمر الآن مختلف. شيء ما قد حدث. لم يتعرف عليه بعد، شيءٌ سيأخذ منه الكثير من جلسات الاستدعاء والمقارنات ليصل إلى استنتاج يستطيع الارتكان إليه. حتى ختمت هي ذلك الشيء الغامض الذي يداوره في رأسه

بنصيحتها الغريبة:

- نصيحتي لك إن فكرت بالزواج.. ابحث عن مطلّقة تكبرك بالعمر.

وجد نفسه يسأل ببلاهة:

- وهاي ليش؟.
- قد تكون أقدر من غيرها على لملمة أحلامك.. أنت تحلم كثيراً.

«أحلم كثيراً.. نعم أنا أحلم كثيراً.. أنا ممنوعٌ من الصرف.. ومعلّق.. أنا الجسر المعلّق»، سمعها تقول أو تسأل:

- بعد كلّ هذا، ألا تجدني امرأة عادية..؟.

لعلّه أراد مماشاة النبرة الساخرة في سؤالها، نظ أمامه المقطع الشعري الوحيد الذي ظل عالقاً في رأسه. قال:

- كلّ الجسور موصلةٌ إلا المعلّق.. هذا أمره أمراً.
- هاي وين رحت؟.
- أمينة أنت سامعة بالشاعرة (لميعة عباس عمارة)..؟.

أومأت برأسها مع ظلّ ابتسامةٍ ارتسم على شفتيها، ثم قالت وهي تنتهي من قضم حبة الزيتون:

- لو أنبأني العرّاف.

مفاجأة جديدة. هذا عنوانٌ آخر ديوانٌ صدر للشاعرة قبل سنتين. شعر بارتخاءٍ في فكه، كأنه تلقى صدمة على وجهه. كان يظنّ أنها أبعد ما تكون عن دنيا الشعر. أكملت:

- وهي من قالت:

أرد أسالك وبحسن نيه امحلفك بالله ترد ربك بيوم الصورك جم يوم
طينك نكعه بماي الورد؟.

أردفتها بضحكة ومدت يدها عبر الطاولة الفاصلة

بينهما لتقرص خده.

- بس هاي مو أنت.. لا تروح زايد.

ضحك هو أو لم يضحك. لم يستطع مجاراة الانعطافة المفاجئة في مزاجها. كأنهم يتبادلون الأدوار.. هي غادرت حزنها وعبوسها وعادت إلى سجيّتها الساخرة الممازحة المرحة.. بينما هو ارتدى وجهها الذي كان قبل قليل. أظلمت ملامحه وغار في أعماقه يداور قرارات مصيرية..

- وبعدين؟.

سمع صوتها كأنه آتٍ من خارج الشرفة. شرب ما تبقى في كأسه. ثم قام من جلسته واقترب منها. مسك رأسها بيديه الاثنتين قبلها وأنسحب. لم يشأ توديعها. فتح باب الغرفة وسط دهشتها وقبل أن يخرج، قال:

- أما أنا فقد أنبأني العرّاف.

أغلق الباب وخرج. قامت وراءه.. نادته. لم يرد. لم تفتح الباب، لكنها ظلت تسمع وقع حذائه على بلاط الممر الصقيل حتى اختفى الصوت.

ثمّة مشكلة فنيّة ستواجهني. أو ستواجه خالد زوال. لا أدري كيف سيتعامل مع تلك المخطوطة التي وعدني بها في الليلة السابقة.. هل يدعها تتكلم عن نفسها دون ما تدخل منه. هي مخطوطة، شيء له حجم ولون ومضمون، كانت بحوزته حين كان جسداً وروحاً. الأجساد تبلى، تتحلل، تعود إلى التراب، لكن الأرواح تصعد إلى السماء متخفّفة من كل عوالق الأجساد وآثارها.. والمخطوطة أثر. أين هي الآن؟، أيكون قد أتلفها، خبأها في مكان ما، أعطاها لأحدهم.. أو صادروها منه قبل ترحيله إلى حفرته الجماعية..؟، كل تلك الاحتمالات ممكنة. لم يخبرني بعد شيئاً عنها. لكن يبقى من المؤكد والذي لا جدال حوله؛ عدم قدرته لا هو ولا غيره، أن يأخذ معه شيئاً إلى عالم الأرواح. لن يأخذ من هذه الفانية غير التراب «من التراب أتيتم وإليه تعودون». لعله يفكر في إرسالي إلى أحدهم في مكان ما، لأستردها، وأضعها مع لياليه القمرية.. هل يفكر بهذا حقاً..؟، لأني ببساطة سأرفض.. لن أفعلها.. ليس لي المزاج ولا المقدرة على تحقيق مثل هذا الطلب. سأقول له: «سوري، عفواً، آسف، أعذرني، أعفني من هذا». نقطة، رأس سطر جديد، فصل جديد، بداية جديدة.. علها تكون سبباً لي في نسف هذا العمل كله، الخلاص من هذا الالتزام الذي غدا مملاً لي، بل هو أكثر مللاً حتى من كائناتي المشوهة. لقد بدأ رحلته معي في ظلام دامس، لا أعرف شيئاً عن الخطوة القادمة. لم يترك لي إلا التوقع والنكوص إلى الخلف، علّني استشف شيئاً عن القادم. أقضي الليالي التي لا يأتيني فيها في مراجعة القديم من بوحه. نعم، سأفعلها وأنجو من هذا التيه الذي وضعني فيه. سأواجهه هذه المرة، سأخرج من استلابي وسلبيتي، هذه التي حولتني إلى آلة تطبع ما تؤمر به، هو يملي وأنا أكتب.. أين شخصيتي، بصمتي، اعتراضاتي.. لا شيء. تحولت إلى ناسخ.. أو كما كانوا يسمون أمثالي في الزمن القديم: رقيع. وهذه بحد ذاتها شتيمة..

- لا تتمادى كثيراً أيها الرقيع..

هذا هو. لقد شرفني أخيراً بإطلالته. بل هو يضحك.. يقهقه. لا أدري ما الذي يضحكه.. لعل إحدى الأرواح هناك

أسمعته نكتة..

- ما أضحكني هو استهانتك بالرقيع.. واضحٌ أنك لم تدرك بعد أهمية الرقيع والناسخ في تأريخك. جمهرة الرقعاء والنساخ يا صاحبي، هم من أوصلوا آثار أسلافك إليك.. من هو ابن رشد، ابن خلدون، الغزالي، أبو حنيفة، جعفر الصادق، أئمة الفقه الأربعة، التوحيدي، الفارابي.. ثم القرآن هذا الأثر العظيم..؟؟، من هم هؤلاء جميعاً؟، لولا جمهرة النساخ والرقعاء، أولئك الذي أذابوا أجسادهم وأعمارهم على ضوء قناديل لا تضيء نفسها، وهم منكبون على نسخ الرقع المتوارثة عبر الأجيال، الرقع التي حافظت على تاريخك، التي كانت مثابات لعلمك الراهن، لتكنولوجيا وعلوم زمانك.. كل هذا وتعتبر الأمر شتيمة.. يا رقيع؟.
- طيب، اترك الآن الرقعاء ورقعهم، وأجبني كيف ستقدم لي مخطوطتك الموعودة.
- أنت لا تعرف شيئاً بعد عن عالم الأرواح. تعتقد أن الأمر معضلة. وهو ليس كذلك. للأرواح ذاكرة، هي نفسها ذاكرة الجسد. حين يفنى الجسد تنتقل ذاكرته إلى الروح، وإلا كيف ستواجه ملائكة ربك هناك دون ذاكرة. ألا سألت نفسك هذا السؤال؟.
- لم أسأله.. ولن أسأله.. لأني ببساطة لا أعتقد أن ربي هو ضابط أمن.. أو له علاقة من أي نوع مع حزب البعث.

تعجبني وأنت تنزّه ربك. على أية حال لن أحدثك عن عالم الأرواح.. هذا سر غير مسموح لي البوح به. لكني أخبرك فقط؛ أننا نرفل بحرية غير معروفة في عالمك، حرية الحركة والمعرفة. وإذا كنت أستطيع قراءة ما تكتبه الآن، لماذا لا أستطيع أن أملي عليك ما أقرأه في تلك المخطوطة. لن أدلّك على مكانها، هذا لم يعد مهماً.

هي في مكان ما من أرشيف الموتى. هل سمعت بهذا الأرشيف؟، لقد واجهوا هناك معضلة حقيقية.. ماذا يفعلون بمخلفات المسفَرين (ليس المسفَرين إلى إيران)، بل المسفَرون إلى عالم الأرواح عبر تعاقدات واتفاقات مع ملاك الموت..؟. أخذت تلك المخلفات على بساطتها تتكاثر، وتفترش لها رفوفاً تتصاعد كلّ يومٍ في دهاليز مكتظة أصلاً، مخلفاتٌ ليست بذات الأهمية التي تستدعي الاحتفاظ بها. لم تكن أكثر من خرقٍ بالية كانت على أجسادهم قبل الرصاصة الأخيرة، وثمة حليٌ نسائية قليلة وأوراق. متورّطون بالروتين والأوامر العليا. قديماً قبل الطوفان، كما تحب أنت أن تصف الأمور، كان الحلّ بسيطاً وعادلاً إلى حد ما. يعيدون مخلفات الميت أو الذي أماتوه إلى ذويه، ورثته، ومعها ذلك الخبر الباتر الذي يشبه حد السيف (فلان قد مات، أعدم، شُنق)، خلص، انتهى الأمر، مع هذا الخبر وتسليم التركة تنتهي مسؤولية الجناة. سيحزن أهله وقتاً يطول أو يقصر تبعاً لتداخلات عديدة.. والزمنُ ممحاةٌ هائلة تنظف ما يتراكم في عالمكم من الحكايات والقصص والغرائب اليومية.

لكن ما حدث وما زال يحدث بعد الطوفان، أن أعداد (فلان الذي أعدم) قد تضخمت وتكاثرت بشكل مربك، تكاثر وتضخم استفز الحسّ الأمني، ورجال الطوفان كما تعرف أنت حريصون على الأمن. لذا وجدوا أن الطريقة القديمة هي مخلفات ماض عليه أن يكون ماضياً. أما الحاضر والمستقبل فهو بين أيديهم، عليهم أن يكونوا أكثر حرصاً. لذا قرروا التوقف عن ممارسة تلك العادة واستبدالها بآلية جديدة، أسميها أنا آلية الفقدان. لا يوجد لدينا موتى أو معدومون، بل لدينا غائبون، مفقودون، لا نعرف عنهم شيئاً. في النهاية وجد مبتكرو هذه الآلية الجديدة لمسة إنسانية شفافة في ابتكارهم، هي عدم إيذاء الأحياء، من مات قد مات، لكن الحيّ لم يمت بعد، عِلامَ ننغزه بالأخبار المحزنة وننغص عليه حياته (الحيُّ أولى من الميت)، ثم أنّ الإنسان بطبعه يميل إلى الانتظار، في الانتظار ثمة أملٌ، فرح، سعادة، كلها ستأتي

مع قدوم المنتظر الغائب.. لندع الناس يخوضون حياتهم بانتظار الفرج الذي سيأتي مع المنتظر.

هكذا قرّروا: الخرق تُحرق.. والحلئ تصادرُ من أول واجدٍ لها، أما المخلفات الورقية فأحالوا أمرها إلى دوائر مختصة، تجري هناك عملية فرز وأرشفة، الأوراق الثبوتية يمتصها الأرشيف العملاق المتمدد تحت سطح المدينة، والأوراق الأخرى الحاملة لبصمات أحياء آخرين، أدخلوها إلى أرشيف (تحت اليد)، تجري عليها مراجعات دورية، للوصول إلى من تدل عليهم تلك البصمات. وبصمات مخطوطتي كانت تشير إلى كائناتٍ إما أن تكون قد سبقتني إلى عالم الأرواح، أو هي قد هاجرت بعيداً عن سماء الطوفان. لذلك وضعوها تحت اليد. وأخيراً، اطمأن، سوف لن أعتمد على ذاكرتي، للمخطوطة ذاكرتها. لذا علينا أن نبدأ يا صاحبي. سأقرأ وأنت تكتب.. يا رقيع..!!.

- ١ -

تماسكت في حيرتي، أو هي أطبقت عليّ. المركزان يتقاذفان السهامَ من ذات الجعبة، والقوس مهترئٌ ينذر بكارثة. تتطاير السهام فوق رأسي، وروحي ممزّقة بين حب تهالكت عليه بقايا عناكب مأفونة، ورغبة متوسلة للانفكاك من أسر المنطقة الحدودية. لا منافذ، لا جسور، لا منطقة حياد تقيني التشظّي.. ولا انكفاء يصيب هذا الدوران في فضاء البيانات المتناسخة.

أسمع ولا أفهم شيئاً. أسمع هذياناً عن كائنٍ خرافي، أرتضى بيع زوجته بحفنة دراهم. ولما تمت الصفقة، فقد زوجته ولم يحصل على الدراهم..

أمي واجهتني اليوم بهذه الشتيمة:

- فضيلة أشرف منك!.
- حتى أنتِ يا أمي؟.

خلال أيام معدودة، تحولت إلى مجذوم يحذره رفاق الأمس، وتهمله الشرطة السرية. وفضيلة حبي المتوهّج أبداً في روحي، فرش أضاعها الجموح والبحث عن الزمن القادم. في وساوسي تساوت الأزمان لم يعد ثمة قادم. هي الضائعة فقط في لجة الأزمان.. وأنا الباحث عن منفذ موعود، عن منقذ يهبط عليّ من السماء أو يقذف به جوف الأرض، ليعيد لي حبيبتي نظيفةً من انهيال فضلات العناكب المأفونة. كنت أرى في عينيها انعكاس الوضوح العجيب في ما أنوي فعله وما عليّ تجنبه.. ماذا لو تواطأتِ معي يا فضيلتي للخروج من شرنقة الفوضى.. ماذا لو تناسيت جموحك وأزمانك وأطفالك الذين سيولدون جميلين في وطنٍ جميل.. أيتفتق كلّ هذا القبح عن جمال موعود؟ هي غابة أطبقت بحبالها على عنقك الجميل، وحولتني إلى شريدٍ يخافه الناس

وتسخر منه الشرطة.. وأخيراً تنبذه حتى أمه. تثاقلت في رأسي الأسئلة حتى غدوت لا أطيقه. أين أجد بديلاً عن رأسي، بديلاً خالياً من الأسئلة، نظيفاً لا أثر للفضلات القديمة بشذوذها، بعنجهيتها، بقادتها، بلجانها، بمركزيّاتها.. لتذهب كلُّ المراكز إلى الجحيم.. لا قيادة مركزية.. ولا لجنة مركزيّة.. يغدرون ببعضهم ويبيعون أسرار بعضهم، والعناكب تتربص بالجميع.. ماذا لو تبعتني يا فضيلة.. تعرفينني دونك كومة أوهام، وساوس، شك، كيس حماقةٍ واندفاع أهوج. لم أكن أخاف السجن ولا الموت، ما أخافه: أن تخذليني حتى أنتِ.. أن لا تصدقيني.. آه.. لو تشاهدين طول الذيل الذي يراه الناس خلفي!، حتى صدقت أنّ لي ذيلاً، ذيل الفشل والندم وحماقات لا أدري إلى أين ستقودني. سئمت الذيول. أرانا في غابةٍ من الذيول، ذيولٍ تتباهى بذيليتها وتتراشق بالتهم الذيلية.. لدينا ذيولٌ ماوية، تروتسكية، جيفاروية، توبا ماروسية.. يتغطرس بين الجميع الذيل السوفيتي بنقاوته الإيديلوجية وطهره الطبقي وتبريره العلمي للذيل وأهميته الاستراتيجية في النضال الطبقي.. وأكثر التباساً من الجميع هؤلاء الذين وجدوا في مياه الأهوار الراكدة وقصبها المتطاول، ما يباهون به قمم السانت كلارا وأحراش بوليفيا.. آه يا فضيلة أيتها الحالمة، الباحثة عن الطهر الطبقي في عهر الطبقات ورمالها المتحركة، عن بروليتاريا العصور وقبضاتهم الفولاذية التي سيكسرون بها رقاب المستغِلين مصاصي دم الشعوب.. ليفرشوا لك حلمك الأخضر الحاضن بين دفتيه بساتينك الخضراء و فقراءك الشرفاء وأطفالك الجميلين.. حلمك لا مكان فيه للصوص وللانتهازيين.. ألوانك خضراء وسوداء، كل ما يتصل بحلمك هو أخضر، وما يتصل بالمستغِلين والانشقاقيين محطمي وحدة الحزب هو أسود.. متى تخرجين من دائرتك اللونية.. لكن معك حق، لعلك تخافين الجذام الذي أصابني وتهامس الرفاق أسيري دائرتك اللونية.. تقولين: لم أعد أفهمك!. معكِ حق، كيف ستفهمينني وأنا أناديك من خلف جدران دائرتك اللونية..

كان الانشقاق عندك ذنباً عظيماً، هو الكفر ذاته لدى المؤمن المستقيم، وهو عندي بارقة أمل، بصيصُ نورٍ في الفضاء القاتم. لأول مرة نتنبه إلى أن لنا عيوناً، وهي للنظر والكشف، لا لإغماضها حين ننام.. رأيت أصناماً تتهاوى، وجيفاً تزكّم رائحتها الأنوف، كانت كلها متخفية بيننا، ضائعةً في لجة الصراخ والهتاف والشعارات الكبيرة..

- إذن أنت مع القيادة المركزية..
- لا. لست معهم.
- رأسي رح ينفجر. مع من أنت إذن؟.
- مع نفسي.. ومعكِ!.

لأول مرّة نصل إلى طريقٍ مسدود في نقاشاتنا. قديماً كانت تسليتنا حين لا نجد ما نفعله، نوعاً خاصاً من رياضة، رياضة غريبة، أسميناها التحديس. كنا نتدرب عليها للوصول إلى لغة جديدة، لغة تستغني عن المفردات المنطوقة، لتحلّ بدلها تلك التي نكتشفها بالحدس. الأفكار والنظريات عندنا تحولت إلى مفردات قليلة، لا جمل طويلة وشروحات.. ما إن ينطق أحدنا بمفردات قليلة، حتى يحدس الآخر البقية. كانت فضيلة جذلة، منتشية بهذا الاكتشاف، حتى هي اقترحت ذات ليلةٍ في لحظة وجد ونحن عاريان في سريرنا..

- حكيم، من الآن لن نقرأ الكتاب مرتين، يكفي أن يقرأه أحدنا ليحدس به للآخر، اتفقنا؟.

أجبتها بعصبية:

- موافق. على ألا يتم هذا التحديس في غرفة النوم رجاء.
- حكيم، هاي شبيك؟.
- أقصد أن تتركي هذه العادة السخيفة.
- أية عادة؟.

- أن تجلبي السياسة والنظريات إلى غرفة النوم!، ألم نتفق على طرد السياسة وتوابعها خارج غرفة النوم، ألم نتفق على أن نفرش لها في الصالون، ندثرها هناك ونتركها لتنام.. ألا ترين أن الحديث في السياسة والنظريات في غرفة النوم يشبه الرقص في جامع..؟.

ضحكت فضيلة في تلك الليلة كما لم تضحك من قبل. كانت سعيدة ومرحة، تود التحليق في فضاء الغرفة، محتصرةً كانت بكدس من الفرح لا تدري ماذا تفعل به.. نصف ذلك كان مرتبطاً بحصولها أخيراً على نقل من تلك المدرسة البعيدة، التي كانت تدرس بها الصفوف المنتهية، إلى مدرسة قريبة من بيتنا، الأمر الذي سيوفر عليها ثلاث ساعات يومياً كانت تستهلكها في المواصلات.. والنصف الثاني من أسباب فرحها، كان معرفتها أنها حامل. قالت لها الدكتورة لمى وكانت عندنا هذا المساء، بعد أن فحصتها فحصاً سريرياً كاملاً: مبروك رفيقة. رفيق صغير في الطريق. صارت تصفق وتقفز، لا تدري ماذا تفعل. ركضت باتجاهي، وكنت أقرأ في الصالون، كادت تسقط وتتكوم تحت قدمي. قبلتني وهي تردد:

- مبروك رفيق.

لم أفهم شيئاً. ماذا حدث لها. ومبروك على ماذا.. لم توضح لي شيئاً. بذات العجالة التي داهمتني بها تركتني وعادت من جديد إلى حيث الدكتورة لمى. وصلني صياحها والهرج الذي عملته هناك. صرخت عليها من مكاني:

- فضيلة! كافي خبصة هاي شبيك؟.

بعد قليل، جاءت مع الدكتورة لمى، إنما هدأ روعها قليلاً، لأن الدكتورة أدخلتها في تعليمات ووصايا. سألتُ مرة أخرى:

- دكتورة! الله يخليك هاي شبيها؟.
- مبروك رفيق حكيم، زوجتك حامل.

- حامل؟.

ما شعرت به لم يكن فرحاً، بل شيء يشبه صدمة الكهرباء، كانت لاذعة، لأنها مفاجأة.. لم نتفق عليها، لم نستعد لها، لكنها مع ذلك كانت لذيذة.. سيأتينا طفل أخيراً.. فكرت؛ سنكون أسرة حقيقية.. وسأقطع دابر لسان أمي التي لم تتركنا بحالنا كل تلك السنين، وهي تنق على رؤوسنا. قلت؛ كانت فضيلة سعيدة تلك الليلة، وبعد أن قلت ما قلته عن الرقص في جامع، قفزت فوقي، وهي ما زالت تضحك ذلك الضحك المجنون.. قبلتني على مدار وجهي، رأيت لون وجهها الحنطي وقد تضمخ بذلك اللون الشفيف الذي يشبه الشفق البكر. نفرت عروق رقبتها وتوتر جسدها. وهي العلامات التي أعرفها. دخلت في الجنون الذي تمارسه حين تكون هي الراغبة في الوصال، جنونٍ كان يصل بها أحياناً إلى الإغماءة.. ذروته استغاثات، هيجان، ثم تأتي الشهقة الأخيرة التي توحي أن ما قذفته كان روحها.. تكومت على صدري، تراخت أطرافها وهمد جسدها بعد أن لفظ ما كان محتصراً به.. طالت نومتها على صدري، شعرت بثقل جسدها، حزّكت جسدي من تحتها، جعلتها تتوسد ذراعي. في تلك الليلة لم أكن راغباً في الوصال، كنت مكتظاً بفوضى أفكار واحتمالات علقت في رأسي منذ سماعي خبر حملها، لكنها لم تمنعني من الاستجابة لرغبة فضيلة والتواصل معها.. بعد وقت لعله طال، وجدتني أخبرها:

- قرأت كتاباً..

وضعت كفها على فمي.. وقالت:

- اترك هذه العادة السخيفة.

رفعتُ كفّها وقلت:

- لكني لا أتحدث بالسياسة.. أردت القول أني قرأت كتاباً طبياً..

- إي؟.

- يحذر فيه الطبيب من هذا الذي فعلتيه الآن، لأن

فيه خطورة على الجنين. يقول أن كثيراً من الإجهاضات تأتي من الممارسة الجنسية العنيفة على الأخص في الأسابيع الأولى.

دفعت يدي من تحت رأسها وجلست في السرير مذعورة، لم تنبس بشيء، إنما الفرح والاسترخاء كانا قد غادرا وجهها وكأنها نزعت وجه الفرح وارتدت بدله وجه العبوس.. وفضيلة حتى وهي عابسة تظلّ جميلة، لجمالها وجوهٌ كثيرة. صارت تتلفت كأنها تبحث عن شيء. أدارت رأسها إلى الخلف، سحبت المخدة من تحت رأسي ووضعتها على وجهي، ثم جلست عليها. صرت استغيث وأرفس بساقي، لا أريد استخدام ذراعي لأني سأؤذيها. كادت المجنونة أن تخنقني.. أخيراً رفعت المخدة وصرخت بوجهي:

- ليش ما منعتني؟.

ماذا أقول لها.. هل تركت لي هي فرصة الاعتراض..؟ غادرت السرير إلى الحمام. طال مكوثها هناك. تبعتها. وجدتها تبكي. لقد صدقت أنها قتلت ابنها. ضممتها إلى صدري، صرت أهدئ من تشنجها ونشيجها مستعيناً بالكتاب إيّاه..

- الطبيب قال أيضاً: أخطر ما يواجه النساء الحوامل في الأسابيع الأولى هو الزعل والانفعالات الزائدة..

في اليوم التالي أخذت إجازة من المدرسة وقصدت الدكتورة لمى في المستشفى. طمأنتها هذه بعد أن فحصتها؛ أن لا خطورة على الجنين، ونصحتها أن تقرأ ذلك الكتاب. أنا الأخر طلبت إجازة من عملي بعد الظهر. حيث أعمل مترجم وثائق في مكتب تابع لشركة النفط في العاصمة. ماذا يريد أن يعمل خريج أدب إنكليزي في هذا البلد؟، قصدت السوق. اشتريت من هناك غداءنا: كباب وملحقاته، مع نفر معلاق نصف شوي، وكمية كبيرة من الكرفس والكراث والرشاد وكل ما كنت قد قرأت عنه في الكتاب حول تغذية المرأة الحامل. حين عادت هي

إلى البيت كان حزن الليلة الفائتة قد غادرها، لم يكن إلا غيمة عابرة. هي مرحة في كل الأحوال ومع كل التقلبات التي عايشناها منذ زواجنا. لم أرها يوماً عابسة، حتى عراكها معي، كان يشبه المزاح، تمزج مفردات التقريع والنقد بالضحك، مرحة حتى مع التعب والجهد الاستثنائي الذي تبذله في المدرسة.. أن تقود صفاً فيه أكثر من أربعين طفلاً في مساحة لا تتجاوز ٢٠ متر مربع، وتظل على طويتها، لا يشوبها العبوس ولا الانزعاج، هذا أمر يشبه الاستحالة.

- ٢ -

دهرٌ مضى وأنا أدور في المنطقة الحدودية، أبحث عن ذلك المنفذ الموعود. كم بعيدةً بدت لي الحدود. أم تراني تخطيتها في غفلةٍ من نفسي ومن الحراس ودورياتهم الراجلة والزاحفة؟، أين هي تلك الأسلاك الشائكة، التي حذرني منها الدليل؟، «لا تقطع شيئاً. لا تغيّر من وضع شيء. تجنبها فقط. ازحف من تحتها. اقفز من فوقها.. المهم أن لا تترك ما يعلّم طريقك. هذا الطريق هو مصدر رزقي. إن رأيت أنوارهم الكاشفة لا تفعل شيئاً، لا ترتبك، انبطح فقط.. هذا كل ما عليك فعله، وبعد ابتعادهم ستتمشى أمتاراً تكون عندها قد عبرت الحدود». أين هي الحدود.. ما زلت ماشياً في فراغ خال من الحدود. مضى على افتراقي مع الدليل أكثر من ثلاث ساعات. أشار إلى امتداد أغبر: «هناك ستجد الحدود». ها أنا أمشي والحدود لم تقترب بعد. الأرض الصلبة تحولت إلى رمال، وهذه تحولت إلى تلال من الرمل، وأنا لم أزل أبحث عن الحدود. لقد نفذ الماء الذي كان معي، والتلال متشابهة، ما أن أتسلق أحدها حتى أجده أمامي منتصباً من جديد. متى ستنتهي هذه التلال اللعينة.. أين أنتِ الآن يا فضيلة.. آه لو كنتِ معي، لطويت كل تلال الأرض دون أن أشعر بهذا التعب الذي بدأ ينخرني. ماذا لو انبثق النهار فجأة وأنا في هذا التيه الرملي؟، كم هو رحيمٌ هذا الليل، علّه يظل رفيقي الأمين حتى أجتاز الحدود. ثقل

جسدي وقدماي أخذتا تتطويان. لقد تخففت من زوائد كثيرة جلبتها معي، حتى القلم وجدته ثقيلاً.. لم أبقِ لي غير هذا اللباس الطويل والفانيلة البيضاء. رميت دشداشتي قبل قليل. لقد هدني التعب، والعطش سكاكين تنهش حنجرتي. تعطل رأسي، لم يدلني على شيء، تنحى عن مهمته القديمة تاركاً لقدمي أن يقودا جسدي المنهك إلى الحدود، حيث لا حدود، غير الليل يجرجر عباءته السوداء إلى الأفق البعيد، سيتركني بعد قليل مع هذه التلال المتشابهة، ألاقي مصيري مع نهارٍ قاسٍ لاحت تباشير لهيبه منذ الآن، لقد انحسرت تلك النسيمات الخجولة التي كانت ترطب السعير في فمي.

أمشي وأرى انبثاق القرص الأحمر الكبير في زاوية الأفق يخرج بطيئاً إنما بإصرار. أراه مثل رغيف تنورٍ مشتهى.. ومعه انبثقت في رأسي المتنحي فكرة وجدتها خارقة، بل اندهشت لبلادتي وغبائي، كيف أغفلتها كل هذه المدة من التيه. كانت الفكرة هي العودة. نعم، العودة من حيث أتيت، ما عليّ سوى تتبع آثار قدميّ المغروستين في الرمل، وهذه ستقودني حتماً إلى نقطة انطلاقي، أو على الأقل إلى تلك الأرض الصلبة التي لا أدري أين خلفتها ورائي. في كل الأحوال هي خير من هذا التيه الذي يلفني. أوقفت مسيري وجلست لأسترد شيئاً من أنفاسي المتلاهثة، ثم بدأت رحلة العودة متتبعاً آثاري على ضوء الفجر الممزوج بضياء قرص التنور. هكذا كأني كنت في لعبة غبية فحواها: أن أصل إلى هذه النقطة من الصحراء لأطبع عجيزتي عليها، ثم أعود ليأتي بعدي متسابقٌ آخر. لكن بعد ما يقارب النصف ساعة من تتبع آثار قدمي، نط في رأسي الإحساس الفاجع بالكارثة القادمة، إحساس شلّ منابع العروق في جسدي، وبلّد الخلايا وملأني بالفراغ المهجور إلا من الريح تصول في حناياه بأصواتٍ مخيفة. ما أن عبرت تلتين أو ثلاث من تلك التلال المتشابهة حتى واجهتني وجهاً لوجه ملامح النهاية الكريهة: ما حصل؛ أني فقدت آثار قدميّ، لم أجدها، لقد محتها الريح أو ابتلعتها الرمال هذه اللعوب.

ما العمل الآن أيها الرأس المتنخي؟، جعلتني ألفَ خلف وساوسك وأوهامك كل هذه السنين، لتخذلني في هذا التيه..؟.

النهار قادم أو جهنم هي القادمة في هذا الصيف الصحراوي. ماذا سيفعل عبدٌ خال من الحسنات بين يدي ربٌ جبار. تطنّ في أذني سخرية الملائكة، وأسياخ أسئلة حسابهم الدقيقة، تلك التي منطلقها: لماذا؟، ومستقرّها جسدي المكتوي أصلاً بقربه من الجحيم. أتراني سأجد السراط المستقيم لو بحثت عنه، هذا الخيط الدقيق كشعرة والممتد فوق فوهة الجحيم، الخيط الواصل إلى باب الجنة.. أسيرُ مترنّحاً على حد الشعرة وألمح من بعيد، هناك حيث الظلال الوفيرة، الماء السلسبيل، أنهار اللبن والعسل والخمر، الولدان، الحور، أرائك الحرير.. هناك كل شيء. عليّ بالحذر وأنا أسير على حد شعرة السراط المستقيم، علني أفلح في العبور إلى ذلك النعيم.

يا إلهي مرّة أخرى أنا في الحدود. كنت في حدود لجنة مركزية وقيادة مركزية، وشارفت على الدخول في حدود بلدين.. والآن أنا في حدود الجنة والنار.. هي لعنة الحدود تطاردني بين حديّ قدري المرميّ في المنطقة الحرام، على هذه الشعيرة الدقيقة.. أوَ تراني سقطت من السراط المستقيم وانتهى الأمر؟، قالوا عنه كحد الموسى لا يعبره إلا المتخفّفون من أوزار دنياهم. إذا، لا يعبره أمثالي من المثقلين بتلك الأوزار.. لا يعبره مجذوم ٌمثلي يخافه الخلق وتتبرأ منه حتى أمه.. لا حل أمامي غير السير. ألا أتوقف هو الحل. نطق رأسي ويا لبؤس ما نطق.. السير حيث اللاهدف.. حاذر من التوقف، أجبر قدميك على حملك أطول مسافة ممكنة!.. إيه أيها الرأس البائس.. وماذا بعد؟، ماذا بعد تلك المسافة الممكنة؟، لا شيء.. ستأتي مسافة أخرى.. ستأتي النهاية الكئيبة. فضيلة سيقضون عليها في جحرٍ من جحور العناكب المأفونة، وأنا في هذا التيه فطيسة عامرة لجوارح الأرض والسماء.. أيُّ ذنبٍ عظيم هذا الذي اقترفته يا

إلهي؟.

- ٣ -

وجدتني محاطاً بأناسٍ غرباء. سحناتهم تدل على أنهم فلاحون أو ربما رعاة. أستطيع أن أفهم لغطهم، يتكلمون اللهجة الجنوبية. لكني، أعرف كذلك أن الناس على طرفَي الحدود يتكلمون ذات اللهجة. أو قل هم ذاتهم، فقط أن الحدود اللعينة قسمتهم. أجد الذين حولي فرحين، سعداء وهم يشخصون بأبصارهم نحوي.. ما بالهم يبحلقون فيّ.. أين أنا.. كيف أتيت إلى هنا؟ لا شيء مهم الآن، ما يهمني أنهم غير خائفين مني. على عكس الناس الذين غادرتهم هناك. حتى أني أراهم سعداء بوجودي. هي المرة الأولى منذ زمن طويل، أجد من لا يحذرني كأني حيوان متوحش أو مجنون.. لقد سئمت تلك السحنات الاستفهامية، لم يبقَ لي مكانٌ بينهم.. بيوت الرفاق القدامى تلفظني من الطرفين، بيوت الأقارب تخافني. عيونهم، ما أن تراني حتى تتهامس بلغطٍ يشير إلى فضيحة. وبيتي.. آه يا بيتي.. هل كنت قادراً على رؤيتك بعد تلك الليلة؟، ما زلت أشعر بارتجاف جسدي من ذلك الرعب الذي شلّني، لم يكن خوفاً من رشاشاتهم المصوبة إلى صدري، ولا خوفاً من التعفن في جحر من جحورهم الكثيرة، بل كان رعباً من عجزي الفاضح عن الدفاع عن فضيلة.. رأيت أحدهم يصفعها أمامي، ثم ركلها آخر من الخلف، سقطت، لكنها نهضت من جديد. كانت شامخة، أبت أن يندّ عنها أي صوت، استغاثة ، توسّل، تأوُّه، هي حتى لم تتأوه من الألم، وصموها بكل ما في قاموسنا البذيء من مفردات. سحبوها من شعرها، لطموا رأسها بالجدار، مزقوا ثوبها.. لم تصرخ، كأنّ الخرس أطبق عليها.. الدماء.. يا إلهي الدماءُ شوهت وجهها الجميل.. شعرها تبعثر في كل الاتجاهات.. رأيت خيط الدم الأحمر القاني يسيل من أعلى فخذيها إلى حد الركبة، من هناك صار يتفرع في خيوط جديدة خططت ساقيها.. وأنا؟. أنا كنت مُخرَساً، عجزي أخرسني،

المفاجأة أخرستني، مثلما أخرستني لكمةُ أحدهم على وجهي، لكمةُ أحدثت دوياً في رأسي وأغلقت عيوني، حتى وجدتني ألوك شيئاً في فمي، قذفته سريعاً مع ملوحة لزجة.. كان أحد أسناني.. قيدوني بالحبال إلى شباك غرفتنا، وبدأوا ينهالون علي بالضرب والركل..

- اتركوه.. لا يقترب أحدٌ منه!.

دوّى صوتٌ من بين تلك الجموع المهاجمة، صوتٌ ارتعد له المكان، وأخرس المهاجمين. صاروا ينظرون إلى عيون بعضهم حين تركوني.. تركوني.. نعم تركوني.. تركوني إلى الأبد.. لكنهم أخذوا فضيلة.. تركوني أقف على أطلالِ وهشيم كان بيتاً قبل هجومهم الليلي المباغت. صرت أبكي مثل طفل دهمه لصوص وسرقوا منه أمه. نعم.. أخذوا مني فضيلة وتركوني.. إنه مزاح.. نعم مزاح.. لكنه مهزلة.. مزاح مهزلة.. كيف يقدر هؤلاء الناس أن يأتوا بمثل ذلك المزاح الأسود.. لماذا تركوني.. هل هم نسوني في زحمة الفوضى واختلاط الأشياء؟، هكذا مثل لعبة صغيرة مهملة تُنسى وسط الفوضى.. أخذوا الطفلة وتركوا لعبتها.. أين أنا.. أين فضيلة.. أما آن لهذا الكابوس البغيض أن يتنحى ويتركني.. أقليلةٌ هي كوابيس النهار، لأصطدم بك في نومي؟، لعلني نمت عميقاً حتى داهمني هذا الكابوس مطبقاً على خناقي.. أحلم أنا.. وهل يكون هذا غير حلم؟ مراتٍ كثيرة حلمت وكنت أدرك أثناء الحلم أني أحلم.. فضيلة نائمة إلى جانبي الآن.. لعلها ما زالت تحلم ببساتينها الخضراء، وأطفالها الجميلين، وفقرائها الشرفاء.. كل الفقراء في عرفها شرفاء.. ما زالت تحلم بذلك المستقبل الذي تتحدث عنه وكأنه أمام عينيها.. هي إلى جانبي نائمة مستغرقة بأحلامها الجميلة، وأنا يستغرقني هذا الكابوس اللئيم.. أتذكر الآن بوضوح، أنها كانت متعبة تلك الليلة. نعم نمنا معاً، تمددت إلى جانبي وتوسدت ذراعي كما تفعل كلّ ليلة.. كان الوقت الذي عادت فيه متأخراً، وأنا كنت أنتظرها. رأيت جفونها مسترخية.. بدت لي أجمل

من كلّ ليلة.. لا أدري، لعلني اشتهيتها هذه الليلة أكثر من بقية الليالي. طلبت منها أن تتعشى. كنت أعرف أنها ما زالت على تلك الأكلة البائسة التي تأكلها في المدرسة في استراحة الظهيرة. لكنها رفضت. ثم نظرت في عيوني وعرفت ماذا أريد. كعادتها تعرفني من عيوني، كانت تقول لي دائماً: أنت لا تستطيع أن تكذب علي إلا إذا تكلمت وعيونك مغمضة. وأنا أعرف أنها كانت في واحد من تلك الاجتماعات التي تكاثرت. غير أن الاجتماع الذي عادت منه، كان يهمني شخصياً، كان من المفترض أن يناقشوا فيه نوع العقوبة التي سيوجهونها لي، بسبب رفضي إدانة الانشقاق الذي شق الحزب طولاً وعرضاً. قالت:

- حكيم آني تعبانة. لا تنتظر مني شيئاً. تعشيت أنت؟.
- ما أنتظره هو ردّ المكتب السياسي على رسالتي.

ظلّت واقفة. هزّت رأسها بعنف كأنها تريد أن تخرج منه شيئاً عالقاً. توقفت عن الهز، لعل ذلك الشيء العالق لم يخرج.. أدارت عيونها في أرجاء الغرفة. ثم عادت إلى نفسها، خلعت بلوزتها، كان أحد النهدين الصغيرين نافراً متمرداً برأسه المدبب خارج السوتيان. أعادته إلى داخل غمده وخلعت التنورة.. بان عريها الجميل المُشتهى، وضجت برأسي الدماء. أنا حقاً كنت أشتهيها تلك الليلة، رغم كل المصائب والملابسات التي تسوّر وجودي في الحزب وخارجه، كنت أفكر فيها تلك الليلة.. ذهبت إلى الخزانة، أخرجت ثوبها البيتي ودخلت فيه. عادت إلى السرير، تمددت إلى جانبي، توسدت ذراعي.. وبعد برهة صمت، نطقت بصوتٍ كظيم:

- حكيم أكو خطأ مو طبيعي. لدى قيادة الحزب تصوّر غريب عنك.
- هو نفس التصور الذي لدى القيادة المركزية عني. كلاهما يتصوراني أعمل للآخر. هذا أعرفه. وماذا بعد؟.

- بالضبط. هذا ما يعتقدونه.
- وماذا بعد؟.
- قرّروا طردك من الحزب.. وأيضاً.. تجميد عضويتي أنا.

خَفَتَ ضجيج الدماء في رأسي، وداخلني قرفٌ من شيء محدد، شيء أعرفه تماماً، سوى أن ملامحه صارت تتناسخ على وجوهٍ توزعت طرفي الصراع. لقد صرخت، وأردت صرختي تلك في ذلك الوجه المتناسخ المتحول:

- وأنتِ ليش؟.

لم تجبني. ظلت منكمشة على صدري، كأنها خائفة من عفريتٍ سيفترسها حالاً. عدت إلى هدوئي، عدت إليها:

- فضيلة، أنا الآن لا يهمني أحدٌ في هذا العالم غيرك. هل أنت مقتنعة بما يقولونه؟.
- حكيم أنت تعرف رأيي. هناك خطأ في مكان ما، سبّب كل هذا الالتباس حولك. ثم لا تنس، أنت لم تساهم في إزالة هذا الالتباس.. من جهة لا تريد أن تدين سلوك القيادة المركزية الانشقاقي، تبرّر لهم كل ما قاموا به بحقّ الحزب، ومن جهة أخرى تريد أن تبقى مع الحزب.. أرجوك حكيم حدد موقفك.

سحبت يدي من تحت رأسها، ورحت أبحث عن سجائري..

- سنعود إلى ذات الجدل العقيم، وإلى ذات الخيارات البائسة.. الذين انشقّوا عن الحزب لم يفعلوا ما فعلوه لولا سلوك اللجنة المركزيّة وبيان آب اللعين، وهؤلاء يتعكزون على سلوك القيادة المركزيّة.. إننا في دائرة قذرة. أنا أريد الخروج من هذه الدائرة..

صرتُ أدخن وأنا أمشي في الغرفة من الجدار إلى الباب وبالعكس. تنبهت إلى أنها هي الأخرى جلست في السرير وأخذت تدخن. سحبت السيجارة من فمها

وفركتها في المنفضة. لم تعترض. قلت وأنا أعود إلى مشيتي المحاصرة بين الباب والجدار:

- صدّقيني فضيلة ولا واحد منهم يعرف ماذا يريد. يريدون السلطة؟ هه.. السلطة أمام عيوننا، وهي لا تحتاجُ إلى كلّ هذا اللغو؛ انتفاضةٌ في الأهوار، انتفاضةٌ شعبية من المدن.. تحتاج قوةً قليلة من الجيش تكون قرب بغداد وعقلاً يدير العمل. وهذه متوفرة للحزب.. من زمانٍ وأنا اسمع عن (خط حسين).. ليش كل هذا التعقيد؟.
- تقصد تنظيم الحزب العسكري.. بس هاي عقلية انقلابية. دفعنا ثمنها في تموز ٥٨. العسكر سيطروا، لكن ماذا فعلوا؟.
- إذن ماذا نريد؟.
- تغيير جذري.
- وكيف يأتي هذا؟.
- من العمل مع الجماهير. حكيم قضيتنا ليست فردية، هي قضية الناس..

طال نقاشنا تلك الليلة، ولا أدري من منا نام قبل الآخر. ما يهمني الآن.. فضيلة موجودة إلى جانبي، متوسدةً ذراعي.. لم يأخذوها.. وما هذا إلا كابوس تمادى معي، ظاناً أني أصدقه، كابوس، نعم كابوس ثقيل، لكن سأنجو منه.. كم هو لعينٌ هذا الكابوس يطاردني كلما تطلعت حولي في الركام الذي كان بيتاً، بعثروا كل شيء، نبشوا المكتبة والدواليب، قلبوا سريرنا، لم يتركوا شيئاً على حاله.. الشيء الوحيد الذي تركوه هو أنا!!!.

الغرباء من حولي يتحوطونني، وهم يبحلقون فيّ مندهشين. قلت:

- أرجوكم آني وين؟.

ردّ أحدهم، كان واضحاً أنه كبيرهم، من نبرة صوته

المتأنية وإنصات الآخرين له:

- أنت بأمان وليدي.. الحمد لله أنت حي. ظنيناك ميت. ما تـگلي اشكنت تسوي بالـچذابة؟.

إذا، المنطقة التي كانت تتقاذفني تلالها المتشابهة اسمها الكذابة. أيّ اسم قاطع الدلالة هذا.. وأيّ حكيم الذي اختاره لك أيتها الرمال الكذابة.. تذكرت حالاً؛ أن هذه المنطقة تتقاسم الحدود كذلك. عاد قلقي من جديد:

- بس آني هسه وين.. بالعراق.. لو بإيران؟.
- وليدي احنا عرب هنا وهناك.. المكان اللي تريد توصله احسب روحك وصلته. احمد ربك الراعي لـگاك بآخر نفس.

نط بوجهي شيخ متهدم، كأنّ السنين قد أكلته وتركته هيكلاً تلفه دشداشة لا يُعرف لونها الأصلي وكوفية من غير عقال، على طريقة الرعاة أثناء ممارسة عملهم.. ابتسم لي الشيخ ودنا مني كأنه يريد الاطمئنان على صيده.. ثم عاد إلى مجلسه عند باب المضيف ومن هناك نطق:

- الحمد لله رد الدم بوجهه..

جلست، وكنت نائماً على بساطٍ صوفيّ. نظرت إلى منقذي وشكرته بأفضل ما عندي من جمل وعبارات الشكر. وكان هو يبتسم ويهزّ برأسه، كأنه يطالبني بالمزيد من عبارات الشكر. شعرت حالاً بدوخةٍ وأصواتٍ مختلطة في رأسي.. لكني لم أشعر بالعطش، وهذا ما أدهشني.. لقد زايلني العطش تماماً، لعلني في غيبوبتي شربت الكثير من الماء، ثم وجدتني مرتدياً دشداشة رمادية لا أدري متى ارتديتها، الذي أذكره أني كنت في الفانيلة واللباس الطويل.. بعد برهة جلب أحدهم دلة القهوة، وقدم لي فنجاناً. شربته دفعةً واحدة رغم سخونته اللاذعة، شكرته، لكنه أردفه بفنجان آخر، شربته، وشكرته كذلك.. حتى تذكرت تلك العادة التي سمعت عنها من أحد الرفاق يوماً، قال: عادة العرب إذا لم تهز الفنجان

فوق رأسك.. يظل الصابوب يصب لك القهوة حتى يفرغ الدلة.. هز الفنجان فوق الرأس هو دلالة الاكتفاء. رفعت يدي بالفنجان وهززته فوق رأسي. بعدها تركني وعاد إلى دلال قهوته عند باب المضيف...

الليلة كان مقرراً وصولهم إلى ميناء العاصمة التونسية. غير أنّ اشارة استلمها الكابتن من هناك، طلبت تأخير سير السفينة، لأن الميناء مكتظٌ، وقد لا يجدون مكاناً للرسو. انشغل البحارة بإخفاء بضائعهم المهربة، في أماكن مختارة من السفينة، لا تصلها أيادي رجال الجمارك حسب تجربتهم. ولكلٌ كانت طريقته ومخبأه الخاص به. خالد زوال تساءل مع نفسه أولاً: لِمَ شراء كل هذه الكمية من الويسكي وعلب سكائر المالبورو، ولِمَ الإخفاء؟، كأنهم مقبلين على حرب، أو أنّ كارثة ما ستحلّ بالسفينة. مع أنّ مخزن السفينة كما هو والأسعار ثابتة. إذاً لِمَ كلّ هذا التخزين. أحال سؤاله إلى حسن المصري. كان هذا متوجهاً إلى مكانٍ ما في عنبر السفينة، وبيده كميات كبيرة من السجائر وقناني الويسكي. أخبره؛ أن السفينة عند دخولها المياه الإقليمية لأي بلد، فإن مخزنها يُغلق، لأنه محسوبٌ على ملاك الأسواق الحرة المعفية من الضرائب. ثم أردف:

- اشتري لك كم قنينة ويسكي، وكم كروس سكاير.. وأنا أعلمك كيف تخفيها..
- لكني غير محتاج. عندي سجائر ولا أحتاج الويسكي الآن..
- الله!!، أنت مش عاوز تطّلع مصروفك، وإلا إييه؟.
- مصروفي؟، آه.. هسه افتهمت..
- يا رجل الحاجات دي نبيعها في الموانئ العربية.. ولما نكون في الموانئ الأوروبية بنبيع حاجات تانية.
- حشيشة؟.
- ليه لا.. المهم ما ناكلش المرتب الشهري، يظل زي ما هو.. كده نضمن المستقبل.. وإلا إييه يا عراقي؟.
- المستقبل.. المستقبل..

ردد المفردة كأنه يحاور نفسه:

- أيوه المستقبل.. الله.. وإلا أحنا متغربين ليه.. تقدر تقول لي؟.
- المستقبل بالنسبة لي يا حسن.. هو سفينة مبحرة في المجهول..
- نعم..؟.
- أقصد، لا توجد في ذهني أيّ خططٍ لهذا المستقبل.
- ألله.. طب أنت ليه سبت بلادك أصلاً؟.
- هذا سؤال محيّر لي.
- ما تواخدنيش.. لا تكون ...؟.
- قلها. هارب. آني هارب من الحرب.
- ما قصدتش حاجة..
- الحرب محرقة.. شفت البشر أمامها مثل عشبٍ يابس تسمع له هسيس ولا ترى غير الدخان..
- ما تزعلش كده.. أنا كمان هربت من العراق..
- من العراق؟.
- أيوه. هربت من العراق. ومش عاوز أشوفه تاني. ذقت العذاب.. كده زي ما تقول هربت بهدومي.. حتى جواز سفري صادروه مني.
- لازم سويتلك مكسورة؟.
- لا مكسورة ولا معمورة.. دي قصة طويلة حتسمعها مني بعدين..
- بس في مصريين عملو مشاريع العمر.
- أقولك وما تزعلش؟.
- ليش أزعل؟.
- أنا كرهت العرائيين.. كده كرهتهم كلهم..
- ليش؟.
- أنتم يا أخي شعب بدوي صعب. أنا مش قادر أفهم

همه كانوا بيعاملونا كده ليه.. كانوا يعاملوننا كأننا الإيرانيين اللي بيقاتلونهم في الجبهة.. طب ليه؟، ما أحنا نبنيلكم البلد وسايبينكم تحاربوا زي ما انتوا عاوزين.. تضربونا ليه، بتعذبونا ليه..؟.

- أعتقد هو هذا السبب.. بتبنوا انتم البلد وسايبينا نحارب..
- مش بأقلك انتم صعبين..
- أنا لا أعرف ما هي مشكلتك بالضبط مع الحكومة.. بس أعرف إن الشعب العراقي لا يريد الحرب أن تطول.. وأنتم بأعدادكم الكبيرة في البلد، والأعمال التي تقومون بها بدل الجنود على الجبهة.. تساهمون بإطالة عمر الحرب..
- ولما هَمّه كده، بيقاتلوا بالجنون ده على الجبهات ليه؟.
- دائماً هناك سبب يبدو معقولا، حين يتعلق الأمر بالدفاع عن النفس.. ولدى البعض الدفاع عن الوطن. بس أنت ليش هربت وتركت فلوسك؟.
- يا سيدي قلتلك دي قصة طويلة. سيبني أروح اخبئ الحاجات.
- سيبك من الحاجات.. حتخبيها.. هو أحنا ورانا إييه.. ما دمت أشتريتها حتخبيها. بس أحكيلي القصة.

كانا عند السلم النازل إلى سطح العنبر. وضع حسن مهرباته على مقعد كان قريباً وجلس. طلب من خالد سيجارة. أخرج هذا اثنين من علبته أشعلهما مع بعض، ثم قدم واحدة إلى حسن، وجلس على حافة السياج الحديدي من تحت ليقابل حسن. كانت المسافة الفاصلة بينهما هي مسافة الممر الضيق. بدأ حسن بسرد قصته:

- كنت يا سيدي باعمل في مصنع بيقولوله الزيوت النباتية..

ضحك خالد وقال:

- نفس المصنع الذي يعمل به أبوي.
- لا والله.. أكيد بعرف أبوك.. بعدين حاسألك عنه. وكنت باسكن مع أصدقاء مصريين، زي ما تقول سكن مشترك، كنا أكثر من عشرة في بيت واحد في حتة بيسموها (البياع).. تعرفها؟.
- سامع فيها.
- بتقول سامع فيها.. أنت مش عراقي!.
- هو يعني أنت بتعرف مصر كلها؟.
- آه صحيح.. على فكرة، هو كان بيبيع إيه؟.
- مين؟.
- البيّاع.
- كان يبيع نِعل.. سيبك منه.. كمل!.
- العمل كان ماشي والسكن كويس.. في يوم قالوا في المصنع عاوزين عناصر أمن صناعي.. قلت: ومالو.. ما دام الراتب ضعف والتحويل مية بالمية خليني أجرب. كنت فاهم في الأول حنشتغل أمن في المصنع.. حراسة، مراقبة مكائن، بضائع وأشياء من دي كانوا بيقولو عنها السلامة الصناعية.. أو الأمن الصناعي.. مش كده؟.
- حسن!، بس لا تكون اشتغلت مباحث؟.
- ما أنا جايلك في الكلام.. قول؛ شهر تدريب، شهر دورات، شهر مش عارف إيه.. قلت يا ولد هاي شغلانة كويسة.. ثلاثة شهور راحة وآخر انبساط.. كنت لسه مش عارف همه مخبين إيه.. وجا الشهر الأخير، صاروا يدربوننا كيف بنحصل على المعلومات من المصريين والعراقيين، مع أن العراقيين كانوا في أغلبهم ناس كبار في السن.. أكيد أبوك واحد منهم..

بيقولو إيه، يعملوا إيه.. إيه رأيهم في الحكومة.. رأيهم في الحرب.. يعني شغل مباحث.. وأنا لو سألتني إيه بتكره في الدنيا، حأقولك بكره المباحث.. قلت لا. لحد كده وبس. فكرت الحكاية سهلة، زي ما دخلت حاخرج، فيها إيه يعني.. مش عاوز، خلص مش عاوز.. بس دي الحاجة اللي حسبتها سهلة كركبت الدنيا فوق دماغي.. رحت للمسؤول قلت له:

- سيدي، أنا عاوز أرجع لشغلتي الأولانية، أقبض مرتبي كل شهر ومليش دعوة بحد..

قال:

- يعني اشتقصد.

لفظها حسن باللهجة العراقية المفخمة.

قلت:

- مش عاوز اشتغل مباحث.

لما قلتلو كده، زي ما تقول كفرت.. شفت عيونه حتنط من وشه. قام وضربني قلم، بعدين ضرب الجرس، ونادى على عسكريين كانوا بيدربوننا.. جرجروني، ضربوني.. وأخيراً رموني في حفرة تشبه حفرة الجرذون.. ما شفتش في الحفرة حاجة، غير ظلام وحيطان تراب.. كانوا بيرموا علي كلي يوم صامولتين وشوية مرقة..

- قصدك صمونتين.
- أيوه.. صمون.. آه صمون.. أنا عارف أنتو بتجيبوا الاسماء دي منين. بعديها مش عارف مضى علي كم وأنا في الحفرة.. أخذوني من جديد للمسؤول. سألني:
- ها.. حسن.. بعدك ما تريد تشتغل معانا.

حسن يحاول أن يلفظ المفردات باللهجة العراقية.

قلت له:

- سامحني سيدي.. أنا بعرضك كنت مغفل، مش عارف حاجة.

قال:

- وهسه شلون صرت؟.
- يا سيدي أنا مستعد أعمل عمايل. بس ما ترجعوني للحفرة دي تاني.

ضحك المسؤول. وسأل:

- يعني ما تفكر تفل؟.
- أفل ده إيه..؟.

قال وكأنه ما زال في شك من أمري:

- بس شنو رأيك ترجع للحفرة كم أسبوع. يعنى حتى ينفتح مخك زين.

صرت أتوسل به:

- سيدي والله العظيم ما كنت عارف حاجة.. الله يستر على عرضك، سامحني..

توسلت، وبكيت، وحلفت، كنت عاوز أخرج من الحفرة بأي ثمن. بس أنا مع نفسي، قررت الهروب. تميت معاهم كم أسبوع كده لحد ما يطمئنوا. بس جواز سفري ومرتباتي كانت محجوزة. قلت: طز. ربك يعدلها. كان لي صديق مصري الله يستر عليه. الرجل ساعدني. شافلي واحد هربني على البصرة ومن هناك على (الكويت)، وأعطاني كمان فلوس. ومن هناك طلبت من السفارة المصرية جواز سفر بدل مفقود. عملت على باخرة، ومن باخرة لباخرة حتى وصلت للباخرة دي.

رمى سيجارته إلى البحر. أفرغ صدره من الدخان بصوتٍ مسموع. ثم أردف وهو يلوّح بيده فوق رأس خالد:

- كرهت اليوم اللي سافرت فيه للعراق وفكرت بالعراق.. ناس متوحشين، محدش يقدر يفهم همّه

عاوزين إيه.. ما تواخذنيش..

حسن لم يفهم العراقيين. وأنا.. هل أفهمهم.. كيف سأفهمهم وأنا لم أفهم محمود وهو أقرب الناس إليّ، محمود الذي غمضت تحولاته حتى عليّ. قلت في نفسي أن محمود داخلٌ في ازدواج عجيب للشخصية. وجدت هذا التفسير معقولاً، ليس لأنه كذلك، بل لأني لم أعثر على غيره يفسر لي تلك الانعطافة الحادة التي حصلت معه. من جهة، لم يكن على علاقة ودية مع الحكومة وحزبها، بل هو يكره الحكومة.. ويكره البعث كأيّ شيعيّ يشعر بالمظلومية، وفوق هذا متزمتٌ في تدينه، يؤدي كل فروض الصلاة والصوم وما إليها.. ورغم هذا وذاك يدخل ذلك الدخول المجنون في الحرب التي شنت ضد أول جمهورية إسلامية للشيعة. كان إذ يصل في إجازة يستعجلها للرجوع إلى وحدته، كثيراً ما تنازل عن حقه في الإجازة.. حتى نال أكثر من نوط من تلك الأنواط التي تمنح لشجاعة الجنود. ولما قُتلَ، قيل أنه قبل البندقية التي نفذت ذخيرتها. وخرج إلى الدبابة ليدعها تسحقه. هكذا اذعى الجندي الذي جلب لأهله تابوتاً فارغاً ملفوفاً بالعلم العراقي. مقتل محمود بتلك الطريقة التي رواها الجندي الذي جلب التابوت، جعلت خالداً يشك في الرواية.. لعل ذلك الجندي ملقن حزبياً وهذا أمر وارد، لإثارة حماس الشباب وبالمرة للتخفيف عن الأهل من وقع المصاب كما يعتقدون. لكنه خالد، يعرف كذلك أنّ محموداً كان متورطاً بشجاعته، يمتلك منها كماً زائداً على الدوام. ذات الشجاعة التي جعلته يصفع قائد فوجه في ساحة التدريب. بل، وسحب عليه الحربة. ولولا تدخل الجنود كاد أن يقتله. وكان مقدراً لمحمود الإعدام أو التعفن في السجن، لولا شهامة ذلك الضابط الذي أنقذته. بعد أن استردّ الضابط أنفاسه قليلاً وعاد إلى مكتبه. كان الشعور الوحيد الذي حمله لذلك الجندي هو الإعجاب. وجده جندياً حقيقياً، لأنه لم يقبل الإهانة والتقليل من شأنه. وهو ضابطٌ حقيقي يعتز بجنوده الشجعان. لذا، أمر بإلغاء التحقيق في القضية وإخراج

محمود من السجن الذي رموه فيه. وفوق هذا منحه إجازة نزولٍ استثنائية لرؤية عائلته.

- أنت ضربتني في ساحة التدريب، لأني أهنتك وشتمتك. القانون العسكري يبيح لي حتى قتلك. لكني أحب الجنود الحقيقيين.

كان ذلك الضابط حسب محمود، ليس مزيفاً مثل سائر ضباط اليوم، الذين يصلون إلى نجومهم زاحفين على بطونهم. حصل ذلك قبل الحرب، وكان إثر شتيمةٍ عادية لا تخرج بعيداً عن شتائم الضباط التي اعتاد الجنود أن يبتلعونها دون منغصاتٍ تخزّ الصدور، بل إن من الجنود من يستمرئ تلك الشتائم ويعتبرها دليل مودةٍ وقرب من ذلك الضابط. عاد خالد زوال يستذكر ذلك الحديث الذي سبق مقتل محمود بأسابيع قليلة. الحديث الذي كان علامةً فارقة أرّخت انفصال الصديقين إلى الأبد: قال له خالد في تلك المحادثة متوسلاً:

- محمود ستضيع حياتك بلا معنى. امسك نفسك قليلاً.

أجاب محمود بابتسامته الجديدة، التي كانت مزيجاً من غطرسة على تواضع قديم:

- أرى الجبن يتكلم بدلاً عنك.

استشاط خالد غضباً من تلك الشتيمة:

- محمود تعرفني لست جباناً... لكني لا أريد أن أموت ميتة كلب.
- ستكون شهيداً.
- نموت أنا وأنت بدل الكلاب الجالسين على صدورنا. اصح إلى نفسك.
- أنت تدافع عن أرضك وعرضك؟.
- انطلت عليك أكاذيبهم.
- وأنت السياسة وكرهك للحكومة أعمى بصرك.

حماوة النقاش جعلت البرد يدبُّ في أوصال الصداقة. افترقا. استأذن محمود بعد سماعه آذان المغرب. قال:

- سأصلي العشاء في البيت.

وتوجه خالد إلى أحد البارات ليسكت دبيب البرد الذي بدأ يدب في أوصاله..

***

عاد خالد من رحلته البعيدة. وجد نفسه متكئاً على سياج السفينة ينظر إلى نقطةٍ ما في أفق البحر الداكن. وحسن قد تركه وذهب إلى مخبئه، ليضع فيه ما اشتراه من مخزن السفينة. توجه كعادته إلى مؤخرة السفينة إلى حيث معتزله. حيث اعتاد الانفراد بنفسه هناك، بعيداً عن صخب المحركات، ولغط البحارة الذي لا يكاد يفهم منه شيئاً. ومع نثار الليل المتكاثف، كانت السفينة بأضوائها هي الشيء الوحيد الذي يمكن تمييزه وسط الفضاء الأسود. كذلك خفتت فورات غضب البحر، هذا الذي بدا أنه يواكب البحارة في عملهم نهاراً ويستريح مثلهم ليلاً. تراجعت الأمواج، وعادت السفينة إلى حالتها الانسيابية. صار يتطلع إلى السماء كأنه يراها للمرة الأولى في حياته. رآها صافية، ترفل بحلتها النجمية، النجوم كثيرة، أكثر حتى مما كان يراه في تلك الربايا في ساعات حراسته.. أكثر لمعاناً كذلك..

سمع صوتاً يتساءل من داخله.. ترى من ذا الذي يستطيع عدّ النجوم؟، قديماً كان هذا العد يأخذه إلى تخوم النوم، كان يعدُّ النجوم كلّ ليلة وهو يتململ على فراش النوم على سطح البيت، متمرداً على توبيخات أمّه وحكايتها التي لا تملّ من ترديدها عن ذلك التعيس الذي من كثرة ولعه بعد النجوم، ظهرت على جلده حبيبات الفالول.. ما علاقة حبيبات الفالول بعد النجوم؟، والأطفال يؤكدون قصص أمهاتهم.. أن الفالول يأتي من عد النجوم.. إلا محمود كان يقول مخالفاً الجميع: حبيبات الفالول تأتي من اللعب مع العگاريگ (الضفادع). في حين كان خالد مولعاً بمراقبة تلك الحيوانات التعيسة

وهي تغوص في الوحل، يحاول النظر إلى عيونها بذات الجرأة التي تنظر هي فيها إليه.. عيونٌ ناظة مصوّبة نحوه فوق ترقوة نابضيّة.. كثيراً ما كان يمسكها معانداً محمود، هذا الذي تبين فيما بعد أنه يخافها، وهذه كانت واحدة من تناقضاته العجيبة.. وهو يسترجع تلك الحكايات البعيدة، وجد أن خوف أمه عليه من عد النجوم، ربما هو يشبه خوف الكابتن عليه الآن وحرصه على إبعاده من هذا المكان (مؤخّرة السفينة)، في البدء طلب منه بشكل مباشر أن يبتعد عن هذا المكان، ولما وجده غير آبه، طلب من محمد المغربي مراقبته.. وأن لا يدعه لوحده هناك. أخبره محمد وهو يضحك بهزء من خوف اليونانيين:

- يا أخي هؤلاء يعتقدون أنك تريد الانتحار. أرجوك لا تنتحر.

ثم أطلق ضحكته المحبّبة لدى خالد تلك الضحكة الصاخبة، المزيج العجيب من البراءة والشيطنة.. قال له خالد:

- يا صاحبي الخائف من شيءٍ لا ينتحر فيه. أنا خائفٌ من البحر. إذا كان لا بدّ من الانتحار، سأنتحر في مكانٍ آخر..
- تتكلم جد؟.
- من يدري؟.

في تلك الليلة، التي بدت أنها الأخيرة في البحر، قرر أن ينعزل هناك لغايةٍ محددة، أن ينظم أفكاره ويقرر ما عليه أن يفعله غداً. لكن المشكلة ما زالت هي هي.. أنه لا يعرف ماذا يريد. لذات السبب القديم؛ إذ لا خيارات أمامه، هو خيارٌ وحيد كما هي عادته.. الخيار صفر. لم يجرب في حياته أن يضع لنفسه هدفاً، ثم يسعى إليه.. الفجاءة، التلقائية، العفوية، هي سمات سلوكه الغالبة. النظام لم يكن ينسجم مع لعبة الأخيلة التي تراوده، وتصوّر له الأشياء والكائنات بثيابٍ هي غير ثيابها، حدث

له أن حقق كثيراً من الأشياء وكأنه كان قد خطط لها، لكن واقع التحقق كان حصيلة جملة مصادفات تواءمت مع بعضها وخلقت ذلك الإنجاز.. نجاته من الموت الذي أخذ (مقدم ذيب)، سببه كان وجود الضابط في باب الملجأ وهو في مؤخرته.. ثم نجاحه في الهروب من الجبهة وهي في سعير معارك حامية، كان سببه مصادفة جلبت له شاحنة عسكرية أراد سائقها الهروب أيضاً، أخذه معه إلى (العمارة)، هناك زوده خالد بعدد من نماذج إجازات النزول التي كان معه منها الكثير.. توادعا في الكراج، هو سافر إلى بغداد والآخر إلى السماوة. كان ذلك إنجازاً. سقط الكثير من جنود وضباط وحدته العسكرية بين قتيل وأسير، لم يبق غير أولئك الذين كانوا هم في الأصل في المواقع الخلفية وهو كان منهم. لم يكن يفكر في الهروب لحد قبل لحظات من سقوط القذيفة التي مزقت (مقدم ذيب).. حصوله على جواز سفر مزور، وهروبه من البلد كان إنجازاً تضافرت على تحقيقه عدة مصادفات، آخرها كان لقاؤه بصفوان في ذلك البار نصف المظلم في عز الظهيرة.. اصطدامه بأمينة العراقية في أيام (أثينا) كان نجاحاً.. رغم أنه كان يقصد حينها امرأة أخرى، سائحة أوروبية حولت شمس (أثينا) بياض وجهها إلى لون البرونز، يقضي معها أياماً إن وافقت على عرضه، ثم تغادره إلى بلدها، كما كان يحصل له قبل أمينة العراقية. حصوله على مأوى في سفينة مقطورة بعد أن تقطعت به السبل كان نجاحاً.. حصوله على المخطوطة كان نجاحاً.. حصوله أخيراً على عمل في هذه السفينة هو كذلك نجاح.. كلها كانت نجاحات وإنجازات توحي أنه كان يقصدها، سعى إليها، بينما هي في واقع تحققها لم تكن أكثر من إنجازات الصدفة، لم يقصدها، بل اصطدم بها.

هو مع نفسه ليس هاوي عبث وضياع، لا ينتمي لأولئك أتباع فلسفة العبث المنتشرة في زمنه، مع أنه يمارس ما يمارسون، الفرق بينه وبينهم في العمق.. أولئك كانوا يتقمصون العبث والضياع، يمارسون الشيء

كهواية، صرعة، مودة، على جريّ العادة المنتشرة في تقمص الغرب، الأمر بالنسبة لهم يشبه ارتداء بنطال الجينز، إطالة الشعور، تنمية اللحى. الخ بينما هو كان في الفطرة كذلك.. هذه كانت حقيقته، لا شيء واضحٌ أمامه، كلُ شيء يجده مبتوراً ومركباً على غيره، لذا هو لا يتلمس دروبه، مساراته إلا بالحدس، يخوض حياته بأقدم غريزة عرفها الإنسان تعود إلى غريزة البقاء.. سائراً محاذراً الارتطام في كل خطوة، صوره مغبشة، دروبه موحشة يتلمس منعرجاتها باللّمس المحاذر.. وهم الحدس وفجاجة العبث لن تجعله يختار مساراته، بل هي من تختاره.

في تلك العزلة في مؤخرة السفينة، قرر أن يغير تلك الطريقة الحدسية في التعامل مع المحيط ومع نفسه.. أن ينظم فوضاه، يلجم العبث الممسك بأفعاله، يلغي اللاهدف السائر به إلى المجهول.. قرر أن يختار له هدفاً. فكر طويلاً، غاص في الصفاء الذي أنعمت به عليه النجوم وليلها، تتبع مسالك الرغبات والأماني التي تكتظ بها روحه، علّه يمسك بواحدة يضعها نصب عينيه، يختطّ لها مساراً، يحسب خطواته الواصلة إليها، يضع خططاً لإزالة العوائق، ليتذوق في النهاية ذلك الطعم الذي قرأ وسمع عنه الكثير.. طعم الفوز بعد جهد، طعم النجاح بعد معاناة. غاص عميقاً حتى تعب رأسه. عاد من رحلة الغوص خالي الوفاض. لم يجد ثمة ما يستحق الجهد. عاد إلى النجوم المتلاصفة في مكور الكون، تنبض بالضوء مثل قلبٍ أضناه الشغف. سمع في رأسه جرساً، كان له وجه.. وكان وجه أمينة.. قرر فوراً أنها هي الحلقة المفقودة، تلك التي تجعل حياته دونها صحراءَ تعوي فيها الريح. وتوصل بنفس الفجاءة إلى استنتاجٍ جديد أخبره: أنّ البحر قادرٌ على إيصاله إليها. هي ستكون في (قبرص). (حامد جيفارا) أكد مراراً على هذه المعلومة، وهو حتى يعرف اسم الفندق الذي تتخذه سكناً.. وحامد مثل مختار أثينا يعرف كل ما يخصّ العراقيين الوافد والخارج منهم.. إذاً ما أخبرته به قبل رحيلها الأخير لم

يكن أكثر من إيهام، أوهمته أنها ستغادر إلى (بغداد).. بينما هي على الدوام كانت في (قبرص)، هي تعمل هناك أو تعيش هناك، وإلا ما سرّ سفرها السهل وشبه الدائم إلى (أثينا).. قد تكون هي زوجةً لأحد رجال السفارة هناك، وهذا ما يبرر سرّ الغموض الذي تحيط نفسها به.. أو هي موظفة في الخطوط الجوية العراقية.. أو أيّ وظيفةٍ أخرى تحقق لها تلك الاستقلالية والحرية. ثم أليست هذه هي أول معلومة قالتها له حين تعرّف عليها في ذلك المقهى الضريح. لكن لِمَ لا تكون في بيروت؟، هي كذلك أخبرته في إحدى حالات التجلي أو السهو؛

- (بيروت)، لو تعرّفت عليها مرة، لا يمكنك أن تملّ منها.
- حتى وهي في هذه الحرب اللعينة؟.
- الحرب بالنسبة لـ(بيروت).. كيف أصفها لك، لعلّ أمرها يشبه أمر سيدةٍ جميلة، لاهيةٍ بجمالها عن شجار أولادها المشاكسين في الغرفة الأخرى.. يصلها سبابهم، صراخهم، حطام أسلحتهم وأرواحهم.. لكنها لاهية عنهم تتملّى وترمم جمالها.. أمرهم لا يعنيها، الشجار في الغرفة الأخرى..
- أمينة.. هل تكتبين؟.
- شكتب؟.
- ما قلتيه لا يقوله غير كاتب متورط في تصديق خياله.. خيال الكاتب وحده القادر على تحويل الخراب إلى جمال..
- كنت أكتب الرسائل لرجل لا أعرفه.. وبعد أن أقرأ الرسالة أمزّقها.

في تلك الليلة كان قد اختلط الأمر على خالد زوال. شربا كثيراً، تضاجعا كثيراً، ضحكا كثيراً، وكان ملمس الأشياء أثيرياً.. كل شيء صار يتطاير بنعومة، البوح، الجد، السخرية، الخيال، الواقع، لم يعد يجد مستقراً

للأشياء والأصوات من حوله. لكنها عادت واستدركت في الصباح الذي كان ظهراً وهما يحتسيان القهوة على شرفة غرفتها: أنها لم تر (بيروت) في حياتها، لكنها ستزور (بيروت) حتماً. ظلت أشياء تلك المرأة تختلط عليه، لكنه تكور على هدفه الجديد، خائفاً عليه منه.. أخذ ينزع عن نفسه شيئاً فشيئاً رغبة البقاء في (تونس)، حيث عبدو التونسي حذره من البقاء فيها وهو الهارب منها أصلاً، ليس لأسباب سياسية أو عسكريّة، بل اقتصادية..

- صدّقني، لن تجدَ عملاً.. البلدُ في تخمةٍ من البطالة.. كيف ستسكن، ماذا ستأكل وتشرب..؟، فكر كويس قبل أن تقرر.

ما زال يشعر بالأمان الذي يشيعه في روحه ذلك الصفاء.. وينظر إلى النجوم، يشعر بألفتها، قربها إلى قلبه. استعاد كذلك ما قاله محمد المغربي، لمنعه من النزول في تونس، مع أن حديثه كان ملغزاً أشعره أن ذلك الشيطان المغربي يضمر شيئاً. قال له:

- إذا كنت راغباً في ترك السفينة، لا تنزل في تونس.

كان الأمر قاطعاً. ثم أردف:

- بعد مغادرتنا (تونس)، سأخبرك بالسبب وستدعو لي.
- وما هو هذا السرّ البالغ الأهمية الذي لا تريد إفشاءه الآن.
- هو بالغ الأهمية.. لأنه يهمّ الجميع بما فيهم أنت..

يستعيد الآن ما قاله الاثنان، وإذ وجد عبدو محقاً في تحذيره، تبقى (تونس) مدينته وهو أدرى بها، لكن ما بال هذا المغربي.. عن أي شيءٍ يتحدث؟، ظلّ الأمر لغزاً يداوره دون أن يهتدي إلى حله. على أيّ حال كان قراره الجديد هو (قبرص).. والسفينة مسجّلة أصلاً في قبرص مع أنها يونانية. إذن هي ستأخذه حتماً إلى هناك. تظلّ (قبرص) جزيرة صغيرة من السهل الوصول إلى شيءٍ ما فيها، هناك سأبحث عن عمل وعن أمينة.. ربما سأصل إليهما معاً أو أحدهما على الأقل. إذن هو هدف معقول،

هدف يستحق الجهد، سأصبر لحين وصول السفينة إلى هناك. كانت سعادته باكتشافه للهدف الساعي إليه كبيرة، سعادة رسخت الصفاء الذي نعم فيه في تلك الأمسية، صفاءً من نوعٍ حرّض فيه رغبة جارفة للحديث. كان يريد التحدث إلى شخص ما. شخصٌ يرسخ في رأسه ذلك الخيار الجديد. لكنّ هذا الشخص غير موجود على ظهر السفينة. قرر ترك معزله والتوجه إلى كابينة النوم. سيقرأ شيئاً من المخطوطة، كما اعتاد خلال الليالي الماضية. بدل التحدث سيستمع إلى صوت حكيم في المخطوطة وأيامه تلك، سيغوص من جديد في تلك العوالم البعيدة التي كان فيها لم يزل طفلاً بشخوصها القريبة منه، تلك الشخصيات كان يعرفها، إن لم يكن بالأسماء والملامح، فبالحضور. كان يعيش في ظلال حضورها المهيمن على سنوات طفولته.

ويوماً إثر آخر صار يجد في المخطوطة مفاتيح لألغاز وطلاسم كثيرة أدارت رأسه الصغير حينها. سيعود إلى ذلك الزمن؛ زمن فضيلة وحكيم، الزمن الذي كان فيه أبوه (زوال محمود) يتخبّط في ذات الوحل. لقد التصق ذلك الزمن بذاكرة الطفل، على شكل نثارٍ مغبش من ذكريات طفولة، مزروعة خوفاً وتوجّساً من كبساتٍ مُحتملة لرجال قساة، عتاة، كانوا يبحثون تحت أسرة الطفولة المبقعة بولاً وخوفاً، والمرتجفة مع أجسادهم المرعوبة، عن أوراق ولقى لا يعثرون عليها، وإذ لا يعثرون عليها يأخذون أباه معهم. يغيب الأب أيّاماً ثم يعود مثل كل مرة بابتسامته الساخرة، ظافراً بأحجيته التي لم يستطع خالد أن يفك لغزها إلا متأخراً. الطفل يراقب أباه وهو يطلّ من باب الدار، يذهب أولاً إلى غرفة أبيه وأمه، يتمازح معهم، يطمئنهم، ثم يعود إليهم هو وأمه وأخته الصغيرة مستبشراً.

- ماكو شيء. كانوا مشتبهين، يدورون على واحد اسمه زوال محمود..

كيف للطفل أن يفك تلك الأحجية.. أنّ زوال محمود

هو نفسه أبوه، لِمَ أفرجوا عنه بعد أن كانوا يبحثون عنه.. عرف متأخراً أن أباه كان منتحلاً لأوراق رسمية لا غبار عليها لشخصٍ آخر، اسمٍ آخر لا يعرفه الوشاة الذين ظلوا يبعثون الإخباريات، وتأتي الدوريات، لكنها تصطدم بتلك الأوراق الرسمية التي يبدو أنها كانت مقنعة أكثر من معلومات الوشاة. كانت أيام أبيه زوال محمود موجودة في تلك المخطوطة. وجد أن (حكيماً) ما هو إلا نسخة معدلة لأبيه، الاثنان خاضا ذات الأحداث، وكانت لهما ذات الرؤى، واصطدما بذات الحدود.. رحلة حكيم إلى الحدود، تشبه رحلة أبيه إليها، رمال (الـچذابة) هي ذاتها التي أضاعت أباه، مع أنّ أباه محسوبٌ على المنطقة ذاتها. يعرف تلك الأنحاء بعشائرها وتضاريسها، رغم ذلك كان قد ضاع في الرمال. كانت تلك من القصص التي لا يملّ خالد من سماعها على لسان أبيه، مثلما لا يملّ أبوه في مجالس العشيرة من إعادة سردها، في كل مرة بشكلٍ آخر. وينهيها بذات اللازمة التي تخص خالداً هذه المرة وتثير مزيداً من ضحك الحاضرين، يقول لهم أنّ خالد سأله مرة: بوية احنا شنو؟، أجابه: بويه إحنا كاولية..!.

ما كان يجذبه في قصة أبيه هو البدايات المختلفة.. غير أن تفاصيل العطش، وخلع الملابس، والحمار الذي نفق والحرص على دفنه في الرمال.. ظلت ثابتة في حكايته.. الفرق بين الاثنين؛ أن هروب حكيم كان برفقة ذاته، بينما هروب أبيه زوال محمود كان برفقة زوجة وطفل وحمار. حكيم كان يتبع هوسه النظري بالثورات والنظريات الثوريّة وأعداء مطلسمين قابعين تحت مفهوم البرجوازية، بينما أبوه كان يتبع سليقة الفلاح الباحث عن الوضوح، حيث لا شيءَ غامضٌ في صراعه مع الإقطاعي الذي سلب أرضه وأجلاه عنوة إلى المدينة.. الأمر عنده لا يحتمل حلولاً كثيرة، هو حلٌّ وحيد لا بديل عنه: أن ترجع الأرض وما سلب ويأخذ الإقطاعي جزاءه.. إذاً لِمَ لا يريد قادة الحزب أن يفهموا هذا الشيء الواضح.. ما بالهم منهمكين بخطط ونظريات وبرامج وأعداء وهميين أوصلتهم أخيراً إلى أن يصارعوا

بعضهم.. كل منهم يريد لا تخطئة الآخر، بل إلغاءه. كان أبوه قابعاً في تلك الحدود التي وجد حكيم نفسه فيها.

وهو يقرأ المخطوطة، استعاد ملامح ذلك الشخص الذي أتى يوماً مع أبيه، وظلّ عندهم أياماً طويلة لا يبرح الغرفة الصغيرة في مؤخرة الدار (غرفة الضيوف). كان وجوده مطلسماً بقصصٍ ومغامرات لا يفهمها عقل الطفل ما لم يستعن بخياله. على أيّ حال كان الخيال هو سيد النسج لدى الكبار كذلك. قيل أنّ ذلك الرجل قد وشى بزوجته لأنها مع اللجنة المركزية وهو من القيادة المركزية. آخرون قالوا أنّ الزوجة صمدت في التعذيب، بينما هو انهار منذ الدقائق الأولى.. آخرون بحثوا عن عذرٍ لانهياره.. لأنهم هددوه باغتصاب زوجته أمام عينيه. ولما انهار ووقّع لهم ورقة البراءة أتوا بزوجته واغتصبوها مراراً أمام عينيه.. ثم أطلقوا سراحه. المسكين، منذ ذلك اليوم وهو في ذهولٍ وهذيان المجانين.. الوحيد كان زوال محمود الذي لم يصدق تلك القصص، بل كان يسخر من قائليها ويقول لهم:

- هذه لعبة شيطانية.. أكبر من عقولكم الصغيرة.

كان الطفل يأخذ الطعام أحياناً إلى هذا الرجل المختبئ في الغرفة البعيدة، والمطلسم حضوره بالخرافات. في المرات الأولى كان لا يكلمه، يكتفي بهزة من رأسه؛ أن ضع الطعام واذهب.. في مرات لاحقة أخذ يكلمه. سأله مرة:

- أنت خالد؟.

أجابه الطفل:

- إي.

طلب منه أن يجلس إلى جانبه على السرير. جلس الطفل إنما خائفاً ما زال. صار يمسد شعره. ثم سأله:

- أكو گصب في منطقتكم؟.

ردّ الطفل بمرح هذه المرة:

- تريد گصب؟.
- أعطيك على كل گصبة عشر فلوس. زين؟.

هزّ الطفل رأسه ونهض الطفل من فوره يريد الركض إلى حيث يعرف أين يوجد القصب. صاح عليه:

- مو هسّة. الدنيا ظهرية والحر يشوي. روح نام والعصر تجمع الـگصب. اتفقنا؟.

هزّ الطفل رأسه أنه موافق.

بدأت علاقة خالد بالضيف المطلسم بالخرافات تتوطد. كيف لا وقد صار يحصل بالإضافة إلى الـ(عشرة فلوس)، على المزامير. أخذ يصنع له من عيدان القصب مزاميراً يزهو بها أمام أقرانه، أولئك الذين التبس أمره عليهم، من أين يأتي هذا بالمزامير، والموسم ليس موسم مزامير، بل هو موسم لعب (كرات الدعبل)، ظلّ يحاول العزف عليها كما يفعل ضيف الغرفة، لكنه لم ينجح إلا في إخراج الصفير. كما لم ينجح حتى والضيف يعلّمه كيف يتحكم في تنفسه وفي الفتحات الخمس المحفورة على محيط القصبة.

بينما كان ذلك الرجل يعزف لحناً موصولاً، لحناً ما زال يتهادى في أرجاء مخيلة خالد زوال، لا ينتمي للموسيقى ولا إلى عواء الذئاب في البراري.. كان قطعة حزنٍ موصول، لا محطاتَ فيه ولا نهاية.. نهايته حين يتعب الرجل من النفخ، ليستريح، ثم يعاود حزنه الأزلي. كانت تلك الملامح هي ملامح حكيم، حكيم المخطوطة وليس حكيم (تسالونيك).

ظل الضيف في بيتهم بضعة أسابيع، ثم اختفى تماماً. وظلّ الطفل من حينٍ لآخر يسمع ذات الخرافات إنما هذه المرة عن اختفائه، منهم من قال: أنهم عادوا واعتقلوه. آخرون قالوا إنّ الحكومة كافأته ومنحته منصباً كبيراً في إحدى المدن الشمالية.. غير أنّ قليلين ومنهم زوال محمود قالوا أنه قد سافر. عبر الحدود إلى (إيران) ومن هناك ركب باخرة وسافر إلى بلدٍ بعيد.

وهو يعيد قراءة حدود حكيم، تذكر حدود أبيه التي اصطدم بها وأعادته إلى العشيرة. تذكر أنّ أباه في يومٍ من تلك الأيام، قد جلب معه مسدس وبدلة عسكرية وكان لسانه يلهج بمفرداتٍ لا أحد في البيت يفهم منها شيئاً، ربما سوى أمه التي لم تفهمها، لكنها حدست خطورتها، الخطورة التي جعلتها تقضي الأيام وهي تبكي، وكأنّ الأب قد مات وانتهى الأمر. بينما الأب كان يعيش انتظاره، مزهواً، سعيداً، كأنه وقع أخيراً على كنزٍ قضى سنيناً يبحث عنه. طلبوا منه الانتظار. انتظار توقيت شرارة الثورة الموعودة. حينها تعلم خالد كيف يفك ويعيد تركيب المسدس، لكثرة ما فعلها أبوه أمامه. أخيراً جاءت الشرارة، لكنها، ويا لهول ما حدث تلك الأيام، لم تكن شرارة الثورة المنتظرة، بل شرارة انقلابٍ عسكري. شرارة أولئك الرجال الذين أنجزوا انقلابهم الأول على الزعيم (عبد الكريم). أطلقوا على انقلابهم هذه المرة (ثورة بيضاء)، لم يحتج أمر إنجازها إلى انتفاضةٍ شعبية مدنية ولا إلى حرب عصابات ريفية ولا إلى كل تلك الخطط والخرائط والقوات. أنجزوها بصفقة مع ضباط القصر دون دماء، وعلى مراحل.

عاد زوال محمود، منهكاً، كظيم الوجه، لاعناً أسماءً كان من قبل يرددها بزهوٍّ وحب. وكان ذلك المساء هو حده الأخير مع الحزب وسياساته وانشقاقاته، الجدار الذي اصطدم به وأعاده إلى عشيرته. حتى أنه وربما لكي يقطع كلّ صلة له بتلك الأيام، قرر التخلي نهائياً عن البنطال والقميص، تخلى عن لباس أهل المدينة، عائداً إلى لباس العشائر. فصّل له صاية وجاكيت وصار يعتمر اليشماغ والعقال. عاد إلى العشيرة. لكنه حمل إليها في دمه ذات الجرثومة؛ جرثومة السياسة وبحثها المستميت عن الأعداء، جرثومة المعارضة والتحدّي. في العشيرة وجد له عدواً يصارعه، وكان تاجراً وجيهاً من أبناء عمومته الأباعد. كان ذلك التاجر يريد تزعم العشيرة بنفوذه الماديّ، أو سرقة العشيرة كما كان يردد زوال محمود من رئيسها الشرعي. دخل من جديد في دائرة

الصراع من أجل الزعامة، تلك الزعامة التي لم يكن يريدها لنفسه على أيّة حال، بل ليعيدها إلى صاحبها الذي ورثها أباً عن جد، متحدياً طموح الشباب في الوجيه الجديد.. حتى انشقت العشيرة على ذاتها بين أتباع المال وأتباع الأصول.. لم يكن زوال محمود من أتباع المال طيلة حياته.. عاش حياته فقيراً وظل فقيراً.. لكن ذلك الصراع العشائريّ كلفه شهرين سجن، لأنه اعتدى على ذلك الوجيه المتطلع للزعامة أمام الناس.

وهو يعيد قراءة المخطوطة، ويتذكر أيام أبيه، تساءل خالد زوال مع نفسه لِمَ كان أبوه على الدوام يختار الصف الخاسر في صراعاته؟، ولِمَ هو كان يكره الأغنياء إلى حد كرهه للمال؟، كان يكره المال، يردد على الدوام أنّ المال هو ليس أكثر من تذكرة باص الأمانة، يوصلك إلى المحطة التي تريدها، بعدها ينتهي مفعوله، عليك أن ترميه في القمامة.. لا أن تجمعه. لا تدع هذا الكارت التافه يستعبدك. لا يذكر أنه سعى يوماً إلى المال، كأن يفكر في مشروعٍ يطور من خلاله وضعه المادي، أو يشارك أحداً ما مشروعه، أو يجمع مالاً. خاض حياته متقوتاً من ذات الراتب الحكومي، الذي لم يوصله إلى نهاية الشهر إلا عبر التقشف، أما دعواته العشائرية وولائم الأعياد، فكانت تحصل من خلال ديونٍ شبه ميتة. هو الآخر كان له في العشيرة أتباع ومعجبون، ربما لتأريخه السياسي الذي يجعله يعرف أشياء لا يعرفها الآخرون، أو لوقفة التحدي أمام ذلك الوجيه الجديد، الذي لم يكن ينقصه الخصوم والحساد والأعداء في نهاية الأمر. وهي ذات الجرثومة التي تنغل في دمه هو خالد زوال وتجعله مغبش الرؤية مشتت التركيز، لا يدري ماذا يريد.. مفرغاً من الطموح.. منزوعاً من الهدف.. لكنه يعارض ويتحدى من يجده متجبراً.

حداءُ نوارس البحر لا يزيد الصمت إلا صمتاً. هذا الطائر المسكون بلعنة البحر والبر معاً، لا يتوغل بعيداً في البحر، ينبئك فقط بأنك وصلت اليابسة. لعل روحه منشطرةٌ ما زالت بين البلل واليابسة، مشدوداً لكليهما. وأنا أنشد الخلاص من كل الأوتاد التي تشد الروح.. القيود.. الضياعات.. المجهول الذي يتربص بي أنى أدرت بوصلتي. هدأت ضجة الميناء، مخلفة وراءها هذا الصمت المندّى بنسيم البحر، غطى السفينة، البحر، المدينة. والقمر وحيداً يعوم برشاقة بهائه على صفحة السماء المزدانة بنجومها الذهبية، وأبراجها الغامضة. عبدو على الكرسي الهزاز في مقدمة السفينة، ينظر إلى المدينة. وهذه غافية بجسدها اللاصف الزاهي كعروس في ليلة زفافها، تتقادح من ثوبها فوضى الألوان. غافية والقمر يعيد غسلها من ملوثات ليلة العرس. عبدو لا ينظر إلى المدينة، بل يلاحق شعاعاً وحيداً ينز عن ذلك الجسد المتمدد من حد البحر إلى الأفق البعيد. هي مدينته، يعرف دروبها، حتى من بين تلك الفوضى الضوئية. هي عنده شوارع وأزقة وبيوت تختفي في طيات تلك الشوارع والأزقة.. هي ذكريات محفورة في تلافيف عميقة من الذاكرة لكل تلك الأمكنة. قد لا تكون كلّ الذكريات جميلة، إلا أنها حميمة، فيها دفء وطمأنينة المكان الأول. أما عندي، فلا تعدو المدينة غير هذه الكتلة الضوئية، اكتظاظ الألوان، لوحة صاخبة من فعل فنّانٍ مهووس بالألوان.

كلّ شيء صمت في هذا الكون إلا روحي اللعوب. ملتاعةً ما زالت، صاخبة، تعج بأطيافها البعيدة. كم صبورٌ هذا التونسي!، كان الميناء مكتظاً بالسفن والمراكب، لن يتوفر لنا مرسى حتى الغد. طلبوا من سفينتنا الانتظار في عرض البحر. نزل الكابتن ومساعده قاصدين المدينة بزورق الجمارك. لم يذهب عبدو معهم!، ماذا أفعل أنا و(بغداد) تلوح لي على بعد زورق جمارك؟، لا أدري، لعلني أغافل الجميع وأرمي بنفسي في بحرها، لأتطهر أولاً من كل ما علق بجسدي وروحي من ملوثات المدن الأخرى، ثم أسير إليها سباحة.. أو.. لا أدري.. ما أحسه؛ أني لا أمتلك صبر وهدوء هذا التونسي.

كنت كلما أودع (بغداد)، أشعر أنها سرقت مني شيئاً، تبقيه رهينة عندها لحين عودتي ثانية. أيّ سارقة جميلة أنت يا (بغداد)؟، بعدها لا أجد غير الصحراء تطبق على روحي، تحيلني إلى كائن وحيد، مهجور، تائه في جنون كثبانها.. تتلاشى من رأسي كل الاتجاهات.. إلا اتجاه (بغداد)، يظلّ بوصلتي التي تنقر في رأسي مثل عصفورٍ مهووس بالنقر حتى أعود إليها.. وعلى بواباتها المحروسة بالمتاريس وعيون ضفادع شرطة الانضباط العسكري التي تقذف شكاً وريبة في كل من تقع عليه، لا تشعر إلا أنك مذنب وسيلقى عليك القبض حالاً. عند تلك البوابات أودع الصحراء التي تسف في روحي، وتأخذني رائحة المدينة في نشوة مبهمة، لكنها لذيذة، تختلط بما لا يحصى من الروائح، روائح الجنود الخارجين توّاً من مقابر جبهات الحرب، روائح الشوارع المبتلية بفضلاتها التي استعصت على كل تلك الجحافل من الزبالين المصريين والهنود والسيرلانكيين والباكستانيين.. روائح القرويين المتلهفين لرؤية (بغداد) وتذوق كبابها. كل تلك الروائح تمتزج مع رائحة الخوف التي تستزرعها عيون ضفادع الانضباط العسكري.. تنقبض أمعائي، وتأخذني رغبة للتقيؤ، رغبة للخلاص من كل فضلات الأماكن الأخرى.. بتلك الرغبة الملوثة بالقيء كنت أتظهر وأدخل مدينتي.

لم أجد تفسيراً معقولاً لهذا الفعل الغثياني. إنه يشبه الشيء الذي إن تركته، يترك لك فراغاً في الروح، انقباضاً في الصدر، شيئا يشبه تأنيب الضمير. اقتنعت حيناً أن هذا هو الحنين للوطن. لكني كنت في وطني. لا أدري، لعله حنين إلى شيء صغير جداً في هذا الوطن الكبير، قد يكون منسياً لضآلته، لصغره لا تكاد تراه، لكنك تحسه فقط.. لعله بيت الطفولة، وجه الأم، الأخوة، الأخوات، الأصدقاء، بوخة التراب على سطح الدار في ليالي الصيف بنسماتها المسروقة، الأحاديث المهموسة في غفلة من الشوارع والجدران مع بنت الجيران.. أمكنة الأحلام الأولى والهواجس الأولى التي نسامعها لبعضنا.. لا أدري.. لا أعرف شيئاً وسط كل هذا الاختلاط بين الوجوه والأشياء، وحتى لو قيل لي أن هذا كله هو الوطن، لما ازددت فهماً.

الشيء الوحيد المفهوم لي الآن وأنا أراقب التونسي ومدينته، هو أنّ روحي تود التمرد، لم يعد صالحاً لها هذا الإطار المصنوع من روادع وموانع وعلامات ومحرّمات.. أجده يتهزّأ ويخرج لي صدأه ولا جدواه. روحي تشتهي الآن أن تجرّب مرة أخرى سحر تلك النبتة العجيبة، النبتة اللعينة،

الرائعة، الآن فقط أتفهم لِمَ هي معشوقةُ تلك الأميرة إلى حدود الهبل.. تعرفت على جنون عشقها من الخارج.. من مراقبة عشاقها.. وجدته قاسياً، مشوهاً، يحول ضحاياه إلى كائناتٍ هشة هائمة على وجهها بحثاً عمن يأخذ بيدهم إلى تلك المعشوقة.. الحشيشة.. هل سأتحول إلى واحد من عشاقها الكثيرين؟.

غريبٌ أمر هذه الروح، هل لحقت أن تسكنها اللعنة؟، لأوّل مرة تذوّقتها في تلك الليلة، ليلة (المصالحة العربية) في كابينة محمد.. كنت غير مصدق جرأتي. شيء فيّ قد انفلت، أطار الكحول صوابي، أمست معه استجاباتي عشوائية، خفيفة، كنت مخموراً لا يهمه من العالم غير تلك اللحظات، وجربت ذلك الشيء الذي كنت ألعن الآخرين بسببه.. بل تركت (تسالونيك) وهمت على وجهي في هذا البحر بسببه. لم أعط نفسي برهة لمداورة الأمر مع نفسي، أخذتها من يد رشيد كأني كنت خائفاً من ذلك الواعظ الرابض في رأسي لئلّا يدركني، أردت مخاتلته. جربت سعادةً جديدة، لم أكن أحلم بالوصول إليها. هذا الواعظ البائس ما زال في رأسي يكرر معزوفته: أنت لا تستطيع أن ترى النهر مرتين. لا تستطيع استعادة تلك السعادة مرتين!، لهذا الواعظ قلبْ حجريّ، حرمني منها في المرة الأولى، جاعلاً تلك الدمية سورميلينا تهزأ مني أمام الجميع. كنت أشتهيها وهي تدخن الحشيشة بذلك الإشعاع الطفلي المنبعث من زرقة عينيها. ضاقت ذرعاً بخشونة لهجتنا على آذانها، فاجأت الجميع حين قامت وأغلقت جهاز الفيديو الذي كان يعرض مسرحيّة عربية. ظلت واقفة في منتصف الصالون الكبير، يداها على خصرها، متأففة، على شفتيها الريانتين خليطٌ من سخريةٍ وتحد للعيون المستفهمة المصوبة إليها. ولما لم تجد من يسائلها على ما فعلت. توجهت إلي، وهي ما زالت ترطن بمزيجٍ مضحك من مفردات عراقية بذيئة ويونانية أكثر بذاءة، انحشرت إلى جانبي في المقعد الصغير المخصص لجالس واحد على خلاف بقية الكنبات الطويلة والعريضة، ولما شعرت بالانحشار قامت وجلست على ركبتي. مثيرةً كانت، بتنورتها القصيرة، وتسريحة شعر تلميذات المدارس المتوسطة المنساب بجديلتين صغيرتين.. أحسست بترافة جسدها.. لقد اشتهيتها، ماذا أفعل؟، أطبقت الشهوة على استجاباتي وأفقدتني حتى المفردات.. هي الحيرة ذاتها تتلبسني كلما تقترب مني امرأةٌ هذا القرب، رغبة وحيدة تفترسني حينها، المضاجعة، لا شيء غير هذه الرغبة الملحاحة.. كلّ شيء قابل للتأجيل وقابل للتبرير.. آه لو لم يكن غيرنا في الصالون الكبير لفعلتها في ذات المكان.. بعدها فقط سينتابني هدوء الحكماء ومعه تنفك عقدة

اللسان.

ما زاد تشوشي أنها كانت غاضبة مني لسبب لا أدريه. كانت تقرعني بذات الخليط البذيء من العراقية واليونانية. أعرف أنها تكاد تكون صديقة الجميع، حقلاً مشاعاً، الجميعُ متذوقون رحيق جسدها، شبق أنوثتها المتفجرة وربما أكثرهم هو مازن الذي يؤمن لها بانتظام ما تحتاجه من (جكليتات). مازن الذي يتحول إلى حكواتي حين يأتي الحديث عن جنون وشذوذ هذه الفتاة وهي تمارس معه الجنس. إلا أنا. لم أقربها. في البدء لأنها صديقة صديقي وفيما بعد لإدمانها المخيف.

كنت الطائر الشائه في ذلك الحفل. هم يدخنون الحشيشة وأنا أدخّن سكائري التبغية. قررت سورميلينا أن تقحمني في عالمهم. أخرجت من حقيبتها الصغيرة لفافةً بحجم نصف سيجارة (جكليتة). طلبت مني أن أشعلها لها. أشعلتها. راحت تدخنها. سحبت نفساً عميقاً، وقدمتها لي. الرغبة في مضاجعتها طاغية، وعيون حكيم المستفهمة تروزني. وضعَتها على شفايفي. أبعدتُ يدها. الواعظ كان ممسكاً بلجامي. سحبت نفساً آخر وقدمتها لي من جديد. تعرقتُ.. تطلعت إلى عيونهم كانت مستفهمة. ينتظرون ماذا سأفعل. أما عيوني فكانت متوسلة أن ينقذني أحدهم منها. أو أن يخرجوا جميعاً ويدعوني أقوم بالفعل الوحيد القادر على إعادتي إلى نفسي. جسدها يكاد يفترسني برائحته التي تشبه رائحة الحليب الناضحة من الأطفال. طفلةٌ تدخن الحشيشة في حضن عجوز لا يهمه من الدنيا غير الوعظ. كان منظري مضحكاً ومفضوحاً مع الوتد الذي انتصب في وسطي وهو يكاد يمزق غلالته وينسف كلّ تناقضاتي ونفاقي وتشتتي بين رفضٍ كليٍّ لعالم حكيم واشتهاءٍ كلي لهذه الطفلة المدمنة.

كان حكيم منزوياً مع أحدهم في ركن الصالون البعيد بحديثٍ هامس. يتابع المشهد بطرف عينه ويبتسم.. لعلّها ابتسامة سخرية وانتظار.. لسان حاله يقول: ماذا تراه فاعلاً هذا المتبجح بأخلاقيات أكل عليها الزمن وشرب.. لا محالة سيسقط صريعاً في عسل هذه الطفلة المأفونة. لكنّ تلك الابتسامة الساخرة هي التي أنقذتني أخيراً، محت ترددي، حيرتي، أخمدت البراكين التي كان يطلقها الوتد المنتصب في وسطي. نحيت يدها الممدودة لي ثم رفعتها من على ركبتي وأجلستها على مقعدي وخرجت. خرجت يلاحقني سبابها البذيء وضحك الحضور الساخر. كان الثمن أني لم أحصل على تلك الطفلة المشتهاة. صارت تكرهني. يصلني وعيدها. أنها ستسمح للكلاب أن تضاجعها ولا تسمح لي بذلك.

شعرت حينها أني انتصرت على حكيم. صار تعامله معي في الأيام اللاحقة، الأيام التي سبقت زيارتي لمكتبته وعثوري على المخطوطة، مختلفاً، لأقل فيه قليل من الفشار الذي يطلقه للود وللشجار في ذات الآن. ولما سألني في إحدى الامسيات؛ أن أقوم بشيءٍ لأجله، قالها بكثير من الاحترام، ولإعطاء أهميةٍ لتلك المهمة، قال إنّ المكان الذي سيرسلني إليه لم يسمح لأحد من أتباعه بدخوله، قل لا أحد يعرف به. أنه أحد بيوته الجبلية. ينتظر هناك مكالمة تلفونية مهمة. ولمشاغل طارئة لا يستطيع التواجد هناك. سيتركني لثلاثة أيام، لا شيء مطلوب مني غير سماع الرسالة التي ستأتي عبر التلفون، ومن ثم توصيلها إليه.

هناك في ذلك البيت الجبلي المشرف على البحر، شعرت ولأول مرة باهتزازٍ حاد في قناعاتي وبدايات تكسر جليد كتل ممنوعات الواعظ الرابض في رأسي. وجدت تلك المواعظ لا تعدو عن أحجار عثرة. قررت الانفصال عنه. لفظت هذيانه مع كتل الدخان إلى البحر الذي لأول مرة أراه من هذا العلو وبهذا الجمال. استمتعت تلك الليالي بصمت وأريج البحر الممتزج مع أريج الغابة القريبة. كل هذا حصل في اليوم الأول، قبل عثوري على المخطوطة التي لخبطت تمردي وقراراتي وأعادتني من جديد نادماً إلى نفسي.

أريد الآن تذوق تلك اللعينة مرة أخرى. ليس أمامي غير عبدو. لم تزل مدينته في غفوتها الوادعة، ربما هي نسيت أن تخلع ثوب عرسها. وهو ما زال على جلسته ونظرته المتفزسة في ذات الشعاع المنبعث من جسد المدينة.. وروحي على صخبها والتياعها. ألحّت عليّ الرغبة بتدخين الحشيشة. أتراني كنت أفتعلها لأتخلّص عبرها من ذلك الهيجان المتلاطم في جسدي..؟، دنوت من التونسي:

- أين أنت سرحان يا سرحان عبد البصير؟.

كنت وراءه. سمع صوتي فقط. ضحك. قال:

- ما زلت معك.

وبدون مقدمات:

- عبدو!، عندك حشيشة؟.
- حشيشة؟.

استدار لي من جديد كالملدوغ. صرت واقفاً إلى

جانبه، متكئاً على سياج السفينة الحديدي وعيوني تطالع جسد المدينة. لعلني سحبته من ذكرى كان يتعاطاها مع مدينته.. أو أنّ سؤالي كان عارياً حد الوقاحة. ربما ما هكذا يُسأل عن هذه الأميرة مدوخة الخلائق. أجابني بنبرةٍ متفهمة:

- صرت تبغيها؟.
- أشعر برغبة في تدخينها.
- لا أعرف، يكون محمد أو حسن أخفوها في مكان. هي ممنوعة هنا. لكن لو أردت سأدبر لك شيئاً منها.
- أو... اتركها الآن. تعرف عبدو كم أنا أحسدك؟.
- على أيش تحسدني يا عراقي؟.
- أنها مدينتك.
- آه، معك حق.
- كنت أراقبك.. شفتك سارح لبعيد.
- ما وصلت إلى شيء.

أخذ يهز برأسه، وهو يردّد (ولا شيء.. لا شيء). قالها كمن يعرف ذلك الشيء الذي يريده لكنه لم يحصل عليه بعد. حداء النوارس ما زال يجوب الليل دون أن يخدش الصمت المطبق على الميناء، السفينة، المدينة. حتى حوارنا كأنه من الصمت وإليه يعود. سحب التونسي من علبته الموضوعة أمامه على سياج السفينة سيجارتين، قدم لي واحدة وأشعلها، ثم أشعل لنفسه. قلت:

- أنت في بلدك يا رجل.

أجاب متذكراً أنّ عليه استخدام اللغة الفصحى مع هذا العراقي:

- مشكلتي لا تشبه مشكلتك يا عراقي. أنت خرجت من بلدك وفي ذهنك شيء واحد: أن تنفذ بجلدك من الحرب. أليس هذا صحيحاً؟.
- اكمل!.

- أنا خرجت وفي ذهني مشاريع كثيرة، لكن، للأسف وللآن لم أحقق شيئاً. مضى على خروجي من تونس ثلاث سنوات.
- ألم تكن كافية تلك السنين الثلاث؟.
- حاولت لكني فشلت. أعدت المحاولات.. حتى وصلت إلى هذه السفينة.
- هي الفلوس حسب ظني.. دائماً ما نبحث عنها في مكان آخر.
- لا..لا.. لا.. مشكلتي أبعد من الفلوس. أنا حين خرجت من تونس لم يكن المال هو المشكلة، بالعكس كان عندي منه في تونس ما يجعلني أعيش غير محتاج. والدي يملك فرناً للخبز، ولنا كذلك متجر صغير للبضائع المستوردة. أخذت معي من المال حين خرجت من البلد، ما لا أستطيع جمعه لو عملت سنين أخرى على هذه السفينة..
- المال والسياسة، هما السببان الشائعان لتبعثر العرب في أوروبا.. ولأني وجدتك لا تحفل بالسياسة، اعتقدت أنه المال..
- في حالتي، لا هذا ولا ذاك.. لكنها فرنسا، هل سمعت بلعنةٍ أسمها فرنسا.. إننا في تونس مسكونون بهذه اللعنة. ثمة شعورٌ لدى كل شاب؛ أنّ عليه الذهاب إلى فرنسا، هي عندنا: الحضارة، الثقافة، الحريّة.. قل هي الحياة.. إذ تضيق بوجهك السبل ولا تجد منفذاً، تلجأ إليها، إذ ترغب بالدراسة تتطلع إليها، إذ ترغب أن تتنفس هواءً آخر هي بانتظارك.. مهما تعددت الأسباب، فرنسا هي الحل السحري، كأن لا يوجد في هذا الكون مكان آخر غيرها.. هل تتصور هذا الأمر الغريب، نعيش هنا وعيوننا معلقة هناك.. ماذا تسمي هذا، ازدواجاً في الشخصية، استلاب، انحراف..؟

سمه ما شئت.. تبقى هي الحقيقة مُعاشة، والكل متورط بها.

انفعل عبدو، صارت يداه لا تستقران على اتجاه، احتقنت عيناه وتورد خده. قلت أنا:

- كنت أعتقد، أنكم تكرهون هذا البلد، لأنه استعمركم مدة طويلة.
- كم استعمرتكم بريطانيا؟.
- رسمياً بضع سنين، لكن انتدابها دام ٣٧ سنة.
- فرنسا جثمت على صدورنا أكثر من قرن. وهي ما زالت قبلتنا.
- واضح أنّ الأمر يتعلّق بكيفية حكمها لبلدكم. كأنها لم تكن قاسية، أو تركت لكم إرثاً ما من الحضارة. بينما بريطانيا لم تترك لنا غير قاعدتين حربيتين: (سن الذبان) و(الحبّانية).. والخط الحديدي الذي أوجده قبلها الألمان والعثمانيون.
- الاستعمار هو الاستعمار، ألم تسمع بمأساة الجزائريين. ربما كان الوضع عندنا أقل بشاعة، لكنه استعمار.
- وكم بقيت في فرنسا؟.
- سنتين. كان عندي المال الذي يجلب كل شيء، لم ينقصني شيءٌ إلا الدراسة التي خرجت أصلاً من أجلها. كنت أريد دراسة الطبّ. رغبةٌ كانت قد انتابتني في تونس. أن تكون طبيباً وشهادتك فرنسية يعني لك ولعائلتك الشيء الكثير. لهذا لم يقصّر والدي بمساعدتي. بعد مدة بسيطة هناك، اكتشف أنها كانت رغبةٌ عارضة سرعان ما ركنتها في آخر الاهتمامات. تذوقت بدلها الحياة كما هي عليه في فرنسا. الحياة التي تقيأتها مرة واحدة بعد أن قطع أبي المساعدة عني. ماذا أفعل.. كنت عاجزاً عن

تسديد أقساط الدراسة للسنة الجديدة. لا أدري كيف وصلتهم أخبار صعلكتي ومجوني في باريس. يا رجل كنت أريد كل شيءٍ دفعة واحدة. تشردت حينا واشتغلت حيناً وقررت التحدي. هذه المرة تحدي أبي.

قزرت العمل وجمع المال لتدبير أقساط الدراسة، ومن ثم العودة إلى فرنسا من جديد. ركبت هذه السفينة منذ تسعة أشهر، بعد كم شهر سيكون عندي المال الذي أستطيع أن أسدد به قسط سنة دراسية زائداً معيشة. لا أريد أن أخذل نفسي من جديد. أحاول أن أثبت لأبي قدرتي على فعل شيء. لكن الآن تلخبط كلّ شيءٍ في رأسي. توجه السفينة إلى تونس لخبط مشروعي الواضح. تأكدت الآن أني حقيقة لا أحب دراسة الطب. إذن ما جدوى العودة والتسجيل من جديد. لكن من جهة أخرى، ستكون عودتي إلى تونس واستقراري بها هو الفشل بعينه، وإن كان معي شيء من المال. هل تصدقني إذا قلت لك؛ أفكر في عدم زيارة أهلي. سأظلّ في السفينة. رغم شوقي إلى أمي وأبي.

تصاعد انفعال عبدو، وراحت عيونه تزوغ وتبحلق في الفراغ الأسود. لعله ما زال يريد ملاحقة ذلك الخيط الضوئي الذي يصله من مدينته. صرت أنا الآخر لا أدري ماذا أفعل.. هل أواسيه بعد أن أثرت فيه هذه اللواعج، أم أعاود طلبي الذي أتيته من أجله؟، صار للصمت منقارٌ ينقر في فوهة أحزاننا الكامنة ربما تحت جلودنا. أخرجت سيجارتين من علبتي، أشعلتهما معاً وقدمت له واحدة. لم يزل في شروده محاولاً الإمساك بذلك الخيط اللونيّ اللعين الخارج من جسد مدينته. أخبرته أني سأجلب ما تبقى عندي من (أوزو). وجدته قد ابتسم بذات الحزن وقال:

- سنسكر على شواطئ تونس.. هل كنت تحلم بهذا يا عراقي؟.

- ما زلنا في البحر يا رجل.
- تعرف، أنهم يسمّون هذا الميناء (حلق الواد)؟.
- لكن أين هو الوادي ليكون له مثل هذا الحلق؟.

تجاهل سؤالي، وأخذ يشير بيده:

- هل ترى ذلك الضوء النازل من الجبل.. هناك حيث الأضوية تشكل قوساً؟.

كان يشير إلى مكانٍ بعيد نسبياً..

- هناك مزار سيدي محرز.. هل سمعت بـ(سيدي محرز).

قلت، ولعلني فاجأته:

- نعم. هل تريد أن أسرد لك قصته.
- إنه مكان مقدس. لكن كيف عرفت أنت قصّته؟.

قلت:

- سأقول لك قصّته. وهي قصّة جميلة. لكن بعد أن تعدني بتحقيق رغبتي.
- أية رغبة؟.
- طبعاً، أنت نسيت.. لقد وعدتني أن تجعلني أرى أمك وهي تستقبلك.
- لا أدري إن كنت سأرى أمي.. أم أقضي الأيام الثلاثة في السفينة. يا سيدي لو ذهبت إليها سآخذك معي.. والآن احكيلي ماذا تعرف عن (سيدي محرز)..
- على فكرة، قرأت أنه توجد عين ماءٍ شهيرة بجوار ضريح سيدي محرز، أو لنقل إنّ سيدي محرز دفن بجوارها. يقال أن هذه العين مباركة، وهي تروي كلّ زائر. كذلك يزورها الأطفال يوم ختانهم، والعذارى قبل زفافهنّ.. هل معلوماتي صحيحة؟.

أخذ عبدو يهزّ رأسه وهو يبتسم أن: نعم.

- يا سيدي يقال أنه في زمن العثمانيين كانت تونس محتلة من قبل الأوربيين لعلهم الفرنسيين منذ القرن السادس عشر.. انظر وأنت تقول لي أن فرنسا جثمت على صدوركم أكثر من قرن.. أي قرن هذا؟، منذ القرن السادس عشر كانت فرنسا موجودة عندكم. لكن العثمانيين حرروها، وحسب الأسطورة الشعبية، أرتبط أمر تحرير تونس من الأوربيين بالولي الصالح (سيدي محرز).. قيل أنه طاف على السلطان العثماني في (استنبول) أثناء نومه. سأله السلطان:
- من أنت؟. أجابه الولي الصالح:
- أنا محرز. سأل السلطان:
- وماذا تريد. أجاب:
- أريدك أن تنقذ البلاد من الكفّار.

عندما استيقظ السلطان، سأل عن بلاد الشيخ محرز، فقيل له أنها تونس. يُقال أنه جند حملة كبيرة، واستطاع أن يسترجع تونس من يد الأوروبيين. هكذا تقول الأسطورة، أما الحقيقة فعليك أن تبحث عنها في كتب التاريخ.

أفكر الآن؛ ماذا تراني فاعلاً لو أنهى (ابن زوال) روايته وعاد إلى عالم الأرواح؟، تعودت عليه، حتى صرت أفتقده في بقية الليالي. ستكون خسارتي باهظة، نسف كل ما كان في رأسي من مشاريع كنت أنوي كتابتها قبل التعرف عليه، كنت معه مستلباً، إناءً فارغاً هو من يملؤها. إنّ حيرتي شديدة، وأنا لم أخبر بعدُ أحداً بما يحصل لي في تلك الليالي. من هذا الذي سيصدق هذياني لو حاولت.. ماذا تريد أن تقول يا هذا.. روحٌ تزورك في أنصاف الليالي؟.

أنا الآخر لا أومن بعالم الأرواح، الأمر عندي لا يتعدى اعتقاد من اعتقادات شعوبٍ لم تزل منشدة إلى ماضيها. أسلافي القدامى اعتقدوا أن هناك من يلقن الشعراء ما يقولونه وأوجدوا لأولئك الملقنين وصفا أو اسماً هو أقرب إلى القدح الذي يراد منه مدحاً، قالوا أنه (شيطان الشاعر) وأوجدوا لأولئك الشياطين مستقراً أسموه (وادي عبقر). وادٍ موجودٌ في لا مكان.

رغم هذا وذاك أنا لست في خيار التصديق من عدمه. فهذا أمرٌ ربما لا أجد إجابةً عليه إلا في الدين تحديداً وعبر الإيمان لا الاقتناع. أن تؤمن، يعنى أن تضع الحد الفاصل بين الشك والاقتناع، ما بعد الإيمان لن تخضع الأمور للعقل، إنما لوسيلة أخرى، درج المؤمنون على إحالتها إلى القلب. اجتمعت الأديان على وجود ذلك العالم ومآله، إنما هي اختلفت حول التصنيف؛ مَنْ من الأرواح يحق لها دخول النعيم ومَنْ تلك التي ستحرم منه. كلّ دين يدل أرواح مريديه إلى جنته وينذرهم من جحيمها، كأنّ هناك جناناً وليست جنة واحدة.

على أيّ حال، ما أكتبه الآن لا علاقة له بسرد (ابن زوال)، لعله أمر يشبه عملية تحضير، أستفزه لكي يطل عليّ. مضت على إطلالة البدر ساعات، وهو لم يصل بعد. انتهيت معه في الليلة السابقة عند (سيدي محرز). وبعد إعادة قراءة ما كتبته؛ وجدت أن هذا الولي ليس حكراً على تونس. عندنا كذلك نسخةٌ منه. يسمونه عندنا (سيد حرز). شخصية لها حضور وإجلال

في الذاكرة الشعبية، وهو حديثٌ قياساً إلى النسخة التونسية، إذ له أبناءٌ وأحفاد موجودون في مدينة العمارة، وبنى له المؤمنون بكراماته مزاراً صار مقدّساً. توقف يا صاحبي ها أنت مرة أخرى تشرف على التجديف. عن أي نسخٍ تتحدث..؟، على أيّ حال، لست هنا بوارد هدايتك من عدمها، هذا شأنك. لكن دعني أكمل لك ما بقي في مساري إلى الحفرة الجماعية.. لم يبق الكثير حتى وصولي إليها..

ها هو قد وصل. ألم أقل لكم.. لقد استحضرته.

تصادف وجودنا في تونس مع شهر رمضان القمريّ الداخل في شهر تموز الشمسي. وجدوا أخيراً مرسى لسفينتا بعد يومين من الانتظار في عرض البحر. دخلنا المدينة. ليس كفاتحين، بل كصعاليك. ومبعث الصعلكة؛ أنّ رمضان التموزي، كان قد قلب رتابة المدينة، ناثراً طقوسه في كل زواياها. حوّل نهارها إلى زوايا وجحور ظليلة تسبت فيها الكائنات، وفي الليل تنبعث من جديد. ينبعثون جميعاً بعد مدفع الإفطار. يبدو أن المدينة بقضّها وقضيضها داخلة في الصيام. الأجانب هم الوحيدون من يدورون في نهارها الخاوي الكسول حد الخدر.

مع خواءِ بهذا الانتشار، استعاد خالد زوال خلال تجواله في المدينة، عادة جمع الكتب والمجلات. لقصر مدة بقاء السفينة، وعدم حسمه لقرار نزوله في تونس، تحول إلى مسافر قد داهمه السفر فجأة وأمتعته لم تزل مبعثرة. بهذه العجالة كان عليه أن يجمع ما يستطيع جمعه من كتب ومجلات وصحف، بعشوائيّة الملاحق سفره، وهو لا يعرف حتى هل سيتسنى له قراءة كل تلك الأكداس من الورق. رغم أنّ مشروع النزول لم يزل يطوف بين حينٍ وآخر في رأسه على شكل علامتي استفهام: نزول.. أم رحيل؟.

منذ اليوم الذي دهمت كابينته شرطة الجمارك التوانسة، تيقن من مهارته التجارية. لقد اقتنع وهم ما زالوا في المياه الدولية بنصيحة حسن. اشترى له عشرة قناني ويسكي، مع عدد مماثل من كروسات سجائر المالبورو. على أمل بيعها بسعر مضاعف، يعينه على تحمل نفقات البقاء في المدينة دون مد اليد إلى الراتب. لكنه وبدل من أن يخفي بضاعته المهربة، ثم يخرجها في الميناء، كان قد نساها مبعثرة على سريره. ولما وصل رجال شرطة الجمارك، مسكوه بالجرم المشهود. هكذا يكون قد دفع ثمنها مرتين، مرةً حين اشتراها بسعر السوق الحرة، ومرة حين دفع عنها ضريبة

تساوي سعرها ذاك.

ولأنّ رد فعله الوحيد الذي يواجه به فشله هو مواصلة الفشل حتى النهاية، مثلما يحصل على الدوام معه، إذ يقع من يده كأس زجاجٍ وينثلم قليلاً، تجده بدل رفع الكأس المثلوم إلى الحاوية، يدوس عليه بقدمه ليتهشم تماماً، بعدها يقضي وقتاً قد يطول في لملمة نثار الزجاج. قرر أن لا يبيع شيئاً من بضاعته المهربة، بل يتركها لاستهلاكه الشخصي وكأنه يريد مناكفة الشرطة. قسّم يومه إلى ثلاث مساحات، الأولى تبدأ من الصباح حتى الظهيرة، والثانية هي الظهيرة الممتدة حتى انكسار الحر، والثالثة تلك المفتوحة حتى تخوم الفجر. إن كان قد وجد حلاً للمساحة الصباحية ببحثه المستميت على عناوين الكتب والمجلّات، لم يجد حلاً لظهيرته اللاهبة غير عبور تلك المسافة الزمنية الثقيلة على متن ذلك السائل الذهبي اللعين الذي دفع ثمنه مرتين. ولإفراطه في الشرب، كان بدل أن ينتشي ينطفئ، ينطبق فمه، ويهمد لسانه، متحولاً إلى صخرة يتورط بها محمد أو حسن يدحرجانه من مكانٍ إلى آخر، ساذين بوجهه إمكانية الخروج إلى الشوارع الرمضانية خوفاً عليه. لو حصل ذلك، لكانت فضيحته بجلاجل كما يقول حسن المصري، مفطر ومخمور!!.

لم يزل قرار بقائه في تونس معلّقاً في فوضى من الذرائع الضدية، تلك التي يطلقها بوجهه الآخرون. لكن في اليوم الثالث، وجد أن المدينة ذاتها ترفض بقاءه. لم يجدها كما تخيلها، ذلك الوعاء الذي سينزع فيه معاناته من ثقل الرطانات الأجنبية. يرى كلّ شيء في المدينة يحمل له عداءه الخاص، كأنّ على جبينه علامة نحس. أحال الأمر إلى لهجته المصرية. إذ يحتاج التحدث تقفز المفردات المصرية على لسانه حتى دون إرادته. في كل الأحوال لا يستطيع استخدام الفصحى مع الحانوتي وصاحب المطعم والعاهرات. اللهجة المصرية هي الوحيدة التي يستطيع عبرها التفاهم. حتى أوجد لنفسه نظرية أو نبوءة، أنّ اللهجة المصرية ستكون في قادم الايام هي لغة العرب، لقدرتها على التحول من لهجة محلية إلى لغة كاملة. لا يوجد عربي لم يشاهد تلفزيون أو سينما، كذلك لا يوجد تلفزيون أو سينما لم يعرضا الأفلام والمسلسلات المصرية. هي للناس بمثابة الفسحة التي يأخذون فيها نفساً بين نشرة أخبار وأخرى من نشرات الزعماء العرب وإنجازاتهم التاريخية والصروح الحضارية التي يبنونها على أكتافهم.

لكنه اليوم لم يعدل فقط عن فكرة النزول والبقاء في تونس، بل عدل عن رأيه في صلاحية اللهجة المصرية وسيلة تفاهم لدولة الوحدة. صحيح

هم يفهمونه تماماً حين يتحدث بالمصرية، لكن يصاحب هذا الفهم إهمال عجيب يصل حد الازدراء. حتى وجد نفسه يسأل نفسه؛ ماذا يا ترى فعل المصريون هنا ليستحقوا كل هذا. لذلك قرر أن يترك اللهجة المصرية ويستخدم لهجته العراقية، لِمَ لا. وبدأ مشروعه الجديد مع إحدى العاهرات في ذلك البيت الذي سمّاه محمد بـ(البيت الكبير). أقنع محمد في إحدى الظهريات وقبل أن يدخل في حالة الانطفاء أن يرافقه إلى ذلك البيت. وهذا وافق. وفقط بعد وصولهم إلى البيت وطرقهم للباب. تنبه محمد إلى هفوته. ضرب على جبينه. سأله خالد:

- ماذا بك؟.

أجابه محمد وهو ما زال يخرج أصواتاً من فمه دلالة لوم النفس على النسيان:

- يا صاحبي نسيت أننا في رمضان.

أجاب خالد وهو لم يفهم بعد ما الذي حصل لصاحبه:

- طيّب. وما علاقة القحاب برمضان.. احنا رايحين على القحاب مو على جامع.
- كيف..؟، هنّ صائماتٌ الآن. دعنا نعود. لن يستقبلنا أحد.

عاد وهو يداور مع نفسه هذا الشيء الذي وجد فيه إشكاليةً لا يمكن له أن يفهمها، يعني ما علاقة العهر بالعبادة. خصوصاً أن عمل أولئك النسوة يتواصل بعد الفطور. لذا قرر أن يتأكد هل حقاً هنّ يمارسن العمل بعد الفطور. فعلها هذه المرة بمفرده دون مساعدة محمد. وصل إلى (البيت الكبير) الذي عرف طريقه في الظهيرة. طرق الباب. تحدث مع البواب بعراقيته، أجابه البواب بتونسيته. أحدهم لم يفهم الآخر. غير أن المعنى العام للبواب كان مفهوماً.. ماذا يريد شاب بوتد منتصب من هذا البيت؟، أدخله إلى الصالة الكبيرة. ظل واقفاً في منتصفها لا يدري ماذا يفعل. أمامه بضع نساءٍ متشابهات في كل شيء باستثناء ألوان قمصان النوم. كنّ مسترخيات على الأرائك. لعلهنّ ما زلن في خدر الشبع بعد رحلة خواء البطون. أعمارهنّ تعدت الأربعين بسنين

لعلها كثيرة. أجسادهنّ تكاد تكون مدوّرة لكثرة طبقات الشحم. لم يكنّ مباليات بدخوله المحاذر. غير أنّ تجهم ملامحه غير الودودة، أعطت انطباع من يبحث عن ثأرٍ في هذا البيت. وصله صوت البواب من جديد:

- ويش تبغي يا رجل..؟.

اختار له مقعداً بعيداً عن أرائك النساء المسترخيات، جلس وعيونه لم تزل سادرة في مكانٍ آخر بعيدٍ كل البعد عن محتويات الصالة. هو يبحث عن امرأة غير موجودة هنا. سأله البواب للمرة الثالثة وهذه المرة بالمغربية:

- ويش كاين تقوّد؟.

أهمل لسعة المفردة الأخيرة، لأنه كان قد سمعها كثيراً في أحاديث محمد وعبدو، وعرف أن دلالتها غير (القوادة) العراقيّة. أجاب بما يشبه الهمس:

- ماكو شي.

ضحكت واحدة من المسترخيات على أريكتها. وسألت:

- ويش؟.

رفع من وتيرة صوته بوجهها:

- ماكو شي.

أخذ الوتد المنتصب في وسطه بالتراخي، بعدما كان متوهجاً قبل قليل. لعله المشهد الباذخ من الأفخاذ والصدور والبطون والفروج المسترخية على الأرائك جعله ينطفئ تماماً. ضحكت النساء ضحكاً خدراً. جلس البواب إلى جانبه وهو يحاول أن يكون ودوداً. أخذ يحدثه باللهجة المصرية:

- حاجيبلك كباية سعة. كويس؟.

استدار إليه، وكان محتصراً برغبةٍ جارفة للخروج من البيت، لكنها كانت رغبة تبحث عن فعلها، رغبةٍ عزلاء، لم تزل تحت سيطرة بقايا التوهج الذي ألمّ به طيلة ذلك اليوم، اليوم الأخير من وجوده في تونس. وجد نفسه

يقول للبواب:

- أريد واحدة أنت تختارها لي.

ابتسم البواب. وأشار بعينه إلى إحداهنّ. كانت تلك مستلقية على جنبها على طول الأريكة تراقب مشهد هذا الغريب. بدا وكأنها فوجئت باختيارها من قبل البواب. تباطأت في نهوضها. سوت شعرها المنفوش قليلاً. عدّلت من وضع قميص نومها القصير الذي لم يكن يخفي شيئاً من تفاصيل جسدها الأسطواني. قبل أن تصعد الدرج الواصل إلى غرفتها فوق، أشارت بأصبعها لخالد أن يتبعها. سار وراءها. غير أنّ المسافة بين صعودها الغنج على السلّم الضيّق وصعوده المتردد خلفها، جعله يتملّى في رجرجة ردفيها العظيمين. تكومت على سريرها في غرفتها مقدمةً بضاعتها، منتظرة أن يفعلها ويخرج. لكنه كان قد قذف احتصاره وهو على السلّم. بالنسبة له انتهى الأمر. سألت هي باللهجة المصرية وبنفاذ صبر:

- أنت مستني إيه؟.

هو ما زال في دائرة الـ(ماكو شي)

- إيه ديه (ماكنو شي).. أنت مصري؟.
- لا. عراقي.

صمتت برهة وكأنها تفكر بشيء. ثم خرجت من صمتها:

- يلا.. عراقي.. مصري.. كلو زي بعضو.

دفع لها الثمن الذي قاله البواب قبل قليل. وخرج دون أن يلمسها. هام من جديد في شوارع المدينة، خافياً وحدته وشعوره بالتقزز والفشل. الشوارع ممتلئة بالجموع التي أفطرت لتوها وها هي تتكاسل على الأرصفة. كانت المدينة مزدحمة كما لو أن جميع سكانها تركوا منازلهم وخرجوا إلى الشوارع. مبعثرين بين المقاهي والواجهات المتنوعة المنتشرة على الأرصفة. كانت الواجهات محتفلة برمضان بحلة قوس قزحية من الأضوية والألوان كأنّها في عرس، هي تتهيأ للعيد، وهذا

عرسٌ حقيقي.

في لجج الجموع، أحس خالد زوال بوحدته بأقبح صورها. وحيداً يسير في شوارع غريبة، وسط جموع غريبة، يتشمم روائح غريبة. تتناهشه هواجس الخيبة، وأفكارٌ لا تعدو كونها رؤوس نوايا ملتبسة ومتزاحمة في رأسه، يأكل بعضها بعضاً.. نوايا دائرية ما إن تبرز له رأسها حتى تفز منه وتظل تدور لتعود من جديد إلى نقطة انطلاقها. دائرية النوايا وهواجس الخيبة والروائح الغريبة، جعلته يعتقد أن الشوارع التي يتجوّل فيها هي الأخرى دائرية. هي المرة الثالثة التي يجد نفسه في ذات الشارع (نهج بورقيبة). وفي ذهنه أنّ الشارع بات خلفه وربما ضاع في زحمه الشوارع.

لعله في داخله كان يخشى الابتعاد أكثر من محيط الميناء، لئلا يضيع في الكواليس الخلفية للمدينة. لكل مدينة كواليسها الخلفية، تلك التي لا يدخلها الغرباء. ثمة رغبة تدعوه لرؤية (جامع الزيتونة) الذي تعزف عليه وعلى تاريخه من خلال قراءاته. لكنها ظلت رغبة تدور في فضاء دوائره المتناسخة لا يجرؤ على تحقيقها. كأنه لا يريد تحقيق شيء. أرجأ كل شيء لحين رؤية عبدو. وهذا كان مشغولاً عنه بعائلته التي قرر أخيراً أن يزورها بعد أن حسم أمره بعدم البقاء. هي ليلته الأخيرة في تونس. استعاد ذلك الخبر الذي همسه في أذنه محمد وهو يعيد عليه التحذير من النزول في تونس:

- ستبحر السفينة إلى فينيسيا.
- فينيسيا؟.

هزّ المغربي رأسه وهو يضحك بأسنانه المندفعة إلى الأمام. لم يزل ذلك المغربيّ ملغزاً.. هذا الشيطان يضمر شيئاً. بعد العودة الثالثة إلى (نهج بورقيبة)، قرر ترك (النهج) من منتصفه هذه المرة والانعطاف صعوداً إلى الجبل، حاول الوصول إلى ذلك المكان الذي كان يراقبه مع عبدو وهما ما زالا في البحر؛ مرقد (سيدي محرز).

بعد فترة قصيرة من الصعود الملتوي، اقتنع أنّ صعود جبل هو غير الدوران في شوارع منبسطة، لقد تعب. قطع نيته من وسطها واختار مقهى من تلك المنتشرة على جانبي الشارع الفرعي الذي سلكه بعد تركه (نهج بورقيبة). لم تزل رغبة معابثة الثوانسة بلهجته تستهويه. مع وصول النادل يستفهمه عن طلبه. أجابه:

- أريد ربع زحلاوي.
- ويش؟.
- ربع زحلاوي. شنو ما تعرف الزحلاوي.. ماء أبيض إذا خلطته مع الماء يصير حليب.
- تقدر تتكلم الفرنسية؟.
- ولا حرف.
- طيب الإنكليزية؟.
- أقصد نوع من العصير اسمه زحلاوي.. هات لي أي عصير عندكم.
- ها.. فهمت. العصير عندكم اسمه زحلاني؟.
- زحلاوي.. من زحلة، هاي مدينة بلبنان.
- حضرتك لبناني؟.
- لا. باكستاني.
- أهلاً وسهلاً.

لم يعثر على المودة والدفء، إلا في بيت عبدو. هذا الذي لم يحقق رغبته بمشاهدة مشهد استقبال الأم لولدها العائد بعد ثلاث سنين غربة. لكنه وفى بوعده للجميع، ودعاهم على الفطور في بيته في ثالث يوم بعد وصولهم. في ذلك اليوم تكفل به محمد وحسن لمنعه من الشرب. ظل منذ لحظة وصوله البيت، وهو ينظر إلى (أم عبدو). كانت الأم سعيدةً كالأطفال بوجودهم، وهي تشمل الجميع بنظراتها الودودة الحنونة. عرف من عبدو أن له إخواناً كباراً متزوجين ويسكنون ذات البيت. وصل أحدهم وكان اسمه (عثمان)، يكبر عبدو بكثير من

السنين. صافح الجميع عدا أباه، حيث جلس إلى جواره، عرفه عبدو بأصدقائه واحداً واحداً، وهذه المرة بجنسياتهم. ولما وصل إلى خالد قال: وهذا الأخ خالد عراقي. سأله (عثمان) من فوره:

- ايه يا عراقي.. وكيف دايره الحرب عندكم؟.

رد خالد بالمفردة التونسية الوحيدة التي تعرف عليها لكثرة سماعها في الشارع:

- باهية.

ضحك الجميع، مع أن خالد لم يكن يقصد التنكيت.

لقد تعشف رمضان التفوزي في تلك الأيام بضراوة جوعه وعطشه، أخذ من الجميع الكثير، حتى مزاج المجاملة. مع ذلك كانت الأم تجد الوقت والمزاج لتحادث خالد وتسأله عن أمه وبلده. واضح أن عبدو كان قد أخبرها بتلك الرغبة التي راودت خالداً. عبدو هو الترجمان بين الاثنين، والحديث ما زال خليطاً غير متجانس من فصحى ومصرية على عراقية وتونسية. غير أن ثمة حزنٍ قد تسرب إلى روح خالد زوال، وهو يدخل بيت عائلة لأول مرة بعد خروجه من بلده. حزن لا يدري من أين باغته حتى أنساه أنه في ظل عائلة تستقبله للمرة الأولى وربما الأخيرة، يتوجب عليه الابتسام وتبادل الحديث، أياً ما يكون الحديث، فهو أفضل من الصمت والبحلقة هكذا في الوجوه. تجهمت ملامحه وبدا متهرباً من الرد على الأسئلة. كان (أبو عبدو) ممازحاً لطيفاً، لكنه إذ وجد (خالداً) يتجهم حين يطلق نكتة، ويبتسم حين يتطلب الأمر الإصغاء أو الرد على سؤال، تجاهله بالقول التالي: «يا ابني كلنا قلوبنا مع العراق» وهو يشير إلى الحرب التي كانت دائرة في ذلك الوقت، ثم انصرف عنه إلى محمد الذي كان يحادثه كما لو يعرفه من سنين. فرشوا أخيراً السفرة الطويلة، وبدأوا بنقل الطعام إليها. قال عبدو:

- لقد طبخت أمي الكسكس بنفسها..

ردد الجميع مفردات الشكر والامتنان لتلك الأم التي رغم صومها تجشمت عناء إعداد مائدة لأكثر من عشرة أشخاص، إلا (خالداً) الذي ما زال في عبوسه وحيرته. استغرب عبدو هو الآخر لكل هذا التجهم الزّابض على وجه خالد، والمتجهم إذ يحاول الابتسام يغدو كالأبله. سأله عبدو:

- خالد!، هل تذوّقت الكسكس قبل الآن؟.

أجاب خالد بابتسامة الأبله:

- أبداً. أين هو؟.
- هذا الذي أمامك.

تنبه أن ثمّة صحن كبير أمامه فيه تقريباً كل أنواع الخضراوات واللحم فوق تلٍّ من الذي دعاه عبدو بالكسكس. وكان حول الصحن الكبير عدد من الأواني الكبيرة كذلك، فيها مرقٌ بذات المحتويات التي على الكسكس، حمّص، جزر، كوسا، شلغم، بصل، قرع، وجد نفسه ينطق أخيراً:

- أليس هذا برغل؟.

أجابه محمد:

- لا يا صاحبي.. كُل.. كُل.. رح تعرف.

تدخّلت (أم عبدو) تحثه على الأكل. رآها تكاد أن توكله بيدها بعد أن وجدته حائراً، لا يدري أين يمد يده وسط فوضى الأطباق الرمضانية. عملت له صحن فيه كل شيء، وهي ما زالت تشرح خطوات العمل في هذه الطبخة المتعبة.. رويداً رويداً والأم تشرح تفاصيل طبختها، غامت حتى تلك الابتسامة المنتزعة والتي كانت وسيلة خالد الوحيدة المتبقية للتفاهم مع عيون الأم.. تدخل عبدو موبخاً أمه هذه المرة:

- يا أمي اتركيه يأكل على كيفو.

لولا هذا التدخل، كانت الأم ستواصل شرح خطوات العمل، وهي تعتقد أنّ (خالداً) يفهم كل حرف تقوله، أو

لعلّه سيطبخها غداً. صارت الأم تربت على كتف خالد، وهي ما زالت تحثه على الأكل، ثم أضافت إلى صحنه قطعة لحم كبيرة..

- كُل يا أبني..

كل هذا الوقت كان خالد ينظر إلى عيونها. وجد أن عيون الأمهات تتشابه. لو سُئل حينها؛ ماذا يتمنى، لطلب دون تردد أن يضع رأسه في حضنها، ليتشمم رائحتها.. رائحة الأم، ربما كان ذلك هو سبب حزن خالد وتجهمه طيلة الوقت. (أم عبدو) لم تقبله حين عرفها عبدو عليه، بينما كانت أمه تقبّل أصدقاءه، حتى أولئك الذين لا تعرفهم..

في الليلة الأخيرة. نام الجميع مبكرين استعداداً لعمل الغد المجهد، الذي سيكون يوم الإبحار. البحارة بخبرتهم يعرفون مقدار الجهد الذي عليهم بذله يوم غد، إلا خالد زوال، فهو لم يعد إلى السفينة إلا بعد أن مل الدوران في الشوارع هائماً على وجهه. الصمت والظلام يخيمان على السفينة بكائناتها السابتة. والليل قد عبر منتصفه منذ زمن طويل. كان الخفير في تلك الليلة هو حسن. حيّاه خالد وقال له؛ أن بإمكانه الذهاب للنوم، لأنه سيأخذ نوبته. فرح لمبادرته وشكره. في تلك الليلة كان يشعر أن عليه أن يكتب شيئاً. لا يعرف ما هو. ظل جالساً على الكرسي الهزاز، قرب سياج السفينة من الجهة المواجهة للبحر. يبحلق في الامتداد الأظلم أمامه، كأنه يريد إخراج ذلك الشيء المحتصر به من ذلك السواد. تبين له أنه يريد أن يكتب رسالة، لكن لمن، لا يدري. رسالة أرادها تعويذة تبعد عنه أشباحاً مستفهمة برؤوس ساخرة، تطلق أسئلة لعوبة، تتقمص وجوهاً معروفة، تتتالى الوجوه، تتكرر، تتحاذى في تلك المساحة المكتظة من روحه. سخريّة الأسئلة تلتصق على الوجوه الداخلة في حلبة اكتظاظه.. هذا هو وجه محمود توأم ألعاب الطفولة.. نعم أنه هو (محمود جبر صگر) نازعاً عنه ذلك القناع الذي تقمصه حين بدأت الحرب. القناع المترب بغبار الجبهات،

أوامر الضباط، استغاثات الجنود، يرتدّ الوجه إلى ألعاب الطفولة، يبحث عن عظمٍ ضاع، عظمٍ قُذف به في عتمة الليل، يسدر محمود في حسابات منطق اللعب، وخالد يتتبع تلك الرائحة الأخرى، لا يبحث حيث يبحث الآخرون، لعله ما زال يبحث عن عظم آخر.. تتقارب الوجوه وتتداخل الملامح.. محمود مستلقٍ الآن على فخذ أمينة، وجهُ أمينة عتوب وهي تهدهد محمود، لكنّ وجه محمود كان يضحك كأنّ أمينة كانت تسرد عليه مفارقات حياتها مع رجالها.. ماذا يفعل محمود هنا، هل عاد من موته.. أين وجد أشلاءه وقد هرستها تروس الدبابة..؟، يسمع أمينة تتكلم بلسان محمود: أنت إنسان عابر، لم تكن أكثر من عابر سبيلٍ اصطدمت في المكان الخطأ كعادتك.. أنت غير موجود في حياتي.. كثيرون مثلك دخلوني وخرجوا.. كثيرون غيرهم سيأتون.. أنا ما زلت أمينة التي لم تعرفها، ابحث لك يا ولد عن متكئٍ آخر تريح عليه رأسك. مكتظّاً ما زال برغبة كتابة رسالة.. سوى لم يعثر على من سيرسلها إليه.. أيكتبها إلى محمود الغائب إلى الأبد أم إلى أمينة التي نفته عن عالمها.. اختفت أمينة .. أخذت معها (محموداً) وأزواجها الأربعة.. كلّ وجهٍ يفارقه يخلف له علامة استفهام تنتصب في مفترق دروبه.. علامات دوّامات فراغ.. ومن تلك الدوّامة المفرغة وجد نفسه على ضوء مصباح السفينة الظليل من خلفه يكتب الرسالة. كتبها على حواف الجريدة أو النشرة.. نشرة الاتحاد التونسي للشغل التي استعارها من عثمان قبل يومين وظلت مرمية على المصطبة قرب حافة السفينة.

للمبغى طقوس.. للمدفن طقوس.. للمدن في قفرها وخصوبتها طقوس.. وأنا رجلٌ بلا طقوس.. زرت المدفن، لا قبر لي فيه.. كلّ القبور في عيني تشابهت، العالي.. الداني.. البعيد.. القريب.. لا فرق في الألوان.. في الجدران.. قبور بين قبور وأنا أدور.. أبحث عمن تكون جسري للعبور.. اختلطت الألوان.. تلاوين الأسنان المفضّضة، مع تلك المرقطة بالقطران.. كلها تدندن في

الثغور.. تهت في دنيا الصدور.. لا فرق بين القبور.. لتكوني أنتِ.. أو أنتِ.. لا فرق بين القبور.. تعبق رائحة السوس في عتمة المبغى المجدور.. من يمد لي إصبعاً في هذا النشور.. عيوني نهمة وجسدي جائع.. لا أريد الرجوع قبل العبور.. أشار القبر بإصبعه المرفوع إلى سلّم منه العبور.. تبعت الإصبع المرفوع.. كل شيء في الإصبع مرفوع.. تكوم الإصبع على سرير النشور.. كل شيء مرفوع.. كيف أبدأ؟، كل شيء كان فيّ يعوي والآن في همود..

شعر أنّ سيله المهشّم قد نضب.. قرر التوقف عن الكتابة أو الهروب من الرسالة. ماذا أراد أن يكتب. لا شيء واضح. غير أن ثمة مسقط نور وحيد، كان ينير له العتمة، عتمة البحر، وعتمة الروح.. أخبره مسقط النور؛ أن هذا كان حاله في المبغى هذه الليلة.. ليلته الأخيرة في تونس.

ستكون ليلتنا الأخيرة، بعدها سنفترق. أنت ستظلّ تخوض حياتك حتى النهاية التي أراها كما أراك الآن، وأنا أعود إلى عالمي هناك. لن نلتقي ثانية إلا هناك. ستنشر أوراقي باسمك. لأنّ عالمك لم يتسع بعد لروايةٍ تكتبها روح..

- لا عليك ستكون أنت على غلافها (ليالي ابن زوال).. أيرضيك هذا؟، ثم إنّ عالمنا قد أتسع لرواية يكتبها مجهول.. ألم تسمع برئيسنا الحالي وهو يوقع روايته الأولى بـ(لكاتبها...).. يعني أنه ما زال يلاحقك ويحرمك حتى من هذا الاحتمال لو خضته.. لكن ما زلت روحاً ترى ما لا يراه الجسد الفاني. ألا تقل لي: كيف ستكون نهايتي؟.
- لو قلتها لك، لما خضت حياتك يا صاحبي. الحافز الوحيد في الحياة الذي يجعلك تواصلها هو أنك لا تعرف نهايتها.
- هذا يذكرني بحوارٍ خضته مع أحد مواطني هذا البلد الذي استضافني لاجئاً. زعم ذلك المواطن أنه يستطيع معرفة تفاصيل ما سيفعله في اليوم القادم والذي بعده إلى حد سنة قادمة.. لأن خطته لحياته لم تزل سنوية. حينها أعلنت أمامه استسلامي لأني ما زلت أفتقر للخطة اليومية.
- لعلّه قصد ما يعرفه من أفعالٍ وواجبات عليه أداؤها للمرة الألف. ذات الحركات، ذات النتائج. لكن الحياة هي غير هذه الحركات المحسوبة والنتائج المتوقعة. الحياة كانت وستبقى ذلك المجهول الجميل والقبيح، السعيد والحزين، العادل والظالم.. هي مكور كلّ

تناقضات الوجود القادرة على الحدوث لذات الشخص وبذات القوة والدفع.. كيف لك أن تتعرف على ملامحها إذن..؟.

- لقد أدخلتني في دواليب التفلسف يا صاحبي.
- دعنا إذاً نبدأ النهاية. ليس من المعقول أن أدعك تكتب بلا نهاية. مع أني لا أومن بوجود نهايات.. كل نهاية هي بداية جديدة.. لكن دعني أستعير تعابير عالمك المحسوس الذي لا يفهم أشياءه إلا بتقطيعها.
- لكن دعني أولاً أجهّز قهوتي.. لأنك دهمتني مبكراً هذه الليلة. وأرجوك لا تتبعني إلى المطبخ. لأني سأنسى القهوة تغلي وتفوح على الطباخ كما حصل لي كثيراً منذ تعرفت عليك، الأمر الذي خلق لي احتكاكات تتفاوت في عنفها مع زوجتي..
- الله يعينك!.
- تتشفى؟.
- إننا ننظر إليكم كما تنظرون أنتم إلى عالم الأطفال..

أخذت ضحكتي معي إلى المطبخ. عملت قهوتي وفاحت على الطباخ كما في كل مرة وعدت إلى (ابن زوال).

في اليوم الثاني على مغادرتهم ميناء (حلق الواد)، أفشى المغربي هذا المدكوك بألاعيب البحر، سرّه إلى خالد زوال. لم يكن لغزاً. بل قراراً مبيتاً. لعله اتخذه منذ لحظة ركوبه هذه السفينة قبل سنتين، وهو طيلة ذلك الوقت كان يداوره، وينتظر اللحظة المناسبة. كان خالد حينها يغوص في نفايات اللامعقول بحثاً عن المعقول. يجد من الصعوبة بمكان أن تختار حلاً من بين حزمة حلول متشابهة، إلا أنها رغم تشابهها يسمونها حلولاً. يجد نفسه جالساً على فوهة بركان كان خامداً حتى الأمس القريب. ها هو ينفجر الآن، ناثراً حممه في كل الاتجاهات، وهو جالس يراقب الحمم والنيران، وهي

تتقاذف ويحرق لهيبها وجهه.. هو على الحافة يراقب ولا يملك غير المراقبة. عيونه لا تشير إلى اتجاه، ورأسه خال من التصميم. كانت الفكرة أو سر المغربي، مفاجأة.

مزة أخرى يجد نفسه خارج اللعبة، لم يكن ضرورياً لها من الأصل. كان البحارة قد اتفقوا على التمحور حول المغربي محمد. خطتهم واضحة والخيارات أمامهم ليست بهذا التشابه. ببساطة هم قرروا الإضراب. نعم الإضراب. لكنه إضراب من نوع خاص، سيكون ضربة العمر لهذه الكائنات المعتاشة على البحر وألاعيبه. لم يخبروا (خالداً) إلا بعد أن تيقنوا أن السفينة متوجهة إلى (فينيسيا) فعلاً، وليس إلى مكانٍ آخر. في البداية قابل خالد ذلك الاقتراح بضحك مجنون، متواصل، بدا غريباً أمام جديّة الفعل المُقترح. انتاب القلق ملامح محمد، حتى ظن أن (خالداً) لم يزل مخموراً منذ ليلة البارحة.. أو هو ببساطة لم يفهم شيئاً بعد.. أو.. وهذا احتمال وارد كذلك.. أن يفعلها ويشي بهم، وأمام الكابتن لم تزل خيارات عديدة لتجنّب الفخ. قرر أخيراً أن يعنفه:

- أنت حيّرتني يا صاحبي. أقلك إضراب. تضحك. ويش أنت؟.
- لأن هذا بالضبط الذي منعتني من تحقيقه أنت. كنت أريد النزول في تونس. لماذا لم تتفقوا معي هناك. أما كان أفضل لعبدو مثلاً البقاء في بلده. وأنت ستكون قريباً من المغرب، وحسن كذلك..
- يعني أنت موافق على النزول في فينيسيا أم لا؟.
- لا.
- نعم؟!.
- ليس لي شيءٌ أفعله هناك.
- لكننا لا نستطيع أن نعلن إضرابنا في مكان آخر. أفهمني يا صاحبي. سنحصل هناك على حقوق كثيرة كنا محرومين منها.

- لكني أبحث عن مكانٍ آخر لنزولي غير (فينيسيا)..
- (فينيسيا) هي المكان المثالي لنزولنا جميعاً..
- وأنا أفكر بالنزول في (قبرص) مثلاً.

ما زال مسكوناً بوهم العثور على أمينة العراقية. يريد تصديق رواية حامد جيفارا عن عملها هناك.

- يا أخي مكان النزول ليس هو المهم فيما نفكر به. ما يعنينا في (فينيسيا) أنّ فيها نقابة دولية للبحّارة، وهي ستقف إلى جانبنا.
- النقابات في كل مكان.
- إلا هذه النقابة. وفي العادة سفينتنا لا تمر في (فينيسيا) إلا نادراً.
- محمد إنّ جهلي بقوانين البحر والبحارة لا يجعلني أفهم. ألا توضح لي أكثر؟.
- باختصار، إذا تبنت النقابة قضيتنا، وهذا أنا متأكد منه، سنحصل على رواتبنا المتجمعة بشكل قانوني، أي الحد الأدنى لراتب البحار، وهذا سيكون ثلاثة أضعاف ما نحصل عليه الآن، تضاف إليها أجور إضافية تخص المناوبات وتنظيف العنابر وهذه لم تحسب لنا في السابق، كذلك سنحصل على تعويض نهاية الخدمة، زائداً تذاكر سفر إلى أي مكان نريده.. هل تريد أكثر من هذا؟.
- طيب والعقود التي وقعناها مع الشركة. ألا يستطيع الكابتن أن يمسكنا بها؟.
- لا يجرؤ على إظهارها أمام النقابة، لأنها غير شرعية، هي فقط بيننا وبينه، ولا تصلح إلا في الموانئ اليونانية. سيكون أمام الكابتن خياران: إما أن يدفع أجور رسو إضافية عن كلّ يوم تأخير، حتى يحل مشكلته مع بحارته، أو يدفع لنا حسب القانون. للنقابة سلطة عدم السماح للسفينة العالقة مع

بحارتها بالإبحار قبل حل المشكلة. وفي كل الأحوال سيرغمونه على الحل الثاني.

- إذا كان الأمر كذلك.. وفيه تذكرة سفر مجانية. لتكن (فينيسيا).

للمرة الألف لا تكون خياراته شخصية. خيارات يفرضها عليه الخارج المتفق على أهداف عملية. فكّر أن فترة عمله لم تتجاوز الشهر بعد. ما سيحصل عليه بعد حسم الديون الكثيرة التي استدانها على الحساب، لن يكون كافياً لتحقيق أي شيء. وجد نفسه يفكر هذه المرة بشكل عملي، إنما بعد فوات الأوان. لكن يبقى إغراء تذكرة السفر المجانية يلوح أمامه كحلٍّ سحري. ما عليه من الآن سوى اختيار البلد الجديد لرحلته القادمة. عرف أيضاً أن ما كان يشغل عبدو هناك هو هذا الإغراء. سيسدد أقساط الدراسة أخيراً معوّضاً فشلاً قديماً. ومحمد سيترك البحر ويبدأ بمشروعه الصغير الذي يكبر، أما حسن الميكانيكي فواضح أنه سيغير السفينة بأخرى. لا يمل من البحر هذا المتشحّم بزيت المكائن. الأمر بالنسبة للجميع هو عملية حسابية بسيطة تحمل الكثير من الإغراء، أنها: واحد في ثلاثة. الوحيد الذي شذ عن الجمع العربي هو رشيد. لم يخبره أحد بالإضراب. بل إن محمد حذر (خالداً) من إخباره:

- لا تخبر رشيد. قد يفعلها ويخبر الكابتن قبل وصولنا إلى (فينيسيا).

واضح أن رشيد لا يريد أن يتقاعد، ربما هو ما زال يحلم بسفينة سياحية، وهذه ستحتاج إلى ملف مهنيّ نظيف، لا شائبة إضراب فيه. سيحصل على شهادة الكابتن وقتما يشاء. حاول خالد لاحقاً معرفة أسبابه، لما وصلت السفينة ورست في (فينيسيا) سأله خالد:

- ليش ما تريد تنزل معنا؟.
- خليك منّي. بس إذا سألتني النصيحة، سأقول لك: لا تنزل يا خالد. لأنك الوحيد راح تطلع من المولد بلا

حمَص. لم يمض على عملك غير أسبوعين يا زلمة.

- إذا لم أنزل هنا. سأنزل في مكان آخر. هذا إذا لم يطردونني، أو يسلموني إلى الشرطة في اليونان.. خلّيني بلا حمَص أحسن من شحني إلى (بغداد).
- بالعكس. الكابتن راح يشكرك على وقفتك معه. وراح يتمسك بيك أكثر.
- ومنو گلك آني متمسك بالبحر أصلاً؟.
- يا زلمة ما في أحسن من البحر لواحد يريد يعيش.
- وداعتك إذا بقيت، راح ينطبق علي مَثَل عراقي يقول: «لا حظت برجيلها ولا خذت سيد علي.» تريد أفسّر لك هذا المثل؟.
- بلا سيد علي بلا بطيخ.. أنت حر.
- يا رجل خلّيني أكون مع هذا الجمع العربي المتفق لأول مرة في التاريخ.

كان رشيد منزعجاً من هذا الإضراب. بل صار يبالغ بتقربه من اليونانيين. عبر عن موقفه مساءً حين جاء محمد متأخراً على موعد الطعام. لم يقدم له وجبته. قال: خلاص سكّرنا. فهم محمد الأمر على خلفية موقف رشيد الرافض للإضراب.

فينيسيا

كانت المدينة في تلك الأمسية تستقبل مهرجاناً للزوارق. هكذا بدا الأمر لخالد زوال. زوارق فيها فرق موسيقية، وأخرى للرقص, وعلى الأرصفة القليلة باعة الأطعمة والمشروبات، بأكشاكهم البلاستيكية الخفيفة القابلة للطي، والحشود البشرية السائرة مع سير الزوارق وتلك المطلّة من حافات الجسور الصغيرة التي تشبه لعب أطفال. كل هذه المظاهر أوحت أن ثمة عيد تحتفل به (فينيسيا). وكان هو يوم الصيادين.. هذا ما أخبرهم به حسن، الذي عرف الأمر من صديقته الإيطالية. حسن كان الوحيد الذي لحق خلال تلك الأيام المشحونة بالتوتّر

والقلق، أيام المفاوضات والمماطلات والوعود أن يظفر له بصيدٍ نسائي. ذات العادة يمارسها، ما أن يصل إلى ميناء جديد، حتى يشحذ مجساته اللاقطة منذ أول لحظة تطأ قدمه بها أرض الميناء، الوقت من ذهب، وللدقائق ثمن. قال عنه محمد: هذا إذا لم يحصل على امرأة يبحث عن صبي، المهم أن لا يعود خالي الوفاض. لذلك كان حسن خلال تلك الأيام مع الإضراب وخارجه، يخرج من السفينة صباحاً ولا يعود إلا آخر الليل منهكاً.

هي (فينيسيا) إذاً تحتفل مع صياديها في عيدهم. هذه المدينة لم تكن في ذهن خالد زوال سوى حلم مكتف بنأيه عن التحقق. حلم بعيد. راقب المشهد من شرفة فندقه وبعد أن أخذت المراكب تبتعد بصخبها وفرحها وهياكل أسماكها الحقيقية والمصنعة، عاد إلى سريره. حل في الغرفة الصمت المسترخي. حصل من الأيام الأربعة التي قضوها في المدينة على فسحة كافية للدوران في المدينة، للتيه في شبكة قنواتها العنكبوتية، لكنه فشل في الحصول على صيدٍ نسائي وداخله القرف من إلحاح أحد اللوطيين في الميناء وهو يتتبع خطاه ما أن يخرج للفسحة.

وهو مسترخٍ على سريره شعر بالخدر. أغمض عينيه، مستعيداً تمريناً قديماً، كان يفعله في حالات يداهمه فيها التوتر الشديد، القلق، الخوف، التوجس. تمرين يجعل رأسه صخرة توغل في ثقلها، لكنها صخرة مفرغة تدور حول فراغها، أو هذا يدور حولها، حتى يأخذه الدوران إلى تخوم النوم العميق. في تلك الأمسية دخلت المدينة إلى فراغ صخرته، دخلت بقنواتها الكثيرة وانغمارها بالبحر، بمراكب صياديها الملوّنة، بجسورها المزركشة التي تشبه لعب الأطفال، بساحاتها القليلة المكتظة بالطيور التي تنقر الحب قرب أقدام البشر بلا خوف ولا وجل، بكنائسها التي توهمك أنها نحتت من طراوة الخشب وليس من قساوة الحجر.. بصباياها المكركرات بزقزقة العصافير.. المدينة تدخل تباعاً إلى فراغ

صخرته.. حتى قرر مناكفتها بمقارنتها بمدينته الرابضة هناك بطرقها الترابية التي يحولها الشتاء إلى قنوات وبساحاتها التي تتحول إلى بحيراتٍ صغيرة.. لم يجد مدخلاً للمقارنة إلا بالنظر إليها من فوق من علوٍّ شاهق، عندها فقط ستبدو مدينة الثورة تشبه فينيسا. عاد من المقارنة الفاشلة إلى (فينيسيا)، وتذكر أن اسمها المتداول عندهم هو (البندقية). طرح عقله الخدر سؤال الحيرة: ما علاقة هذا بذاك؟، كيف ألبس أسلافه بندقيتهم على هذه الفينيسيا الجميلة.. هي ليست جميلة فقط، بل أن نتفاً من جمال مدن الكون قد تناسجت أطرافها لتشكل هذه المدينة، مدينة تشبه الوهم، كل ما فيها يخبرك أنها آتية من حلم، ليس حلماً واحداً، بل أحلاماً كثيرةً أرقت عقول فلاسفة ومفكرين ومهندسين وفنانين وشحاذين ومتصوفة وزنادقة.. جميعها قد تضافرت في مشروع هذه المدينة العجيبة المنبثقة من البحر.. لعل البحر كان في الأزمان القديمة يقذف مدناً.. وكانت آخرها (فينيسيا). بعدها كف البحر عن عطائه لأن البشر لم يعودوا يستحقون عطاياه.

هي (فينيسيا) إذاً، تحفة البحر الزاهية بحلتها الأخطبوطية.. لو قلنا أن قنوات فينيسيا تشقق جسد المدينة، لتجنينا على الحقيقة التي تقول أنّ المدينة هي التي وزعت أجزائها على البحر، أو هذا من قذف بتلك التحف الجميلة، قذف بها هكذا، بنظامٍ غير أرضي، بل بحري. يعود إلى عقله المبلبل بسؤال الحيرة: لماذا دعوها بالبندقية.. أكانت في تلك الأزمان أزمان الخلافة الزاهية بنادق.. أم هي نبوءة تجار حرب مهووسين بالأسلحة التي ستأتي بها عصور قادمة.. غير عصور أولئك الأجداد المفاخرين بالسيف وملحقاته في ثاراتهم العشائرية.. ظلّ الاسم بإيحاءاته الحسّية التي لا تحتمل التأويل، يثير التباساً في عقل خالد زوال الخدر من دوران المدينة في رأسه. استرخى الأربعة محمد وعبدو وحسن وخالد على أسرتهم كل اثنين في غرفة من تلك الغرف النظيفة والواسعة، التي حجزوها لهم في أحد فنادق المدينة من

الدرجة الرابعة، لحين موعد سفرهم في الصباح الباكر.

تتمزمز ما زالت أخيلتهم بذلك الإحساس الذي تلبسهم لأول مرة في تلك الأمسية، الإحساس بالنصر. لقد انتصروا في معركتهم. محمد المُرتكِن في السرير البعيد عن فتحة الشرفة، لم يزل يتماضغ مفردات نصره. كان هو قائد الإضراب وهو المفاوض الشيطاني باسمهم. لولاه لما حصلوا على أيّ شيء. كان يجيد لغة الطرفين اليوناني والإيطالي، حتى بدا لهم كأنه قضى عمره ينبش في قوانين البحر. لقد أوقع الكابتن في الفخ. ليومين متتاليين لا يريد الكابتن التصديق أن محمداً هو الذي فعل كل هذا. كان يثق به، عايشه لثلاث سنين متتالية.. هو الأقدم حتى من بين البحارة اليونانيين، والأعرف في شؤون البحر ومتطلبات الإبحار.. كان يعتمد عليه في الكثير من الشؤون.. بل يعتبره المساعد الفعلي له، وليس ذلك (الثخين) مساعده الرسمي.. لذلك اعتقد في البدء أن هذا الشاب المتطفل على عمل البحر خالد، هو الذي أوحى لهم وفعل كل ذلك. هذا ما نقله رشيد في اليوم الثالث للإضراب.

فشل خالد في تمرينه الذي كان فيما مضى يجلب له النوم العميق. لم يزل مستيقظاً. أخذ يسترجع مشاهد الساعة الأخيرة من معركتهم التي دامت أربعة أيام. دفعت خلالها الشركة أجور يومين رسوّ إضافية، لأنهم تأخّروا عن موعد الإبحار المقرّر. كان صبر الكابتن والشركة من ورائه قد نفذ في اليوم الرابع من المفاوضات مع ممثل النقابة. استسلم أخيراً، وتم توقيع الاتفاق على حصول البحارة المضربين على كافة حقوقهم المنصوص عليها في القانون، بحضور ممثل النقابة، وممثل الشركة في إيطاليا، مع رجل من البوليس، إضافة إلى محمد من طرف المضربين. حصل هذا مساء يوم الجمعة. بعد التوقيع حصل أن كان ممثل النقابة على موعد عمل في مكان آخر. لذلك اعتذر عن البقاء لحين استلام المستحقات. أخبر محمداً أنه سيذهب، لأن

المشكلة قد حُلّت وبعد ساعة سيجلب وكيل الشركة نقودكم كاملة ويستلم جوازاتكم. ليحجز لكم تذاكر سفر في أقرب فرصة ممكنة. ومن هذه الساعة إلى موعد السفر سيحجز لكم في أحد فنادق المدينة، لكنّ جوازات سفركم ستظل معه، ورقم هاتف النقابة معك للطوارئ.

في تلك الساعة التي غادر بها ممثل النقابة، حدثت المعركة الأخيرة. المعركة التي كادوا أن يخسروها وتذهب بقضيّتهم أدراج الريح لولا شيطنة وذكاء المغربي. النقابة من جهتها قد أغلقت القضية وأعطت إشارة إلى سلطات الميناء بالسماح للسفينة بالمغادرة هذه الليلة. لكن خلافاً صغيراً كان هو الذي فجر الأزمة من جديد، لم يكن محسوباً في البدء من قبل (قائد) الإضراب حين وافق ووقع. كان الخلاف مضمراً في بند يقول (تصرف المستحقات وفق القانون الإيطالي). حين جاء ممثل الشركة بحقيبة النقود، وبدأوا بالمناداة على كل واحد ليستلم مستحقاته. هنا فقط تنبه محمد إلى هفوته. عرف أنهم سيصرفون المستحقّات بالعملة الإيطالية وليس بالدولار. وبعد عملية جرد سريعة أجراها في ذهنه، استنتج أن جزءاً غير قليل من المستحقّات سيذهب لفرق العملة بين البيع والشراء. أخذ من جديد يصرخ ويهدد. ردّ عليه أحد اليونانيين بفشار بذيء. تدارك الكابتن الموقف وطلب الشرطة. خرج الجميع من السفينة إلى رصيف الميناء. استمرت دوامة الفشار والسباب بين الطرفين حتى تدخلت الشرطة. بوصول الشرطة تغير الموقف بمجمله لصالح الكابتن. الشرطة الذين وصلوا هم غيرهم الذين شهدوا الاتفاق. أخبرهم الكابتن أن لديه مشكلة مع بحارة متمرّدين والسفينة على وشك الإقلاع، لذا هو يطلب مساعدتهم. أطلع هؤلاء على جوازات سفر البحارة المتمردين، ثم أعطوها للكابتن. قال له كبيرهم:

- خذهم معك. نحن لا نريدهم في إيطاليا.

محمد كان ما زال يزعق ويهدد، لكنه حين سمع (لا

نريدهم في إيطاليا). هدأ فجأة. ثم صمت، وهو ما زال يتفرس في ملامح الكابتن. حتى قال للشرطي:

- نحن أيضاً لا نريد إيطاليا. لكننا نريد ما حصلنا عليه بموجب اتفاق بين النقابة والكابتن..

رفع الشرطي من صوته الآمر. مهدداً هذه المرة:

- اذهبوا واتفاقكم إلى الجحيم. حلّوا مشاكلكم خارج (إيطاليا).

تغيرت ملامح الكابتن، ومعه ملامح اليونانيين من بحارة ومساعدين، وحدثت بلبلة في الطرف المضرب، بين موافق ورافض للعملة الإيطالية. قال لهم محمد:

- المشكلة الآن ليست العملة، بل هو موقف الشرطة. سيجبروننا على الرحيل دون أن نحصل على شيء، والنقابة قد أقفلت أبوابها في هذا الوقت.

صمت الجميع ذاهلين. أحد منهم لا يدري ماذا بإمكانه أن يفعل أو يقول ليتداركوا الموقف. كان محمد أكثرهم إحساساً بالندم وشعوراً بالتأنيب لنفسه. وجد نفسه متلبساً بمطب قد لا يخرج منه. هكذا تكون القضية قد حُسمت لصالح الكابتن. في خضم ذلك التوتر والتهديدات المتبادلة وإصرار الشرطة على رحيل الجميع في السفينة، دارت في الرأس الصغير فكرة شيطانية، هو نفسه لا يدري كيف هبطت عليه. وكان خالد زوال هو بطل تلك الفكرة دون أن يعلم. فجأة زايل التوتر (محمداً)، تخلى عن تهديداته وشتائمه ولاحت ابتسامة استبشار على وجهه الداكن. أعلن للشرطة:

- نحن موافقون على الذهاب مع السفينة.

الدهشة عقدت لسان الكابتن، لم يكن يتوقع أن تنتهي القضية بهذه السهولة والسرعة والحسم وسيخرج منها دون خسائر. دنا محمد من الكابتن يريد أن يهمس له بشيء، وفعلاً همس له بذل الشيء وعاد إلى جماعته المتكورين على حزنهم وهواجس ما تحمله الرحلة

القادمة. كانوا غاضبين على طمع ومبالغة محمد في تصعيد سقف مطالبهم والأكثر من هذا غاضبين على ما قاله توأ. اقترب منهم بخطى الواثق من شيء قد حققه:

- اصبروا قليلاً وسترون!.

في تلك اللحظات العصيبة على المعسكر المُضرِب، كان الكابتن هو الآخر قد دخل في لغطٍ مع مساعديه. كأنه يستشيرهم فيما قاله له محمد همساً. وهؤلاء كانوا بين موافق ورافض. لكنه أخيراً حسم الأمر، وتوجه إلى الشرطة:

- لا حاجة لمجيئهم معي. سأحلّ المشكلة معهم.

ثم توجّه إلى محمد:

- سأصرف لكم فرق العملة كذلك.

الشرطة كذلك لم تفهم ذلك التغير المفاجئ في الموقف. الجميع كانوا مأخوذين بالدهشة. لقد حصل انعطاف غريب في مسار القضية. ما هو اللغز وأيّ كلمات ساحرة أوصلها المغربي للكابتن حتى يجعله يغير موقفه بهذه الزاوية الحادة. ملامح الغضب تلوّح وجه الكابتن هذه المرة بينما المغربي يبتسم بملامح المنتصر بين جماعته. الجميع سألوا بصوت واحد:

- ماذا قلت له؟.

غمز إلى خالد، وقال:

- هو الذي حل المشكلة!.

نفس الصوت الجماعي يسأل من جديد:

- خالد؟!!.

محمد سعيداً، مزهواً بنصره، تكاثرت الابتسامات على وجهه الضامر حتى بانت أسنانه الصفراء. لم يصدّق أحدٌ ما نطق به. ما علاقة خالد في ما حدث؟، أصلاً هذا كان طوال الوقت خارج اللغط، هو أقرب إلى المتفرج منه إلى المشارك.. لا يفقه شيئاً من كل اللغات التي كانت تتداخل

في تلك اللحظة.. لا ينتظر سوى اللحظة التي سيودع بها البحر، ومختنقاً بعقدة مساراته المتشابهة، يداورها دون أن يهتدي إلى شيء. اقترب من محمد:

- محمد!، ماذا قلت للكابتن؟.
- سأخبرك. لكن عليك أن تظلَ كما أنت الآن متجهم ووجهك يقطع الرزق.
- ما دخلي أنا؟.
- خوّفتهم بك!.
- شنو؟.
- قلت للكابتن إن إصرارك على أخذنا إلى اليونان، يعني لخالد أنّ الشرطة ستعيده عنوة إلى بلده، وهذا يعني له الموت، لذا هو لن يترككم بسلام خلال الرحلة. وأخبرني أنه سيقتل واحداً منكم، ومن ثم يرمي بنفسه إلى البحر.
- الله يلعنك. واضح أنهم صدقوك.
- كيف لا، والكابتن كان مصدقاً أنك تريد الانتحار.. ولم ينس بعد كيف كنت مجنوناً في شجارك مع مساعده.

عند هذا الحد تحول خالد زوال من هامش القضية إلى محورها. انتهت كل الإجراءات التي كانت مستحيلة قبل لحظات في غضون ساعة من الزمن.

كان على خالد أن يختار أحد البلدان، ليحجزوا له تذكرة إليها. ومع انغلاق كل البلدان أمام جواز سفره الذي سبق ووجد له حكيم وظيفة واحدة لا غير (أن يحوله إلى ورق تواليت) لمعت في رأسه المشوش (يوغسلافيا)، وجد نفسه هائلاً وهو يكتشفها. فكرة (جمهورية تيتو) التي تشبه دوّامة رأسه، لا أحد يعرف لها لوناً، ستكون كفيلة بإنقاذه من حيرة مفارق الطرق.. سينقذني (تيتو) من هذه العقدة اللعينة، سأنقل عقدتي إليه، ومن هناك أبدأ بالبحث من جديد عن مسار جديد.. لِمَ لا.. ألا يكفي

أني قرأت كتابه الضخم (مؤلّفات تيتو)، بل وتزاحمت مع المتزاحمين أمام شباك تذاكر (سينما النصر)، وهي تعرض فلمه (الانتصار العظيم).. وبعد كل هذا وذاك سيكون لديّ هناك صديق قديم من ملاعب الطفولة، إنه (قاسم). صحيح أنا لا أعرف عنوانه. لكني على الأقل أعرف اسم المدينة التي يدرس فيها.. ما يهمني الآن، أن (جمهورية تيتو) لا تطلب تأشيرة دخول لجميع مواطني دول (عدم الانحياز)، وأنا وجوازي لم نعلن انحيازنا لأحد بعد..

المفرق الأخير

في مطار (فينيسيا) تبادلوا العناوين والقبلات. كلٌّ توجه إلى طائرته. اختار محمد مدينته (كازبلانكا) ومعها ربما استقراره الأخير. كان هو المستفيد الأكبر من تلك المعركة، لقد حصل على ما يعادل ثلاث سنين عمل أخرى في تلك السفينة بحساب راتبه القديم. اختار حسن (مدريد)، سيبحث من هناك عن سفينة من تلك العابرة للمحيط هذه المرة، لِمَ لا؟، هو ميكانيكي ماهر ومعه شهادات خبرة كثيرة. عبدو اختار (باريس)، ليعالج مخلفات ضياعه الأول. ورشيد اختار الوقوف في صف الكابتن في محنته مع مجانين العرب. لقد طار الجميع وظل خالد ينتظر موعد طائرته. يرى جواز سفره وهو في يد ضابط الشرطة وفي داخله تذكرة سفر وهذا يتحدث مع أحد الموظفين. لقد طال انتظاره والضابط في كل مرة يطلب منه عدم الابتعاد. إلى أين يبتعد دون جواز سفر؟، دودة الشك تنخره. توجّس من شيءٍ غامض يبرز له في اللحظة الأخيرة. جاءه الضابط أخيراً، طالباً منه أن يلحقه. سارا متحاذيين حتى صالة الترانزيت. هناك حادث الضابط الموظفة المسؤولة لتسمح لخالد بالمرور والتوجه إلى طائرته. لم تكن مع خالد حقيبة كبيرة سوى تلك الحقيبة القابلة للطي والتحول من حقيبة يد إلى حقيبة سفر. تسلم جواز سفره وبداخله التذكرة من الضابط مع تمنيات الأخير برحلة سعيدة. وهو متوجه إلى المدرج الخاص بطائرته، سمع نداءً يحث

المسافرين إلى بغداد بضرورة الإسراع بالتوجه إلى طائرتهم. أنعشه اسم (بغداد) الذي تردد في فضاء الصالة الكبيرة، ردد مع نفسه «إن ثقة طائرة ستقلع الآن إلى بغداد..» وجد البوابة الخاصة بطائرته وفق الأرقام المثبتة في تذكرة السفر وركب الطائرة. رحبت به مضيفة أوروبية بابتسامة دافئة وهي تقرأ تذكرته لترشده إلى كرسيه. جلس. شعر بحاجة للتدخين. أخرج سيجارة وحاول إشعالها. أخبره الجالس إلى يساره أن التدخين ممنوع. أعاد السيجارة. تذكر جواز سفره والتذكرة. أخرج التذكرة من جواز سفره وفتحها. قرأ أسم (بغداد). تراخت أطرافه وانهدل فكّه وعلق شيءٌ صلب في رأسه. بدا كمن يريد الخروج من هدومه. صار يردد: هذا خطأ خطير.. إلى بغداد.. ماذا أفعل هناك؟. تململ الجالس إلى يساره. وإذ تطلّع إلى وجهه، وجده كمن غصّ بشيء ويكاد يختنق، لكنه لم يحاول التطفل، عاد إلى مجلته التي كان يقرأ فيها. ما زال خالد يتحدث لا يعرف مع من.. ضرب اللعين ضربته.. ليش آني؟. فعلها وحقّق أخيراً نصراً صغيراً على شلة العرب الذين فاجأوه بانتصارهم.. حقق الكابتن هدفاً.. لكن في مرمى مَنْ.. ليش آني؟. لكن لحظة.. لحظة.. بغداد.. بلغراد.. بكداد.. بلكراد.. يا إلهي.. هل وقعت في فخ النطق الأعوج لاسم مدينتي.. المسافة شاسعة بين المدينتين.. لكنها قريبة في النطق.. تنبه الجار إلى هذيان خالد زوال، صار يحدق مباشرة إلى وجهه، ويتابع اعوجاج الخطوط المحفورة على جبينه وتحت عينيه، كانت خطوط تشير إلى شيخٍ رُكّبَ على جسد فتي. سأل الجار:

- أستطيع مساعدتك؟.

سأل بإنجليزية غير أصيلة. أشاح خالد بوجهه إلى النافذة الصغيرة، ينفث على زجاجها دخان احتصاره، ومن بين ضباب الدخان طالعته الغيوم مجسمة حاجبة عنه الأرض.. الذهول والحزن بدءا ينضحان من مساماته ويسيلان على زجاج النافذة في حبيبات لامعة ومشوهة.

تذكر أن الجار قد سأله شيئاً. سأل:

- نعم؟.
- هل أنت على ما يرام؟.

سأل الجار من جديد مندهشاً من ذهول وشرود هذا الشاب المسن، الذي لا يمل من البحلقة في زجاج النافذة كلما قرأ تذكرته من جديد. خرج خالد أخيراً من حبيباته السائلة على زجاج النافذة، وأجاب جاره بإنكليزيته المتعثرة:

- شكراً. لكني أسأل؛ إلى أين أنا مسافر؟.
- ماذا؟!.
- أقصد.. إلى أين تسافر تذكرتي؟.

ولقطع دابر استغراب وعدم فهم الجار، أعطى التذكرة وجواز سفره لجاره كمن يريد التخلص منهما. أرجع هذا جواز السفر، وأخذ يقرأ التذكرة. أخبره:

- محطّتك الأخيرة هي بغداد.. لكن عليك الانتظار ساعتين في فرانكفورت.

سحب خالد التذكرة من يد جاره كالملهوف. وجد بصيصَ أملٍ في ما قاله:

- شكراً، لقد فاتني هذا.

أحس خالد وهو يقرأ التذكرة من جديد، ببلاهته وبلادة عقله، لماذا فاته هذا.. لماذا لم يلمح اسم (فرانكفورت) الموجود قبل (بغداد). عاد من جديد وشكر جاره. واضحٌ أن هذا ما زال لم يفهم ماذا حلّ بهذا الشاب. أحس أن ثمة نثيثاً منعشاً أخذ يرطب روحه، ويسحب رويداً تلك الخطوط المعوجة التي رُسمت على جبينه وتحت عينيه، مع استمرار حرقةٍ ويباسٍ يحسه في بلعومه. ضرب على الجرس الخاص بطلب الخدمة. طلب ماءً من المضيفة التي جاءت بابتسامتها الأنيقة. جلبت له كأس الماء، كرعه دفعة واحدة وطلب كأساً آخر.. كرع ثلاثة كؤوس من الماء مع اندهاش المضيفة

التي اقترحت عليه؛ أن تجلب له قنينة بيرة مثلاً. شكرها رافضاً البيرة.

هدأت روحه قليلاً، وبدأ رأسه يحاول تجسيد ملامح الساعات والأيام القادمة.. عليك بالذهاب دون تأخير إلى كوة الخطوط الجوية الإيطالية، ستطلب تصحيح التذكرة، بدل (بكداد) سيضعون (بلكراد).. لن تدفع ثمناً إضافياً لأن ثمن المسافة إلى (بغداد) سيغطي المسافة إلى (بلغراد) ويزيد.. من (بلغراد) مباشرة دون أي تأخير إلى مدينة (ماريبور).. هناك ستسأل يا ولد يا حلو عن السكن الجامعي للطلبة الأجانب.. ستجد من يدلك عليه.. هناك ستجد عراقياً أو عربياً يرشدك إلى (قاسم).. سيكون قاسم ملجأك الأول.. ستجده لم يزل ذلك الطفل الذي تعرفه. سيقف مذهولاً أمامك يفرك جعدة شعره.. هكذا هو (قاسم)، الذهول يتلبسه لأمور أقل فجاءة من حضورك أمامه، سيفرك عينيه كما يفعلها عادة إذ يفاجأ بشيء أو كائن، يفرك عينيه ليتخلص هذه المرة من شبح اعترضه في الطريق، هو شبحك، ما أن يخرج من متوالية الفرك تلك، سيحصل على اليقين، ليكن يقيناً مراوغاً، غير أن للرؤية طعم الحضور، وهذا أسطع البراهين، سيقترب منك قليلاً، مع أن خيوطاً لعينة من الارتياب ما زالت ممسكة به، ليعود معها إلى فرك عينيه من جديد.. سيخاطب شبحك.. وأنت في كل ذاك تلملم أشلاء قهقهةٍ كبيرة تحاول بها تمزيق ضريح الشك.. لعبة اليقين المرتاب تدفع بصاحبك للمس جسدك، تمد له يداً.. ينحيها.. يقفز عليك كقط.. يتعلق برقبتك، نافضاً آخر خيط من الارتياب.. يدخل مساحة اليقين المتخفّف، ولسانه يلهج بذات الجملة التي كان يستقبلك بها إذ يلتقيك عائداً من الجبهة قبل سفره للدراسة:

- لم يحدث لي أن قابلت ميتاً قبل الآن.

تقول له:

- أنت في زمن المعجزات.

يجيبك:

- لكني لست نبياً.. ولا منتدباً من الشيطان حتى.

تقبله.. يقبلك.. سيبكي، كان يحاول البكاء في تلك اللقاءات التي تمنحها لك الإجازات الدورية، ما بالك الآن وبعد سنة ونصف من الفراق.. ستبكي أنت.. يظل البكاء معجزتنا التي ينصح بها وعينا الجمعي، تطفو على السطح قريبة في متناول الجميع.. ستحذره:

- قاسم أعفني من كل أسلحة وأدوات الاستفهام الآن. سأتفرغ لها فيما بعد. موافق؟.

سيرد:

- على شنو موافق.. خليني بس أفتهم..

ستقاطعه أنت:

- راح تفتهم.. بس خليني أنام.. احتفظ بأسلحتك لما بعد النوم..

سيأخذك إلى غرفته.. إلى بيته. أخته أخبرتك أنّ له بيتاً مستقلاً عن السكن الجامعي. يدخلك إلى الخمام. في الخمام ستقوم بآخر عملية توديعٍ للبحر، تغسل جسدك، تطرد منه كل روائح البحر، روائح أناس البحر، ثم تدعك روحك بالليفة. هكذا لتبدأ من جديد. وأنت تنشف جسمك، ستطالعك فقاعات الأحلام والأوهام ووجوه المرحلة السابقة، لتبدأ الخطوة الأولى من الرحلة القادمة، الرحلة التي بدأت الآن أو لعلها بدأت منذ دهر. الفقاعات ستبحر متمهلةً تحملها مياهٌ ثقيلة محملة بأوساخ الجسد إلى المصرف. هناك في انصرافها ستحدث صوتاً، ذلك الصوت سيكون بداية الآتي أو نهاية الماضي، الحد الفاصل بين وحدتي الزمن اللعينتين. تلك الفقاعات المنصرفة هي كذبة الحاضر المدوية التي ستنفجر مع فقاعات الصابون في المصرف. ومع انصراف آخرِ فقاعةٍ من فقاعات حاضره أو ماضيه، كانت الطائرة قد بدأت بالهبوط على مدرّج مطار (فرانكفورت).

مطار فرانكفورت

الخيارات باتساع الكون، والمسارات معروفة.. كلها تنفتح من هذه المساحة الصغيرة الزاخرة بحركة دورانية من هبوط وإقلاع الطائرات. خيارات تتناثر في المحصلة كتناثر نوايا البشر، كلٌّ يحمل حقيبة صغيرة، هي ما تبقى له من حقائب وأكداس تكون قد شُحنت على عربات خاصة إلى أجساد الطائرات. حقيبة صغيرة تحوي أشياء لا يريد المسافر أن يفارقها، لتكن أوراقه الثبوتية، أو أية أوراق أخرى، ربما هي أدوات الحلاقة، أو علب زينة، أو هي أشياء ثمينة يُراد لها البقاء تحت اليد في كل الظروف، لا شيء يشبه حقيبة خالد زوال، لميزتها العجيبة في التحول، هي حقيبة مزدوجة، كازدواج أشيائه وخياراته، هي حسب الظرف تتحول من حقيبة سفر إلى حقيبة يد، أو بالعكس، هي الاثنان معاً.

هو الآن في صالة ترانزيت مطار (فرانكفورت). النوايا تعابثه. وهو يلاحقها، يحاول أن يبني له مساراً من أشلائها، مساراً غير قابل للتبديل. لم يزل الحد الفاصل بين مسارين، هي تلك الوحدات الزمنية التي تحث السير لتلحق بجاهزية الطائرة التي تنتظره. شعر أنّ في وجهه شيء أخذ يجذب انتباه الآخرين، لعله علامة جبين، أو هو رائحة الأفكار والأوهام التي تراود الإنسان قبل موته. ثمة رائحة تغري الآخرين إن لم يكن في مجالسته، فليس أقل من التطلع إليه.. لعل ملامحه كانت تنبئهم بشيء جديد لم يعرفوه من قبل، شيءٍ لا يحدث إلا مع الذاهب إلى حتفه، أو لعلّ الناس هكذا هم فضوليون بالسليقة. لكن ما سر هذه البحلقة فيه؟، لم يمر أحد دون أن يؤدي واجب البحلقة في هذا الكائن الجالس قرب كوّة (الخطوط الجوية الإيطالية). جلست إلى جانبه امرأة والاندهاش المكبوح يمسك بملامحها التي تشير إلى موطنها، الكائن في زاوية ما من تلك القارة الهندية. صارت تبحلق به بين فينة وأخرى حتى حادثته بلهجتها المحلية. لهفة الحديث الحميم لا تنضح إلا عن تلك

العلاقات المغموسة بدفء من نوع ما، قرابة، صداقة، أو شيء من هذا القبيل، وإذ وجدته لا مبالياً، مذهولاً، يتطلع ببلاهة إلى مفرداتها وهي تتساقط بعيداً عن إذنه، لفّها الانكسار وعكر صفو ملامحها السمراء الصافية. لم تزل تحدثه بلهجتها، وهي على يقينها؛ أنه هو. «لكن، ماذا دهاه لا يرد على أسئلتي، كأنه لا يفهمني». أخذ الغضب يتماوج على وجهها، لعلها تقول: أتنكرني؟. طلب منها أن تتحدث بالإنكليزية، لم يزل الغضب ممسكاً بمفرداتها:

- من أنت؟.

أمام هذا السؤال البريء، لا ينفع غير العبث:

- أنا إيطالي من جزيرة (سيسيليا)!.

جميل، ملامح متقاربة. هكذا هم سكّان (سيسيليا) تجد فيهم ملامح كل البشر..

- إلى أين أنت ذاهب؟.
- لا أدري، لكني سأخبرك؛ أنا مسافر مع طائرتي!.

حين تركته المرأة الهنديّة الشابة، ظلت على قناعتها بهنديته، سوى أن عارضاً من نوعٍ ما ألم به، وجعله هكذا ينسى كل شيء. مكبرات الصوت في صالة الترانزيت ما زالت تردد اسم بغداد، وأمعاؤه تغلي بفضلات مدينة (فينيسيا). فقط أنّ رأسه كان يمرر خططاً لا تشير إلى بغداد. عاد إلى الكابتن من جديد: «كيف تسنى لذلك اليوناني الأملط أن يفعلها معي بهذه القسوة، لم أفعل له شيئاً، الذي حدث أني وقفت مع أشباهي، كانت لهم حساباتهم، ولم تكن لي أية حسابات، غير حسابي مع البحر. أردت الخلاص من البحر فقط». الموظفة في كوة الخطوط الجوية الإيطالية اعتذرت عن تغيير تذكرة سفره، لأن مهمتها ليست أكثر من استعلامات. إذا أراد ذلك عليه أن يقصد مكتب الخطوط خارج الترانزيت، وبالطبع سلطات المطار لا تسمح له بالعبور، لعدم حصوله على تأشيرة دخول. وجد أنّ مسار قاسم ومدينته التي يشبه اسمها اسم ماركة السكائر المعروفة قد بدأ يتكركب

على رأسه، لا يعرف إليه مدخلاً. هي عقدة مفارق الطرق من جديد. بغداد حاضرة في هذه القاعة المكتظّة بتنوعاتها وألوانها، سوى أنها كانت بحلة لا لون لها، لم يزل جالساً قريباً من تلك الكوة التي اعتقد أنها ستغير له مصيره. هذه امرأة أخرى، بعد أن تعبت من التحديق به، جلست إلى جانبه كذلك، ولأنها ستسأله ذات الأسئلة البريئة، بادرها هو هذه المرة محاولاً قطع المحاولة:

- من تكونين؟، وإلى أين أنت ذاهبة؟.

التفتت إليه محدقة بذات الاستغراب، لم تجبه على أسئلته البريئة. لكنها طلبت منه سيجارة، قدّم لها واحدة وأشعلها، سحبت نفساً، وعادت تحدق في وجهه إنما بعيون مطفأة هذه المرة. بعد مدة لعلها طالت، قالت:

- أنا إيطالية.

شعر كم كان فضوله مهماً هذه المرة.. كنت مع الهنديّة إيطالياً.. ماذا لو لم اسألها سؤالي المهم هذا وبادرتني هي بالسؤال؟، لكنّ المرأة لم تسأل. كانت مُتعَبة، شيء ما عكر روحها، وأخذ يزحف على ملامحها. صارت تحدّثه أو تحدّث نفسها عن أشياء لم يفهمها كلها، قالتها بطريقة دعك المفردات الإنكليزية بغنج اللغة الإيطالية. لم تصغ لعدم فهمه ولانشغاله عنها، كانت تريد أن تتحدث فقط، يكفيها صمت من توجه حديثها له. مكبرات الصوت تعلن أن على آخر المسافرين إلى بغداد التوجه إلى بوّابة الدخول. كأنه سمع اسمه يتردد بين جنبات الصالة الكبيرة. شاهد أشخاصاً يعبرون من أمامه إلى تلك البوابة المُعلن عنها، كائنات يكاد يعرفها، عيناه لا تخطئان ملامحها، حتى ظن أنّ مسدساتهم معهم الآن. ذات البدلة السفاري التي ترتديها تلك الكائنات في بلده، هي بين البيجاما والطقم الرسمي، نوعٌ من حلٍّ وسط، تحمي لابسها من خنقة ربطة العنق التي يفرضها الطقم الرسمي، وبنفس الوقت هي تستر المسدس والجسد من ريح السموم. مسدساتهم هناك فوهاتها موجهة إلى أردافهم.. أنا لم أرتد تلك البدلة في حياتي.. أنا حتى أكرهها.. كيف

سيدخلونني إلى الطائرة دون تلك البدلة؟، الهذيان بدأ يعاوده من جديد.. ما علاقة بدلته بتذكرة السفر.. على مدخل الطائرة لا يسألون عن البدلة السموكن، بل عن التذكرة.. تذكرتك رجاءً.. تفضل.. ولأنك عراقي، سوف لن تحتاج إلى تأشيرة دخول.. ستدخل.. نعم، أولاً وأخيراً ستدخل.. وهناك حين الوصول سينتظرك مدخل خاص بك، هو الآخر لا يبحث عن تأشيرة.. أحدٌ لن ينتظرك هناك غير ذلك المدخل.. المدخل الذي سيتحول آلياً إلى مخرجٍ إلى العالم الآخر. على أيّ حال كثيرة هي العوالم الأخرى في بلده. ما زالت الإيطالية تلوك مشكلتها مع ابنتها، التي غيرت فجأة مسارها. هجرت أمها وأخذت طائرة (كندا) إلى حيث صديقها. هكذا تركت أمها العجوز تعود إلى إيطاليا وحيدة ومهجورة.. تلك الفتاة كانت أشجع مني، اختارت ما تريده، هكذا يكون الأمر سهلاً، غيرت تذكرتها واختارت مصيرها.. وأنا متى أغير مصيري.. الأم حزينة وغاضبة على ابنتها، يراودها ندم من نوع ما، أو عتب غير واضح إن كان على نفسها أو على ابنتها المتمردة. خرجت من ندمها أو عتبها فجأة، لتكتشف أن ثمة كائناً جالساً إلى جانبها يحمل بيده جواز سفر بداخله تذكرة. كأنها كانت طيلة الوقت تحدث نفسها، والآن فقط عرفت بوجود هذا الكائن:

- أنت إلى أين ذاهب؟.

كان السؤال يدور أصلاً في رأس خالد زوال، غير أن لهفة وجدها تنطق من على لسانه:

- إلى بغداد!.

فتحت المرأة فمها من الدهشة، وأخذت تحدق به كما لو أنه أخبرها بتحطم طائرة ابنتها، نهضت من فورها وأمسكت بيده، لعلها اقتلعته. كانت تركض وتسحله معها، توبخه بمزيج فريد من الإيطالية والإنكليزية. واضح أنها كانت توبخه على هذا الصمم الذي يتمتع به.. هي تركض وهو يركض وراءها، من هنا.. أسرع.. من هنا.. أسرع.. وعلى مدخل الممر الذاهب إلى طائرة بغداد، وقفت وهي

تلهث، وقف قبالتها مستلباً لا يدري لماذا فعل ما فعل. على مدخل الممر الضيق المؤدي إلى الطائرة، قبّلته المرأة الإيطالية على خده. كانت قبلة دافئة، تشبه قبلة الأم، لعلها كانت قد ادخرتها لابنتها المتمردة. تلاشى من رأسه الوشيش، انمحت من ذاكرته كل أسماء المدن الأخرى. وجهٌ وحيد، وسؤالٌ وحيد، ظلا يهومان في ضباب رأسه.. وجه أمه.. وهل ستقبّله القبلة الأخيرة؟.

روتردام/ ٢٠٠٣